المقاومة الحضارية

دراسة في عوامل البعث في قرون الانحدار

اسم الكتاب: المقـاومة الحضارية.. دراسة في عوامل البعث في قرون الانحدار
التأليف: الأستاذ/ هاني محمود
موضوع الكتاب: فكر
عدد الصفحات: 247 صفحة
عدد الملازم: 15.5 ملزمة
مقاس الكتاب: 14 × 20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 27311 / 2016
الترقيم الدولي: 9 - 603 - 278 - 977 - 978 : ISBN

1438 هـ
2017 م

التوزيع والنشر
دار البشير للثقافة والعلوم

Darelbasheer@hotmail.com
Darelbasheeralla@gmail.com
ت: 01012355714 - 01152806533

مركز الحضارة للدراسات السياسية
Civilization Center for Political Studies

http://WWW.hadaracenter.com
alhadara1997@gmail.com

مركز الحضارة للدراسات السياسية
سلسلة الوعي الحضاري (17)

المقاومة الحضارية

دراسة في عوامل البعث في قرون الانحدار

الأستاذ/ هاني محمود

أكاديمي وباحث

دار البشير
للثقافة والعلوم

بسم الله الرحمن الرحيم

{الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ}

[الحج: 41]

صدق الله العظيم

إهداء

إلى كل من ذاق مرارة الألم

في سبيل نصرة الحق وإظهار الحقيقة

تقديم السلسلة

أ.د. نادية محمود مصطفى

صدر العدد الأول من سلسلة الوعي الحضاري عن مركز الحضارة تحت العنوان التالي: "الثورة المصرية نموذجًا حضاريًّا"، فلقد كانت الثورة المصرية محفزًا لبداية إصدار هذه السلسلة، ولقد توالت السلسلة لتقدم حتى الآن الموضوعات التالية:

الثورة المصرية نموذجًا حضاريًّا (1)، الديمقراطية العالمية من منظورات غربية ونحو منظور حضاري إسلامي في العلاقات الدولية، الثورة المصرية نموذجًا حضاريًّا (2)، مستقبل الثورات مع صعود الإسلاميين.. رؤية من منظور الفقه الحضاري الإسلامي: من فقه الأصول إلى فقه الواقع وفقه التاريخ، دوائر الانتماء وتأصيل الهوية، المرحلة الانتقالية: قراءة في المشهد المصري، أمتي في العالم: مقدمات الحكيم البشري، الثورات العربية في النظام الدولي، السياسة الأمريكية والثورة المصرية، القوة الذكية في السياسة الخارجية: دراسة في أدوات السياسة الخارجية الإيرانية تجاه لبنان (2005 – 2013)، قرن الرعب الأفريقي: الغزو والمقاومة، قراءات في فكر أعلام الأمة، العنف والتحول الديمقراطي في مصر بعد الثورة، إعادة نظر في الأمن

القومي المصري والعربي في ضوء تحولات الربيع العربي، تجديد الوعي بنظام الوقف ومقاصده.

إن تجديد الوعي الحضاري وإيقاظه، وخاصة في مرحلة الثورات، وبدرجة أخص حين تواجه هذه الثورات تحديات، يتطلب أمرين: من ناحية أولى: استدعاء الكثير من المفاهيم، الداخلية والخارجية، مثل: الثورة، والديمقراطية، والعدالة، والتغيير العالمي، والقوة، والانتماء والهوية، والأمن والعنف. كما يتطلب- من ناحية أخرى- تقويم الخبرات والتجارب، وخاصة تلك المتصلة بالحركات السياسية الإسلامية، وتلك المتصلة بخبرات النماذج الفكرية الإسلامية عن الأمة والنهوض والتجديد والاستقلال، أو المتصلة بتاريخ الاستعمار وورثته في الداخل المصري والإقليمي العربي، أو بدور قوى إقليمية في جوارنا الحضاري، وما تمثله سياساتها من فرص أو قيود وضغوط في المنطقة. ناهيك- بالطبع- عما يتصل بخبرة الثورة المصرية ذاتها كنموذج حضاري، وما تواجهه من تحديات داخلية وخارجية، وثورة مضادة منبعها النظام الدولي والإقليمي المحيط بكافة الثورات العربية.

ولعل الأعداد الصادرة من السلسلة حتى الآن تكون قد أسهمت في الاستجابة لبعض هذه المتطلبات. ويظل الاحتياج قائمًا لمزيد من العمل في مجالات أخرى؛ حفزًا للوعي الحضاري وتجديده، باعتبار هذا الوعي هو المنطلق والأساس لتغيير حضاري مأمول.

ولقد تعددت مداخل تحليل الثورة المصرية (ثورة 25 يناير) وتطور مسارها عبر ما يزيد عن الستة أعوام حتى الآن، ما بين المداخل الاجتماعية والاقتصادية والمداخل السياسية، سواء المتصلة بتوازنات القوى السياسية الرسمية وغير الرسمية، أو توازنات القوى المدنية والشعبية والدينية. وبقدر ما كان الداخل حاضرًا بوطأة تحولاته على الثورة وهي تواجه ثورة مضادة، بقدر ما كان الخارج حاضرًا- أيضًا- بقوة، سواء فيما يتصل بالإطار الإقليمي "غير الصديق" للثورات في عمومها، أو فيما يتصل بالإطار العالمي؛ حيث أضحت مصائر الثورات والثورات المضادة أوراقَ مناورة في لعبة التوازنات بين القوى الكبرى.

ولايزال التاريخ ينضح بالدروس والعبر؛ سواء تاريخ الازدهار أو تاريخ الانحدار، ولايزال يقوم بدوره؛ معملًا للتجارب، وبرهانًا لمضيّ السنن، وحكمًا فاصلًا بين التحديات والاستجابات، والاستجابات العليلة والاستجابات المقاومة، وبين منطق المقاومة ومنطق المقاولة، وبين المقاومة الحضارية على بصيرة وبروح الأمة، والمقاومة على عمى وبروح مغايرة تؤول بمسارها إلى ترسيخ قواعد العدوان لا إزالته. ولذا فإن جهود وأفكار الإصلاح والتغيير والمقاومة في اللحظة التاريخية الراهنة (لحظة الثورات والثورات المضادة، والهجمة الحضارية الجديدة ونماذج مقاومتها) يبدو في أمسّ الحاجة لمراجعة دروس هذا المورد العظيم: التاريخ.

وفي هذا الإطار، يأتي هذا الكتاب (المقاومة الحضارية: عوامل البعث في قرون الانحدار) للأستاذ/ هاني محمود؛ ليمثل إطلالة وقراءة منهجية لفترة من تاريخنا الإسلامي غير البعيد، تندرج تحت عصور التراجع والوهن والفوضى والتخلف الحضاري، لكنها رغم ذلك حملت في طياتها خمائر عزة، لم تلبث أن أينعت وكشفت عن جودة معدنها أمام التحدي الحضاري القادم في صورة غزو أجنبي، حاول أن يخفي سوءات أغراضه الاستباحية وراء شعارات براقة، لكنها زائفة وفاسدة.

وقد حاول الكتابُ القراءةَ في مشهد المقاومة والبعث الحضاري من خلال التأمل في ثلاث دوائر متحاضنة ومتفاعلة، وتعد كبرى هذه الدوائر وأوسعها هي الحركة الجماهيرية وأثرها في الحفاظ على الكيان المادي والمعنوي للأمة مع كون هذه المقاومة الجماهيرية هي الرافد الأساس الذي أفرز النخب المقاومة وعضَّدها في مسيرتها النضالية، والدائرة الثانية هي دائرة المؤسسات الوسيطة ودورها في المقاومة الحضارية، ومثل لها بـ (حركية الأزهر الشريف) في حقبة الحملة الفرنسية وما تلاها، وعقد مقارنات بين عمل هذه المؤسسة الوسيطة في حقبة ازدهارها (حين كان لها صفة تمثيلية نابعة من التحامها بحركة الشارع) وبين عملها في حقبة تراجعها حين نزعت منها هذه الصفة التمثيلية وتقلص عملها. أما الدائرة الثالثة فهي دائرة المقاومة بالكلمة، ومثل

لها بدور الفتوى في المقاومة الحضارية.

والكاتب باحث أكاديمي واعد، متعدد المشارب والخلفيات، يقف على تخصص شرعي متميز في الفقه وأصوله، ويمدّ نظره في القانون، والتاريخ، والسياسة والفكر... ما يجعل تناوله لمثل هذا الكتاب جديرًا بالتميز والإثراء.

ومركز الحضارة للدراسات السياسية، إذ يقدم لهذا العمل، يرجو أن يكون علمًا نافعًا، وعملًا متقبلًا، والحمد لله.

مركز الحضارة للدراسات السياسية 2016

فهرس المحتويات

الفصل الثاني

الفصل الثالث:

مُقَدِّمَة

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله - ﷺ - وبعد..

فهذه سطور مكتوبة بمداد من الأسف والأسى على ما آل إليه حال أمة منكوبة، إرادتها مسلوبة، لا تراها إلا على الضد من كل تستحقه من رفعة وريادة، وللذين أحسنوا الحسنى وزيادة!

لكن على الرغم من تعدد بواعث الأسى؛ تمتزج كل كلمة كتبتها -في هذه السطور- بمشاعر الأمل في مستقبل مشرق ستصل إليه الأمة - يقينًا بمشيئة الله تعالى- بعد أن تتجاوز طور الغفلة إلى طور اليقظة والوعي بمكانتها اللائقة بها، وبمدى حاجة البشرية التعسة - رغم كل ما قدمته الطفرات العلمية والتكنولوجية من أسباب الترف والرفاهية - إلى عودتها لسالف أمجادها[1].

ولم تزل هذه الأمة تتعرض كل حين لألوان من التحديات التي تهدد كيانها أو تنهك بنيانها، الأمر الذي يستدعي مقاومة من الأمة

(1) يراجع في هذا المعنى الكتاب الماتع الذي صنفه الأستاذ أبو الحسن الندوي بعنوان: (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين).

ويستنفر طاقاتها على أوسع نطاقاتها ومن كافة طوائفها وفئاتها، فيما نصفه في هذه الأوراق بالمقاومة الحضارية. وفي هذه الفصول عرضت نماذج للمقاومة الحضارية في قرون الانحدار[1]، وقد راعيت في اختيارها أن تكون معبِّرة عن تعدد الفاعلين في العمل (المقاوِم)، كما تعبر عن اتساع نطاق هذه المقاومة على نحو يدل على بقاء الحيوية في هذه الأمة رغم استحكام الداء، وتمكن الأعداء.

وتكمن أهمية هذا الموضوع (المقاومة الحضارية في قرون الانحدار) في أنه بحث في الجذور، أعني الجذور التي ينبثق منها واقع الأمة الراهن في صورته القائمة والقاتمة[2]، ولا يخفى أن

(1) وقد اصطلح مؤرخو المنظور الحضاري الإسلامي على عدها القرون الثلاثة المنصرمة؛ حيث بدأ التراجع بضعف دولة الخلافة العثمانية ودخولها في مرحلة ما سماه الغربيون بـ (الرجل المريض). وكان دخول الحملة الفرنسية إلى مصر علامة فارقة على دخول الأمة في هذه الحقبة، وسيأتي تعليل ذلك على نحو مفصل.

(2) هذه العبارات وأشباهها لا تعدو أن تكون وصفًا للواقع، ولا أقصد بها أن يكتسب القارئ نزعة تشاؤمية لا قدر الله تعالى بل كلي أمل في غد مشرق لهذه الأمة تستعيد فيه – عما قريب – زمامَ الريادة رغم هذا الكم الكبير من المأساوية الظاهرة في واقع الأمة؛ لأن هذه المأساوية جزء من الثمن الذي دفعته وتدفعه الأمة في هبَّتها المباركة التي لاحت بشائرها، وطمأنت المخلصين من أبناء الأمة إلى أن أمتهم قد أبصرت الطريق وحددت الأهداف رغم الأخطاء التي وقعت فيها حركات التغيير، وما هذه الأخطاء إلا مقدمات تصحيحية لا بد منها في كل حركة صدرت عن أمة اتخذت قرار التغيير.

تحليل هذا الواقع مقدمة ضرورية لتشخيص الداء ووصف الدواء، ولا يتأتى للباحث المستقصي تحليلُ هذا الواقع إلا بالكشف عن جذوره الضاربة في أطناب التاريخ القريب الذي أشبهت أيامه أيامنا، فصار هذا البحث من المقدمات المهمة لتشخيص الواقع وصياغة نموذج السعي المنشود؛ تطبيقًا للقاعدة الذهبية التي تنص على أن (الوعي قبل السعي)، ولا يخفى أن التبصر بالمسيرة التاريخية – واستخلاص قوانينها، واستيعاب دروسها- ركن ركين من أركان هذا الوعي.

وقد لفت نظري أثناء الدراسة أن الأمراض الكبرى التي عانت منها الأمة – في الحقبة محل الدراسة – لا تزال كما هي متمكنة من جسد الأمة إلى يومنا هذا، ومانعة إياها من تحقيق النهضة العظمى والطفرة الكبرى التي تلزم كي تتبوأ أمتنا المكانة اللائقة بها في مقدمة الأمم، وتودِّع بها الأمةُ – إلى غير رجعة – المكانةَ التي تبوأتها في العالم الثالث، وكأن أمتنا لم تعِ حركة التاريخ التي وعتها الأمم الناهضة وأفادت منها في تصحيح مسيرتها، وترشيد حركتها. وكأن أمتنا لم تستفد من دوران عجلة الأيام خبراتٍ تخرجها من كبواتها، وتفيقها من غفلاتها.

ولعل الوقوف على هذه الحقيقة الواقعية – ذات السند التاريخي- يضيف بُعْدًا آخر لأهمية موضوع الدراسة.

وقد حاولت - قدر استطاعتي- الاقتداء بأئمة المدرسة التاريخية الإسلامية[1] في الولوج إلى كهف التاريخ من مدخل البحث في: سنن العمران البشري وقوانين الاجتماع الإنساني التي صاغتها يد القدرة الإلهية، وطوتها في ثنايا الحركة التاريخية للأمم؛ لذا حاولتُ تحليل النماذج المعروضة - في إطار حركتها الاجتماعية، وفي سياق ظرفها التاريخي- لاستخلاص العوامل والقوانين الموجهة لهذه الحركة، والانتباه إلى الحقائق التي أسفرت عنها؛ من أجل تحصين الواقع من آفة تكرار الأخطاء، وتيسير عملية إعادة صياغة الواقع على وفق ما تقتضيه الشريعة الربانية، والحكمة العقلانية.

(1) يعُدُّ الباحثون المعاصرون ابنَ خلدون رائد هذه المدرسة التي لا تكتفي بعرض أحداث التاريخ في صورة مدونات سردية خالية عن التحليل - الرامي إلى استيعاب القوانين المسيّرة لحركة التاريخ - بل تضع هذه المدرسة في اعتبارها النظرَ إلى التاريخ؛ باعتباره وعاءً متجددًا لحركة الاجتماع البشري الساعي في تحقيق العمران الإنساني وفق سنن ربانية وقوانين اجتماعية توجه هذه الحركة، فيهدف المؤرخ العمراني إلى تحليل حركة الاجتماع البشري - في سعيه للعمران وفق القوانين سالفة الذكر- لاستخلاص العلل والأسباب التي تتمخض عنها حركة العمران، واستنباط القوانين الموجهة لهذه الحركة، كل هذا بقصد الإفادة من هذه الاستنتاجات في ضبط حركة الواقع وإعادة تشكيله وفق الإرادة الإلهية وما تقتضيه الحكمة العقلية المستبصرة بدروس التجربة التاريخية.

وبمناسبة الإشارة إلى ابن خلدون وريادته للمدرسة الإسلامية في التأريخ العمراني؛ أود لفت النظر إلى مؤرخ آخر يعد منهجه امتدادًا لهذه المدرسة، أعني الإمام الجبرتي في كتاباته التاريخية التي امتازت بعرض الأحداث التاريخية مشفوعة بالتحليل العميق المستبصر بتأثير السنن والقوانين سالفة الذكر.

ونظرًا لأن البحث تغلب عليه الصبغة التاريخية.. فكان لا بد من الاستعانة ببعض المصادر التاريخية التي تتوافر فيها مادة عن موضوع البحث، وكان جل اعتمادي في هذا الصدد على كتابين وجدت فيهما ما أنشده من الروح الخلدونية الباحثة – في ثنايا الأحداث التاريخية – عن السنن الربانية والقوانين العمرانية، وهما كتابا: (عجائب الآثار في التراجم والأخبار) المعروف اختصارًا بـ(تاريخ الجبرتي)، وكتاب: (و دخلت الخيل الأزهر) للأستاذ «محمد جلال كشك»؛ فقد وجدتهما من أشد المراجع عناية بحركية المقاومة الشعبية والنخبوية في قرون الانحدار، لا سيما في حقبة الحملة الفرنسية وما اتصل بها[1].

فالناظر في تاريخ الجبرتي يجد أن خطته الرئيسة كانت الترجمة لأعلام عصره من المشايخ والقادة، ثم طور خطته على وقع حدث الحملة الفرنسية؛ ليسجل يومياتٍ تتبع فيها أدق تفاصيل المجتمع المصري، حتى يخال القارئ أن الجبرتي كان شخصًا أسطوريًّا خارقًا

(1) و سيأتي – في مقدمة الفصل الأول – بيانُ سبب العناية بحقبة الحملة الفرنسية، وعلاقة ذلك بتحديد قرون الانحدار، والتركيز على الحملة الفرنسية يستتبع التركيز على الحالة المصرية، وهذا لا يقلل من شأن دراسة أحوال الأقطار الأخرى العربية والإسلامية؛ لأن الوقوف عند الأشكال ليس غرضًا أصليًّا، وإنما الغرض الأصلي هو التأمل في حركة التغيير عبر مسيرتها التاريخية، ومحاولة استلهام التجارب في تغيير الواقع، واستخلاص القوانين والقواعد التي انبثقت عنها أشكال الحركة في التاريخ: إيجابًا وسلبًا؛ للإفادة منها في صياغة النموذج النهضوي المنشود. وهذه الفائدة مهمة لكل التجارب المشابهة.

أتاحت له مواهبه الفريدة أن يطلع على تفاصيل الأحداث ويصفها بهذه الدقة كأنه كان يعيش الحدث بنفسه، مع اهتمامه بالتعليق على الأحداث بتعليقات يبدو فيها - جليًّا - حسنُ إدراك الجبرتي لسنن التاريخ وقوانين العمران، ما يؤكد أنه من الامتدادات البارزة لمدرسة (ابن خلدون) في التحليل التاريخي الحضاري.

هذه كانت خطة الجبرتي، إلا أن المتأمل في تاريخه الماتع يدرك أن المجتمع المصري كان في حالة غليان مستمر حتى في الفترة التي سبقت دخول الحملة الفرنسية إلى مصر، وذلك بسبب فساد القيادة وانتشار المظالم، الأمر الذي أدى في النهاية إلى تسرب الضعف إلى كيان المجتمع، وطمع الأعداء في الإقليم المصري، ونجاح الحملة الفرنسية في دخول مصر بأقل الخسائر. فكان من المفيد الاستعانة بتاريخ الجبرتي في الكشف عن مسار هذا الغليان في المجتمع المصري وبواعثه ونتائجه في هذه الحقبة.

وكان للأستاذ «محمد جلال كشك» في رائعته (و دخلت الخيل الأزهر) الفضل الأكبر في تبصيري بأهمية تاريخ الجبرتي في الكشف عن الحالة الثورية المصرية في هذه الحقبة، وإن لم يكن هذا الكشف غرضًا مقصودًا في خطة الأستاذ محمد جلال كشك؛ حيث كان الغرض الرئيس للأستاذ كشك - كما يبدو من استقراء فصول كتابه - هو تفنيد شبهات المدرسة الاستعمارية التاريخية فيما يتعلق بقراءة تاريخ حقبة الحملة الفرنسية وتفسيره بما يخدم أغراض المستعمر.

غير أني ركزت – في التحليل التاريخي – على محور المقاومة الحضارية وحركيتها في المسيرة التاريخية، وتطرقت لجوانب تفصيلية أخرى لم يكن البحث فيها مقصودًا في خطة الشيخ الجبرتي والأستاذ محمد جلال كشك، وحاولت – قدر استطاعتي – أن أطيل النفَس في تحليل المشاهد التي تتجلى فيها صورة المقاومة الحضارية، والكشف عن دلالاتها وآثارها، ومدى الارتباط بين حركية المقاومة الحضارية وسلامة الأمة وتماسكها.

وكثيرًا ما أُضطر للحديث في الهوامش عن استطرادات مهمة ذات صلة بالمسألة محل البحث، وأخشى أن يكون إيرادها في صلب البحث قاطعًا للتسلسل المنطقي للأفكار، فأقرر إدراجها في الهوامش؛ لذا أرجو من القارئ الكريم أن يجعل من هوامش الدراسة محلًّا لعنايته.

وقد رتبت هذا الكتاب على ثلاثة فصول، مهدت لها بتأملات في مفهوم المقاومة الحضارية ودلالاته، ثم جعلت الفصل الأول للحديث عن المقاومة الشعبية الجماهيرية وسماتها، وبيان أثرها البالغ في الحفاظ على الكيان المادي والمعنوي (الحضاري) للأمة، مع كون هذه المقاومة الجماهيرية هي الرافد الأساس الذي أفرز النخبَ المقاوِمة، وعضدها في مسيرتها النضالية.

وفي الفصل الثاني ركزت على دور المؤسسات الوسيطة في بعث المقاومة الحضارية في حقبة التراجع الحضاري، ومثلت لها بـ(حركية

الأزهر الشريف) في حقبة الحملة الفرنسية والسنوات الأولى من حكم محمد علي[1]؛ حيث كان الأزهر الشريف المؤسسةَ المدنية (الأهلية) الوسيطة التي تمثل همزة الوصل بين الطبقة الحاكمة وعامة الشعب؛ لما كان له من مكانة سامقة، وفاعلية عظيمة أهّلَتاه للقيام بدور قيادي جوهري كان فيه أقرب ما يكون إلى الهيئة التمثيلية التي ارتضاها عامة الناس معبرة عن تطلعاتها في مواجهة الطبقة الحاكمة وتجاوزاتها.

وفي هذا الفصل سيجد القارئ ربطًا للتاريخ بالواقع؛ حيث سيلحظ القارئ مقارنات بين عمل المؤسسة الوسيطة في حقبة ازدهارها حين كان لها الصفة التمثيلية للشعب، وبين عملها في حقبة تراجعها حين نزعت منها هذه الصفة التمثيلية وتقلص عملها.

وفي الفصل الثالث ركزت على دور «الكلمة»، فتحدثت عن دور «الفتوى» في المقاومة الحضارية؛ لما كان لها من أثر بالغ في حفظ هوية الأمة والتصدي للمظالم.

وبهذا الترتيب نكون أمام تحليل منطقي متدرج للظاهرة محل البحث؛ ويمكن تشبيهه بدوائر ثلاث متداخلة:

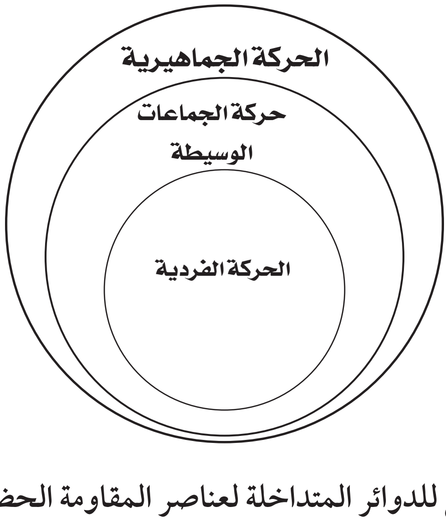
فكبرى هذه الدوائر وأوسعها هي الحركة الجماهيرية متسعة النطاق، وهي ممثلة في الفصل الأول.

---

(1) قبل عملية (تصفية القيادة المثقفة) التي قام بها محمد علي بعد أن تم له تصفية القيادات السياسية والعسكرية في مذبحة القلعة؛ لينفرد بعد ذلك بحكم مصر دون منازع. ينظر: ودخلت الخيل الأزهر ص 18.

ووسطاها هي حركة الجماعات الوسيطة التي تحتضنها الحركة الجماهيرية، وهي ممثلة في الفصل الثاني.

وصغرى هذه الدوائر هي دائرة الكلمة، التي غالبًا ما تكون نابعة من موقف فردي لعالِم - أو علَم - ذي مسلك نضالي معروف، ويتحرك غالبًا في نطاق فاعلية الجماعة الوسيطة. وهذه الدائرة ممثلة في الفصل الثالث.



شكل للدوائر المتداخلة لعناصر المقاومة الحضارية

ثم ختمت البحث ببيان إجمالي لأهم النتائج المستخلصة عبر هذه الرحلة التي عشت فيها بوجداني قبل أن أخطها ببناني.

وأرجو أن أكون قد وفقت في اختيار النماذج المعبرة عن حيوية الدور السياسي والاجتماعي للمقاومة الحضارية في حقبة التراجع الحضاري للأمة.

ولا يسعني في مقامي هذا إلا أن أتقدم بخالص الشكر والتقدير لأستاذتنا الدكتورة نادية مصطفى وأسرة "مركز الحضارة" على ما لقيه هذا البحث من الدعم والتشجيع حتى خرج إلى النور بهذه الصورة التي نأمل أن تكون محل القبول من كل ناظر.

كما أرجو أن يقع هذا العمل موقع القبول من الإله الحق وموقع الانتفاع المأمول من الخلق.

***

تمهيد
المقاومة الحضارية.. تأملات في المفهوم

أولًا- معنى "المقاومة" في المعجم العربي:

المقاومة مصدر من الفعل: (قاوَمَ)، تقول العرب: قاوم يقاوم مقاومةً وقِوامًا، فهو مقاوِم.

وبالنظر في المعجم -لاستطلاع دلالة المقاومة- نجد أنها تدل على القيام للأمر..

جاء في مختار الصحاح: "(الْمُقَاوَمَةُ) بِالضَّمِّ: الْإِقَامَةُ، وَبِالْفَتْحِ: الْمَجْلِسُ وَالْجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ[1]».

وتستعمل المقاومة عند علماء التصوف في التعبير عن معنى: مجاهدة النفس، ومخالفة الهوى[2].

ومن دلالات المفهوم: أن المقاوَمة قرينة للعزة والقوة، وعدمها – أو الضعف عنها– مقارن للذل والاستكانة؛ يقول الإمام العسكري: «الْفرق بَين التَّوَاضُع والتذلل: أَن التذلل: إِظْهَار الْعَجز عَن مقاومة من يتذلل لَهُ، والتواضع: إِظْهَار قدرَة من يتواضع لَهُ...[3]».

---

(1) مختار الصحاح (ص: 263).

(2) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم (2/ 1484).

(3) الفروق اللغوية للعسكري (ص: 249).

وقال في موضع آخر: «وَقد قيل: الذلة: الضعْف عَن المقاومة، ونقيضها الْعِزَّة، وَهِي: الْقُوَّة على الْغَلَبَة، وَمِنْه الذلول وَهُوَ المقُودُ من غير صعوبة؛ لِأَنَّهُ ينقاد انقياد الضَّعِيف عَن المقاومة...[1]».

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ [آل عمران: 146]: «أي: لم يضعفوا بنقصان القوة، ولا استكانوا بإظهار الضعف عند المقاومة[2]».

فالمقاومة إذن فعل إيجابي يدل على النهوض والحيوية والعزة والمنعة والقوة، والشجاعة والثبات في ميدان النضال، والسعي في توقي الأخطار، أو دفعها بعد ورودها بالفعل.

ثانيًا- دلالات «المقاومة» في الاصطلاح المعاصر:

لا يخفى على فطنة القارئ أنه من الأهمية بمكان التأمل في المعنى المتبادر إلى الذهن عند إطلاق اللفظ، وسببِ تعين هذا المعنى دون غيره عند سماع اللفظ في الاصطلاح المعاصر.

جاء في معجم اللغة العربية المعاصرة:

- قاومَ العدُوَّ: واجَهَهُ، وضادَّه «قاوم الإغراءَ/ الظُّلْمَ/ البردَ/ مُيُولَه/ الحاكمَ المستبدّ/ الطغيانَ/ العدوانَ/ الهجومَ/ الضّربةَ- قاوم الرجالُ الحريقَ- يقاوم بشراسة».

---

(1) الفروق اللغوية للعسكري (ص: 251).

(2) الفروق اللغوية للعسكري (ص: 116).

• قاومَتِ الرِّياحُ سيرَ السَّفينة: منعتها السّيرَ أو التقدُّمَ.

• قاوم الجسمُ المرضَ: قام بردّ فعل؛ ليزيل تأثيرَ المرض، أو يخفّف من ضرره[1].

وجاء في موضع آخر منه:

مُقاومة [مفرد]:

1 - مصدر قاومَ.

2 - صُعوبة تواجهُها قوَّة معيَّنة «مُقاومة الرِّياح- مقاومة التجربة: المعارضة ورفض الخضوع لإرادة الغير».

3 - قدرة الكائن الحيّ على أن يدرأ عن نفسه الأمراض والسّموم.

4 - منظمة عسكريّة -أو شِبْهُ عسكريَّة- تشنّ على العدُوّ المحتلّ حَرْبَ عِصابات في المدن وخارجها: «مقاومة شعبيّة-جيوب المقاومة- المقاومة السلبيّة/ السِّرِّيّة/ الفلسطينيَّة- قام المتمرِّدون أخيرًا بمقاومة عنيفة لقوات الحكومة- مقاومة تدابير حكوميَّة تعسُّفيَّة».

5 - معارضة غريزيّة لأيَّة محاولة لنقل موضوع من اللاّشعور إلى الشُّعور.

6 - مواجهة الخطر أو العدوّ والثبات وعدم الاستسلام له، رغم قوّته وسيطرته الجزئيّة أو الكلِّيَّة على ميدان القتال.

(1) معجم اللغة العربية المعاصرة (3/ 1875)

• جيوب المقاومة: بقايا القوّات المدافعة عن بلادها بعد احتلال الجيش الغازي لهذه البلاد[1].

نستخلص مما سبق أن مدلول المقاومة في الاستعمال اللغوي المعاصر يلتصق في الأذهان بمقاومة الأخطار والآفات والأمراض، ومقاومة أصناف المظالم التي يتعرض لها البشر.

ولاحظت أن مفهوم «المقاومة» في الاستعمال اللغوي المعاصر يعكس تفوقًا ما للعدو المقاوَم (بفتح الواو)، ولعل هذا هو السبب في أن مفهوم المقاومة يستعمل غالبًا لوصف أعمالٍ نضالية تقوم بها أطراف إسلامية، باعتبار أن الأمة الإسلامية باتت الأمةَ الوحيدة التي تعيش في حالة معاناة من التفوق (الدنيوي) [2] لعدوها الذي يذيقها ألوانًا من الأذى والنكال: إما بنفسه وإما بوكلائه.

---

(1) معجم اللغة العربية المعاصرة (3/ 1889)

(2) لعل هذا التعبير (التفوق الدنيوي) أفضل وأدق من تعبير: (التفوق الحضاري)، فآثرت إطلاقه تحاشيًا عن تعبير (التفوق الحضاري)؛ لأن الحضارة الإسلامية هي أرقى وأقوى الحضارات التي عرفتها البشرية؛ لأنها الحضارة العبقرية الفريدة التي تشكلت من الامتزاج المبارك بين المنهج الرباني المطهر وبين حركة العقل المسلم المستنير عبر قرون العزة التي سادت فيها أمة الإسلام وكانت لها الريادة بين الأمم. ولا يضير الحضارةَ الإسلامية حالةُ (التراجع الدنيوي) للمسلمين والعرب؛ لأن هذا التراجع ناشئ عن تخلي أمتنا –على حين غفلة من أهلها– عن جوهر الحضارة الإسلامية، تلك الحضارة التي مزجت مزجًا فريدًا بين النزعة الربانية التي تسمو بها الروح، والنزعة العلمية المعرفية التي يسمو بها العقل، ويتألف من سمو الروح والعقل سموُّ الكيان المادي للفرد والأمة.

كما صارت المقاومة في الاصطلاح المعاصر عَلمًا على أشكال معينة من المدافعة للأخطار، ولعل أول ما يتبادر إلى الذهن عند إطلاق لفظ «المقاومة»: الحركات التي اتخذت من المسلك النضالي والجهادي سبيلًا للاحتجاج على الظلم، لا سيما في حالة تعرض أوطانها للاحتلال.

وتعد المقاومةُ الفلسطينيةُ هي المعنيَّ الأولَ من إطلاق «المقاومة» في لغة الإعلام العربي على الأقل.

ولعل السبب في هذا حرص الداعين للقضية الفلسطينية على تمييز المسلك النضالي بمصطلح يطبع في نفس السامع دلالة إيجابية، وهذا الغرض يلبيه مصطلح «المقاومة»؛ لأنه يعكس استبسال أنصار القضية في نصرتها دون أن يثير الهواجس التي يثيرها مصطلح «الجهاد» بعد أن نجحت آلة الإعلام العالمي في تفخيخه وتحميله بدلالات سلبية تقترن بـ(فعل القتل) أكثر مما تقترن بمدافعة العدو، فضلًا عن ربطه بمفاهيم أخرى مثل الإرهاب والتطرف.

ثالثًا- حضارية المقاومة:

الحضارية نسبة إلى الحضارة، و(الحضارة) في اللغة: الْإِقَامَة فِي الْحَضَر[1]، وهي ضد البداوة، وسميت بذلك لَأِن أَهلهَا حَضَروا الْأَمْصَار ومساكن الديار الَّتِي يكون لَهُم بهَا قَرَار[2].

(1) يطلق (الْحَضَر) على المدن والقرى والريف.

(2) المحكم والمحيط الأعظم (3/ 122).

هذا أصل معنى «الحضارة» في اللغة، ثم شاع استخدامها في العصر الحديث للدلالة على مرحلة سامية من مراحل التطور الإنساني وَمظَاهر الرقي: العلمي والفني والأدبي والاجتماعي فِي الْحَضَر، كما جاء في المعجم الوسيط، وذكر أنها مَجمعية[1].

وجاء في معجم اللغة العربية المعاصرة:

حَضارة [مفرد]: ج حضارات (لغير المصدر):

1 - مصدر حضَرَ.

2 - تمدُّن، عكس البداوة، وهي مرحلة سابقة من مراحل التَّطوُّر الإنسانيّ «بلغت الحضارة الإسلاميّة أَوْجَهَا في القرن الرابع الهجريّ».

3 - مظاهر الرُقيّ العلميّ والفنيّ والأدبيّ والاجتماعيّ في الحَضَر «الحضارة الإسلاميّة- مهد الحضارة».

حَضارِيّ [مفرد]: اسم منسوب إلى حَضارة: «كانت بغداد مركزًا حضاريًّا مشهورًا في القرون الوسطى» ° حَضاريًّا: من الوجهة أو المرحلة الحضاريّة[2].

وبِناءً عليه؛ فوصف المقاومة بـ(الحضارية) وعدمها يرجع إلى مدى التزام حركة المقاومة بأخلاقيات الحضارة، وهي في الحالة الإسلامية:

(1) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (2/ 633)؛ المعجم الوسيط (1/ 181)؛ معجم الصواب اللغوي (1/ 323).

(2) معجم اللغة العربية المعاصرة (1/ 513).

جملةٌ من القواعد والأحكام الشرعية الضابطة للعمل المقاوِم، وتستمد هذه القواعد والأحكام غالبًا من الأبواب الفقهية التي تُعنى ببيان الأحكام التي تدخل في نطاق المقاومة في الاصطلاح المعاصر المتقدم بيانه؛ كأحكام الجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحسبة، ونحو ذلك من الأحكام المتصلة بقضايا الإصلاح والتغيير.

وعليه فوصف المقاومة بـ(الحضارية) وعدمها يحصل باعتبار: الشكل الذي تكون عليه المقاومة، والوسيلة التي يتخذها المقاوِم.

فإن وضعت الحركة المقاوِمة لنفسها حدودًا وضوابط أخلاقية تلتزم بها وتعد الإخلال بها انحرافًا عن المسار الصحيح للمقاومة؛ فإنها تكون حينئذ مقاومة حضارية؛ لأنها (مقاومة منتمية للحضارة)؛ إذ التزمت بمرجعيتها الأخلاقية والتشريعية.

وإن لم تهتم الحركة المقاوِمة بمسألة الضوابط سالفة الذكر، وأطلقت لنفسها العنان في تجاوز كل الضوابط الأخلاقية والأعراف الإنسانية؛ فإنها حينئذ لا تكون حضارية، وتكون جديرة باسم آخر غير اسم «المقاومة».

رابعًا - المقاومة الحضارية حقيقة متأصلة في الأمة:

يرتبط مفهوم المقاومة في الأذهان بالهجمات التي ترد على الأمة فتشعرها بالخطر الذي يهدد كيانها، وهذا الشعور يستنفر قواها فتتجه إلى الفعل المقاوم.

لكن الحقيقة أن معنى المقاومة لا ينحصر في كونه رد فعل للهجمات المدبرة التي تهدد كيان الأمة في أوقات الضعف، وإنما هو - في نظري - عنصر ذاتي مستمر الحضور في كيان الأمة على اختلاف العصور[1]، ويمثل جزءًا مهمًّا من فاعلية الأمة المستمرة على اختلاف الأطوار التي تمر بها..

ففي عصور القوة والمنعة لا يغيب معنى المقاومة بغياب خطر الهجمات الكاسحة من أعداء أقوياء، بل يكون معنى المقاومة حاضرًا بشكلٍ ما - يمكن تسميته: المانعية الكامنة[2]- بحيث يتلاءم مع الحالة الراهنة في هذه الأطوار، ففي عصور المنعة تتخذ المقاومة شكل الوقاية التي تحمي هذا الجسد القوي من تسرب الآفات الفتاكة التي تعصف بمقدرات الأمم القوية وتحيلها من طور المنعة إلى طور التراجع والانحدار.

وفي عصور الانحطاط تتآكل منظومة الوقاية الذاتية؛ لأن الأمراض تكون قد نجحت بالفعل في التسلل إلى الجسد القوي، وحينئذ تحيل هذا الجسد من طور القوة إلى طور الاختلال، فتبرز حركة المقاومة في شكلها الصريح هادفة إلى الحفاظ على الجسد المختل من الموت والانهيار حتى يبقى الأمل في العلاج والتعافي قائمًا.

---

(1) حتى في أوقات عزة الأمة وسيادتها.

(2) التي تتحول في أوقات تراجع الأمة من طور المانعية الكامنة -ذات الآثار الظاهرة- إلى طور المقاومة الصريحة التي تتخذ شكل رد الفعل إزاء الهجمات التي تهدد كيان الأمة في أوقات التراجع والانحدار.

ولعلنا نكون في هذا التمهيد الموجز قد نجحنا في تحرير مفهوم الحضارية على نحو ملائم، وفيما يأتي نعرض فصول البحث على الترتيب السابق بيانه في المقدمة..

❋❋❋

الفَصْلُ الأَوَّلُ

«الجنود المجهولون في المقاومة الحضارية»

دراســة فــي المقاومــة الشــعبية (الجماهيرية) في حقبة الحملة الفرنسية

تمهيد

في كل مسيرة نضالية يظهر جنود مجهولون يقومون بأعمال عظيمة ولا يتحدث عنهم التاريخ كثيرًا؛ لأنهم ليسوا من النخب البارزة التي يشار إليها بالبنان، ويعتاد المؤرخون الحديثَ عنها باعتبارها صانعةً للتاريخ.

وفي هذا البحث نسلط الأضواء على نماذج من هذه الحركات، ونشفع هذا العرض التاريخي بتنظير يلقي بعض الضوء على خصائصها، وأهميتها في صد الهجمات، وحفظ كيان الأمة، وصنع الاستجابات اللازمة لمواجهة التحديات.

ويلاحظ القارئ أن جل تركيز هذه الدراسة على عمليات المقاومة الحضارية للحملة الفرنسية على مصر وتداعياتها، وذلك للأسباب الآتية:

أولًا– أن دخول الحملة الفرنسية إلى مصر كان النتيجة المنطقية لدخول الأمة في حقبة الانحدار، وعلامةَ هذا الدخول في الوقت ذاته؛ فدخول الأمة في هذه الحقبة – التي هي محل البحث في هذا المحور– لم يكن ليُنتبه إليه لولا وقوعُ حدثٍ جلل تنهار على وقعه كلُّ صروح الوهم والتجهيل والعبث التي انحبست الأمة داخلها في حِقبة الحملة الفرنسية والعقود التي سبقتها.

فقد تفنن القادة السياسيون والعسكريون[1] - من العثمانيين والمماليك وأعوانهم - في تضييع كل فرص النهوض والبعث الحضاري التي أتيحت للأمة في هذه الحقبة، فانشغلوا بذواتهم عن حسن التدبير لأمتهم، وأهملوا قضايا العلم والتنمية بمعناها الشامل[2]،

(1) ولا يزالون، وإلى الله المشتكى!

(2) لم تعدم أمتنا - في هذه الحقبة - العقول العلمية القادرة على تحقيق النهضة العلمية والطفرة الصناعية، لكن المشكلة أن هذه العقول عانت من الآفة التي تعاني منها العقول العربية حتى اللحظة الراهنة، وهي آفة (الإهمال الحكومي) مع (ضعف المجتمع المدني ومؤسساته الوسيطة)؛ فمثلاً يُعَد الشيخ حسن الجبرتي (والد الشيخ عبد الرحمن الجبرتي صاحب التاريخ المشهور) صاحب تجربة علمية نهضوية قريبة الشبه بالتجارب التي مهدت لدخول أوربا في عصر الثورة الصناعية، وكانت هذه التجربة صالحة للبناء عليها باعتبارها نواة لمشروع نهضة علمية واعد، لكن مما يؤسف له أن هذا المشروع لم يجد من النخبة الحاكمة التفاتًا يحافظ على ثمرته ويرعاها. وهذا هو الفرق بين التجربة الغربية والتجربة العربية الإسلامية في قرون الانحدار؛ حيث التفتت النخبة الغربية الحاكمة - مبكرًا - لأهمية الرعاية الحكومية في تحصيل ثمار الأفكار العلمية الواعدة، بينما كانت نخبتنا الحاكمة سادرة في غيها، مشغولة بنفسها، منعزلة عن حركة العالم من حولها، فضيعت على الأمة إمكانية النهوض الحضاري في الجانب التنموي.

وقد ذكر الجبرتي - في ترجمة والده - أن بعض الطلاب الغربيين تعلموا من والده علم الهندسة، ثم نشروه في بلادهم واستفادوا من هذا العلم في صناعة بعض الآلات، فقال عن والده: «وكان فريدًا في صناعة التراكيب والتقاطير واستخراج المياه والأدهان... وحضر إليه طلاب من الإفرنج وقرءوا عليه علم الهندسة - وذلك سنة تسع وخمسين - وأهدوا له من صنائعهم وآلاتهم أشياء

نفيسة، وذهبوا إلى بلادهم ونشروا بها ذلك العلم من ذلك الوقت وأخرجوه من القوة إلى الفعل، واستخرجوا به الصنائع البديعة مثل طواحين الهواء وجر الأثقال واستنباط المياه وغير ذلك. وفي أيام اشتغاله بالرسم رسم ما لا يحصى من المنحرفات والمزاول على الرخامات والبلاط... ونصبها في أماكن كثيرة». تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (1/ 462).

ولعل عبارة: (وأخرجوه من القوة إلى الفعل) تضع أيدينا على مربط الفرس في تخلفنا عن إحداث النهضة الصناعية، وهو اهتمام الغربيين بتكملة المسار وتجسيد النظرية العلمية في منتجات صناعية، ولا يخفى أن نجاح هذا التجسيد لا يتم إلا بوجود تشجيع حكومي، أو رعاية من مؤسسات المجتمع المدني المهتمة بتبني المواهب العلمية ورعاية اكتشافاتها، وكلا الأمرين كان مفقودًا في التجربة العربية الإسلامية في هذه الحقبة، فالنخبة الحاكمة -كما ذكرنا- كانت مشغولة بنفسها، والمجتمع المدني - لو سلمنا بوجوده في هذه الحقبة -كان من الهشاشة بحيث لا يملك أن يرعى تجربة تنموية تتمخض عن ثورة صناعية، ولا يخفى أن هشاشة المجتمع المدني في هذه الحقبة كانت - ولا تزال - ناجمة عن فساد النخبة الحاكمة: إما عن تعمد؛ حتى لا تتألف من المجتمع المدني مؤسسات وسيطة قوية تسلب النخبة الحاكمة القدرة على الانفراد بالسلطة والثروة، وإما عن إهمال ناجم عن جهل السلطة الحاكمة بشروط النهضة وأسباب السقوط، بينما كان الشاطئ الآخر للمتوسط قد أفاق من تيه القرون الوسطى والتفت إلى إصلاح النخبة الحاكمة وتمكين المجتمع المدني - ومؤسساته الوسيطة - عن وعي بشروط النهضة التي غفلت عنها نخبتنا الحاكمة، فكان السقوط المدوي، والصدمة الحضارية التي تلقتها الأمة على وقع استيلاء الحملة الفرنسية على مصر. ولا يزال هذا الداء العضال مستحكمًا في جسد الأمة ينتظر الجرّاح البارع المخلص الذي يستأصله بمشرط التغيير، وإلى الله المشتكى!

وغفلوا عن متابعة ما يجدُّ على الشاطئ الآخر للمتوسط من: كشوف علمية، وطفرات صناعية، وتغييرات اجتماعية، وثورات شعبية، ونظم سياسية؛ غير مسبوقة، أخرجت أوربا من ظلمات القرون الوسطى، وأدخلتها في عصر النهضة والأنوار.

بينما انصرف قادة أمتنا إلى جمع أكبر قدر ممكن من وسائل الرفاهية والإشباع؛ لخدمة أهواء النخبة الحاكمة[1]، وتركوا الجماهير

---

(1) قال الجبرتي في وصف حال الرجل الثاني في الدولة المصرية - آنذاك - وبيان أسباب سقوطها: «وعكف مراد بك على لذاته وشهواته، وقضى أكثر زمانه خارج المدينة: مرة بقصره الذي أنشأه بالروضة، وأخرى بجزيرة الذهب، وأخرى بقصر قايماز جهة العادلية، كل ذلك مع مشاركته لإبراهيم بك في الأحكام، والنقض والإبرام... ومقاسمة الأموال والدواوين، وتقليد مماليكه وأتباعه الولايات والمناصب، وأخذ في بذل الأموال وإنفاقها على أمرائه وأتباعه... ورخص لمماليكه في هفواتهم، وسامحهم في زلاتهم، وحظي عنده كل جريء غشوم عسوف ذميم ظلوم، فانقلبت أوضاعهم، وتبدلت طباعهم، وشرهت نفوسهم، وعلت رءوسهم، فتناظروا وتفاخروا، وطمعوا في أستاذهم وشمخت آنافهم عليه، وأغاروا حتى على ما في يده... وأخذ الشيء من غير حقه وأعطاه لغير مستحقه.

ثم لما ضاق عليه المسالك ورأى أن رضا العالم غاية لا تدرك أخذ يتحجب عن الناس، فعظم فيه الهاجس والوسواس، وكان يغلب على طبعه الخوف والجبن مع التهور والطيش والتورط في الإقدام مع عدم الشجاعة، ولم يعهد إليه أنه انتصر في حرب باشرها أبدًا، على ما فيه من الادعاء والغرور والكبر والخيلاء والصلف والظلم والجور...

البائسة تتجرع مرارة كل صنوف المعاناة التي تقاسيها أمة بائسة تغادر عصور ريادتها إلى مصير مجهول، فأبت حكمة المولى - تبارك وتعالى - إلا أن تفيق الأمة على هول صدمة كبرى تنبهها من رقادها.

«قُدِّر لمصرَ أن تواجه الحملة الفرنسية وهي تحت هذه القيادة المنقسمة، غير الكافية وغير المسئولة، والتي لا تعرف معنى لغير مصالحها الأنانية ولذائذها المنحطة. لقد كانت هذه نقطة الانحدار

واستخلص غالب بلاد إقليم الجيزة لنفسه شراءً ومعاوضةً وغصبًا... وصار يتنقل في تلك القصور والبساتين ويركب للصيد في غالب أوقاته... كل ذلك خطرات من وساوسه، لا يدري أحد لأي شيء هذا الاهتمام؟ ولأي حاجة إنفاق هذا المال في الخشب والحديد وإعطاؤه لنصارى الأروام؟ واختلفت آراء الناس في ذلك: فمن قائل: إن ذلك كان خوفًا من خشداشينه، وقائل: من مخافة العثمانية... والبعض يظن خلاف ذلك، وليس غير الوهم والتخيل الفاسد والخوف شيء، وبقيت آلات الحرب جميعها والبارود... حتى أخذ جميعه الفرنسيس يوم استيلائهم على الجيزة والقصر... وكانت هذه البدعة السيئة من أعظم أسباب قوة الفرنسيس وطمعهم في الإقليم المصري... واختص بالسيد محمد كريم الإسكندري ورفع شأنه بين أقرانه فمهد له الأمور بالثغر به وأجرى أحكامه به وفتح له باب المصادرات والغرامات ودله على مخبآت الأمور، وأخذ أموال التجار من المسلمين وأجناس الإفرنج حتى تجسمت العداوة بين المصريين والفرنسيس، وكان هو من أعظم الأسباب في تملك الفرنسيس للثغر... وهو (مراد) كان من أعظم الأسباب في خراب الإقليم المصري؛ بما تجدد منه - ومن مماليكه وأتباعه - من الجور والتهور ومسامحته لهم. تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 450).

العظمى التي وصلت إليها الدولة الإسلامية، وكانت مصر - والعالم الإسلامي كله معها - على تخوم عهد جديد هو عهد الاستعمار[1]».

«ومهما قيل في مبلغ ما كانت عليه الأمة المصرية - في ذلك الحين - من التأخر في العلم والمدنية؛ فإن الحملة الفرنسية - وما اهتاجته في نفوس المصريين من روح المقاومة - قد هزت أعصاب الأمة هزة عنيفة أزاحت عن أبصارها شيئًا من الغشاوة التي رانت عليها في خلال العصور[2]».

ثانيًا- تعد الحملةُ الفرنسية أولَ هجمة حضارية - متشعبة التحديات - تلقتها الأمة في تاريخها؛ فالحملة الفرنسية مثلت تحديَ إزالة الكيان المادي للأمة، كما مثلت تحدي تغيير الكيان المعنوي للأمة، وذلك أنها حاولت أن تبذر في الأمة بذور التبشير والعلمنة والتغريب.

وهذه الهجمة -مركبة التحديات- لم تواجهها الأمة قبل الحملة الفرنسية؛ لأن الحملات الصليبية المتقدمة وإن شكلت خطرًا على الكيان المادي للأمة؛ إذ مارست عمليات استئصال وإبادة واسعة النطاق، إلا أنها لم تمثل خطرًا على الكيان المعنوي للأمة، ذلك أن أوربا في هذا الوقت

(1) محمد الشاويش، نهضات مجهضة.. جدل الهوية والفاعلية، ص 19، دمشق، دار الفكر، الطبعة الأولى 1419= 2008.

(2) محمد جلال كشك، ودخلت الخيل الأزهر، نقلًا عن الرافعي، ص 259، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، الطبعة الثالثة.

كانت تمتلك قوة عسكرية كفيلة بتهديد جيرانها المسلمين، لكنها لم تكن تمتلك تفوقًا حضاريًّا يمكنها من تهديد هوية الأمة الإسلامية؛ إذ كانت أوربا لا تزال في حالة (التيه الحضاري) الذي عاشته في حقبة القرون الوسطى، وكان التفوق الحضاري للمسلمين على جميع الأصعدة.

ولا يختلف الحال كثيرًا بالنسبة للهجمات التترية على أقطار الأمة الإسلامية، رغم بلوغها حد الاجتياح في ذروة التفوق العسكري التتري، فهذه الهجمات تمكنت من إصابة الكيان المادي للأمة بإصابات غير مسبوقة في تاريخها؛ وذلك بفعل التفوق العسكري التتري المباغت، لكن على صعيد التحدي الحضاري كان التفوق لحضارة الأمة الإسلامية التي لا تساويها ولا تدانيها حضارةُ التتار الوثنية، فكان الذوبان الحضاري من نصيب أعداء الأمس الذين لم يتمكنوا من الصمود أمام روعة الحضارة الإسلامية، فدخلوا في دين الله أفواجًا؛ وذلك بسبب ما كان لدى التتار من خواء حضاري لم يملأه التفوق العسكري، وأنَّى للسيف أن يصمد في ميدان الفكر والقلم والفن والجمال!

ثالثًا- مع الحملة الفرنسية كانت بداية الاستغلال الرخيص - من جانب الغرب - للانقسامات الدينية في الشرق. ومع الغزو الغربي زادت حساسية الشرقيين بتميزهم الديني، بعكس ما تزعم المدرسة الاستعمارية من أن المفهوم القومي - الذي لا يميز بين الأديان - جاءنا هدية من الغرب[1].

(1) ودخلت الخيل الأزهر ص 27.

وترى المدرسة الوطنية[1] في الحملة الفرنسية أنها بداية التحدي الحديث والحاسم الذي واجه الغربُ به الشرقَ الإسلامي.. ذلك التحدي الذي لم يُجَبْ عنه حتى الآن، سواء بسحقه أو الفناء فيه، غير أن هذا التحدي قد استثار عناصر المقاومة في الأمة، ولو أنه لم يصل بالاستثارة إلى المستوى الذي يمكِّن الأمةَ من التغلب على التحدي وقهره، ومن ثم تحقيق البعث الحضاري المنشود وتخطي حافة الخطر. ولا نجح هذا التحدي في سحق مقاومة الأمة نهائيًّا.

وما زالت الأمة العربية والشرق الإسلامي يواجهان هذا التحدي في نوبات من الانفعال وارتفاع مؤقت في حرارة الرفض دون أن يصل إلى الرفض الشامل والمقاومة الخلاقة[2].

رابعًا- أن فهم الواقع الراهن لا يتأتى - على الوجه الأكمل- إلا بالحفر لإدراك المقدمات التاريخية التي أثمرت هذا الواقع، وتعد حقبة الحملة الفرنسية وما اتصل بها، من الأحداث التي كان لها أثر كبير في

(1) يكثر الأستاذ محمد جلال كشك من استعمال هذا المصطلح، ويجعله مقابلًا لما أسماه بـ(المدرسة الاستعمارية)، والفرق بين منهج المدرستين: أن المدرسة الاستعمارية ترى أن القومية والتقدم والتحديث والتحرر؛ كلها معانٍ ومفاهيم وسلوك تكتسب من خلال التعاون مع المحتل، وبمعونته وإرشاده، بينما ترى المدرسة الوطنية أن هذه المفاهيم لا معنى لها إلا إذا كانت مرتبطة بسلوك وطني مقاوم للوجود أو النفوذ الأجنبي بجميع أشكالهما، وأنها لا تكتسب إلا من خلال مقاومة هذا الوجود أو ذلك النفوذ. ودخلت الخيل الأزهر ص 27-29.

(2) ودخلت الخيل الأزهر ص 206.

صياغة واقع الأمة على ما هو عليه الآن؛ لأنها الحقبة التي أعيد فيها تشكيل الأقطار العربية الكبرى على أسس استعمارية جديدة تضمن كبح أية نهضة محتملة تنشد إعادة تشكيل الأمة على أسس مناقضة للأسس الاستعمارية سالفة الذكر، ولعل هذا يكشف لنا سرَّ رعب الغرب وأذنابه من الجماعات الناشئة التي تحاول إعادة تشكيل الأقطار العربية والإسلامية على أسس مناقضة لاتفاقية (سايكس - بيكو).

لهذه الأسباب التي أسلفنا ذكرَها؛ كان جُلُّ التركيز في هذه الدراسة على المقاومة الحضارية للتحديات التي صاحبت وأعقبت الحملة الفرنسية؛ إيمانًا منا بأن وضوح الاطلاع على البدايات شرط لازم لسلامة النهايات..

تعريف قرون الانحدار:

بناء على ما سبق يمكن تعريف قرون الانحدار بأنها القرون الثلاثة الأخيرة من عمر الأمة، وهي القرون التي شهدت - في نطاق الداخل - انحلال القيادة وفسادها، وتفكك أواصر الوحدة العربية والإسلامية على وقع انهيار الخلافة، وضعف المجتمعات الإسلامية عن سد الفجوة التي خلفها انحلال القيادة وفسادها[1].

(1) يكمن الفرق بين الحاضر الإسلامي والتجربة التاريخية - من حيث مدى قدرة المجتمع على تغطية سلبيات تراجع الدولة- في أن الدولة في التاريخ الإسلامي كان بها مشكلات عدة، لكن المجتمع كان على قدر من القوة تتيح له أن يسد الخلل، ويجبر النقص، كما أفاد الدكتور إبراهيم غانم في ورقة له عن الدولة والمجتمع، فكان المجتمع قادرًا على الحركة الذاتية الفعالة، وكان يتحرك في إطار صيغة توافقية ضمنية تتكامل فيها وظيفة المجتمع مع وظيفة الدولة.

وكان مما ساعد المجتمع على القيام بوظائفه وجود تشكيلات اجتماعية فعالة تعمل بقدر كبير من الاستقلالية عن الدولة، وكان أهم هذه التشكيلات الاجتماعية: التعليم والوقف، وكان هناك تعارف ضمني على أن تتولى المؤسسات الوسيطة إدارة هذه التشكيلات الاجتماعية، وفي الحالة المصرية كان الأزهر الشريف هو المؤسسة الوسيطة التي تولت إدارة هذين المرفقين باستقلالية إلى أن نزع من الأزهر الصفةُ التمثيلية التي أتاحت له أن يكون المؤسسة الوسيطة التي تمثل همزة الوصل بين العامة والنخبة الحاكمة، وأعيد توزيع هذه الصفة التمثيلية على مؤسسات الدولة الناشئة العلمانية، ونزع – تبعًا لذلك – حق الأزهر في إدارة مرفق الأوقاف باستقلالية، وبقيت إدارته للتعليم الديني تحت رقابة مشددة وتدخل حكومي في تعديل المناهج.

هذا كان في التجربة الإسلامية التاريخية، أما الدولة الحديثة – في المحيط العربي خاصة – فقد نجحت بامتياز في ابتلاع المجتمع وشل قدرته على الفعل الذاتي بدونها، فصار شبه عاجز عن فعل شيء بدونها، بحيث إذا ما سقطت الدولة سقط معها كل شيء، فصار المواطن – في المجتمعات المبتلَعة – في مواجهة مبدأ: (أنا أو الفوضى) بفزاعاته المصنوعة بإحكام؛ لإحباط المواطن الحانق على واقعه البئيس، وقطعِ كل آماله في التغيير الذي يحقق له ما يليق بكرامته الإنسانية.

وكان مما ساهمَ في إحكام الدولة الحديثة هيمنتها على المجتمع وإضعاف قدرته على الفعل الذاتي: تطورُ وسائل الاتصالات والمواصلات الذي مكن الدولة من الحصول على المعلومة في أقصر وقت ممكن، وتنفيذ قراراتها بأقصى سرعة، بينما كانت الدولة قديماً تعاني من طول الوقت اللازم للتواصل بين المركز والأطراف، الأمر الذي أفرز توليفة سياسية واقعية تقوم على احترام الأطراف للمركز؛ حفظًا للوحدة الإسلامية، مع كفالة المركز للأطراف حقَّ الحكم المحلي؛ لجبر الخلل الناجم من عدم قدرة المركز على التواصل السريع مع تلك الأطراف.

وشهدت - في نطاق الخارج - أول تفوق معرفي وعسكري كاسح يتمتع به الغرب، الأمر الذي سهل دخول موجات متتابعة من الاحتلال العسكري والفكري إلى أراضي العرب والمسلمين، مع حرص الاحتلال على كبح أية نهضة محتملة يمكن أن تقوم في الشرق الإسلامي وتكسبه استقلالًا يحرره من حالة التبعية للمحتل الغربي.

وبعد هذا التمهيد يحين وقت الحديث المفصل عن الجنود المجهولين في المقاومة الحضارية:

أولاً- العامة:

نعم الشيء الغوغاء.....

الإمام الشعبي

أول الجنود المجهولين وأهمهم - في عمليات المقاومة الجماهيرية - هم العامة، عامة الشعب الذين يعطون بلا حساب، ويندفعون في التضحيات غير مبالين بالعواقب[1]، ولا يلقون بالاً للحسابات الدقيقة التي تحسبها القيادات النخبوية في علاقاتها مع أطراف الصراع والقوى الفاعلة، فتَصدر عن العامة حركاتُ مقاومةٍ عفوية لا تلقى ترحيبًا في بادئ الأمر، لكنها عادةً ما تكون ذات تأثير

وكان من طريف التعليقات التي سمعتها بهذا الصدد قول أستاذنا المستشار طارق البشري: إن المقارنة بين الدولة المستبدة - في صيغتها المعاصرة - وبين سطوة فرعون على الشعب المصري؛ فيها ظلم لفرعون؛ لأن فرعون لم يكن يمتلك إمكانات الدولة المعاصرة في الهيمنة على المجتمع!

(1) وهذا ما يجعل تهمة التهور ملاحِقة لهم باستمرار.

مهم في إنهاك العدو، واستنزاف قواه، وتغييرِ قناعاته عن جدوى استمرار المعركة في ظل نزيف المواجهة التي تفرضها المقاومة.

وقد ظهرت أهمية هذه التحركات الجماهيرية في حقب تاريخية متعددة، ومن أبرزها ثورة القاهرة الأولى ضد الحملة الفرنسية على مصر التي اندلعت شرارتها يوم الأحد الحادي عشر من جمادى الأولى سنة 1213هـ = 21 من أكتوبر 1798، تلك الثورة المباركة التي كان اندلاع شراراتها مفاجأة – غير مرغوب فيها – للقوات الفرنسية وأعضاء الديوان[1] الذي شكله «بونابرت» على حد سواء.

(1) العلاقة بين الديوان وحركة المقاومة تتمثل فيها الإشكالية التاريخية المستمرة للتنازع بين السلطة الوطنية التي تتشكل في ظل الاحتلال وبموافقته وبين المقاومة الشعبية (الجماهيرية) التي لا ترى إمكانية لأن تتخذ العلاقة بالمحتل شكلًا إلا شكل الجهاد والمقاومة، ولا ترى موقفًا يمكن إن يُتخذ تجاه المحتل إلا موقف الصراع الذي يستهدف استئصال وجود المحتل على أرض الوطن مهما كانت التضحيات، وهذه (أعني مقدار التضحيات اللازم بذلها) هي نقطة الخلاف الجوهرية بين المقاومة وهذا النوع من السلطات التي تتشكل في ظروف استثنائية. وعادة ما يسفر الأمر عن وجود السلطة التي تبرر عملها –تحت مظلة الاحتلال– بضرورة وجود ممثل للشعب يعمل على تسيير شئون الناس، والحفاظ على مصالحهم، وتخفيف الأضرار الناجمة عن الاحتلال، بينما ترى المقاومة أن وجود هذه السلطة تحت رعاية الاحتلال يمنحه شرعية واعترافًا يطيل من أمد الاحتلال، ويقوي شوكته، ومن هنا ينشأ الخلاف – أو الصراع – بين رجال السلطة ورجال المقاومة، ويصل هذا الصراع إلى ذروته حين تفشل السلطة –المشكَّلةُ تحت رعاية المحتل– في منع العدوان على الشعب، سواء اتخذ هذا العدوان شكل العمل العسكري، أو كان في

إلا أن هذه المفاجأة كانت أول الأحداث التي زلزلت كيان المحتل، وأقنعته بأن احتلال مصر لن يكون نزهة، وأن الفارق الكبير في موازين القوى - لصالح القوات الفرنسية - لن يُسكِت الجماهيرَ عن إشعال فتيل الثورة ضد المحتل، ولن يمنعها عن الاستماتة في المقاومة رغم فداحة الثمن الذي ستدفعه الأمة جراء المقاومة في ظل ضعف الإمكانات والتفوق (الدنيوي) للمحتل.

أهمية دور العامة في المقاومة الحضارية:

لقد كان للعامة إسهام عظيم في عمليات المقاومة الحضارية، بل لا نبالغ إذا قلنا: إن العامة هم أصحاب الدور الأكبر في مسيرة الأمة النضالية، وإن القيادات التاريخية التي تسلط عليها الأضواء، وتدور حولها الأبحاث، ما كان لها أن تنجح في شيء لولا مساندة العامة لها، وقبولها الانصياع لقيادتها، بل إن العامة كثيرًا ما كانت - بعفوية - تحكم على بعض القيادات

صورة حملات مكثفة من السلب والنهب وامتصاص الموارد؛ حيث تفقد السلطةُ الحجة الأهم التي تستند إليها في تبرير وجودها في ظل الاحتلال، وهنا تنفجر أعمال المقاومة في وجه المحتل والسلطة كليهما، وتجد السلطة نفسَها بين مطرقة الاتهام بالخيانة والعمالة من قِبَل المقاومة، وسندان اتهام الاحتلال لها بالخداع ودعم المقاومة في السر، من هنا يمكن أن نفهم طبيعة الصراع الذي تكون السلطةُ أحد أطرافه في أوقات الاحتلال، كما هنا في حالة ديوان نابليون الذي كان حائرًا بين ترضية المحتل - لكف أذاه عن الشعب إن أحسنَّا الظن- وبين ترضية المقاومة الجماهيرية. وكما في الحالة الفلسطينية على سبيل المثال، غير أن الحالة الفلسطينية آلت إلى وضع مريب صارت فيه السلطةُ أداةً لتجريد القضية من مكاسب المقاومة!

بالحرمان من شرف الاندراج في سلك صناع التغيير؛ وذلك حين يظهر للعامة إخلال هذه القيادات بمؤهلات القيادة المخلصة، ويظهر هذا مثلًا في صنيع العامة مع خليل البكري[1] الذي عينه الفرنسيون نقيبًا للأشراف خلفًا للسيد عمر مكرم[2]؛ حيث سلك البكري المسالك الشائنة في تعامله

(1) هو: خليل البكري الصديقي، سليل آل البكري من الأشراف، تولى نقابة الأشراف بمصر على عهد الحملة الفرنسية خلفًا للسيد عمر مكرم بعد فراره إلى الشام عند دخول الفرنسيين مصر، واشتهر البكري بموالاته للفرنسيين وشدة تداخله معهم، ونال عندهم مكانة عظيمة، وكان عضوًا بارزًا في الديوان الذي شكله الفرنسيون لمساعدة السلطة العسكرية الفرنسية على إدارة شئون البلاد؛ لذلك ثار عليه العامة وأهانوه، وعزل عن نقابة الأشراف بعد جلاء الحملة الفرنسية وعودة العثمانيين، وكسرت رقبة ابنته زينب؛ بسبب علاقاتها المشبوهة مع الفرنسيين وعلى رأسهم نابليون، مات سنة ثلاث وعشرين ومئتين وألف. ينظر: تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 194)، ط: دار الجيل ببيروت؛ د. محمد حواش، خطاب التضامن الإسلامي في ضوء حملة نابليون على مصر والشام، وموقف المغرب منها ص 552، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط: 1، بيروت 2013م.

(2) عُمَر مَكْرَم (1168 – 1237 هـ = 1755 – 1822 م)، هو عمر مكرم بن حسين الأسيوطي: زعيم شعبي مصري، من أسرة شريفة النسب. ولد بأسيوط، وتعلم بالأزهر الشريف. وولي نقابة الأشراف سنة 1208 هـ، ولما احتل الفرنسيون الإسكندرية سنة 1213هـ وزحفوا على القاهرة، تقدم على رأس جمهور من أهالي القاهرة لمقاومتهم، فلم ينجح. وخرج بعد دخولهم، فاستقرّ في « العريش « ثم في « يافا « بفلسطين. وأغار نابليون في السنة نفسها على يافا فاحتلها وقتل من أهلها نحو ستة آلاف كانوا قد استسلموا، وأكرم

مع الفرنسيين، فكانت عاقبته الجزاء الذي ناله من عامة الشعب أثناء وجود الحملة الفرنسية، وبعد الجلاء [1].

من وجد فيها من المصريين، وبينهم عمر مكرم، فعاد هذا إلى القاهرة بعد غياب ثمانية أشهر. واعتزل كل عمل. وعاد نابليون إلى بلاده، وتولى الجنرال «كليبر» حكم مصر. وزحف من الشام جيش عثماني فاقترب من القاهرة، فثار أهلها على الفرنسيين، فكان عمر مكرم على رأس الثورة، وتعرف بثورة القاهرة الثانية، وقاتلوا الفرنسيين 37 يومًا، وضعفوا. وارتد الجيش العثماني عن مصر بعد معارك، فخرج السيد عمر مكرم ناجيًا بنفسه. واغتيل الجنرال كليبر، وأنزل الإنكليز جيشًا في الإسكندرية (سنة 1801 م – 1215 ه) وخرج الفرنسيون من مصر بعد احتلالهم لها ثلاثة أعوام. وعاد إليها عمر مكرم مع الحكام العثمانيين، فأعيدت إليه نقابة الأشراف. ولما نقم المصريون على الوالي « خورشيد باشا » وبرز اسم «محمد علي باشا» تزعم السيد عمر مكرم حركة النقمة –أو الثورة– على الأول والمناصرة للثاني. ونجح محمد علي، فعين واليًا على مصر سنة 1220 هـ (1805 م) فأراد عمر مكرم أن يكون له وهو الزعيم المصري رأي في سياسة البلاد، فتجهم له محمد علي ثم أبعده (سنة 1222 هـ) إلى دمياط، حيث أقام نحو أربعة أعوام. ونقل إلى طنطا سنة 1227هـ، فأقام إلى سنة 1234هـ والتمس من محمد علي الإذن له بالحج، فحجّ ورجع إلى القاهرة. ونشبت فتنة؛ خشي محمد على أن تكون لعمر مكرم يد فيها، فأمره بالانصراف إلى طنطا (سنة 1237 هـ) فلم يلبث أن توفي فيها. قال الرافعي: لم يُعرف فضله ولا كوفئ على جهاده، بل كان نصيبه النفي والحرمان والإقصاء من ميدان العمل، ونكران الجميل. ينظر: تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 202) الأعلام للزركلي (5/ 67).

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 202).

يقول الجبرتي: «وتولى نقابةَ الأشراف السيدُ عمرُ مكرم الأسيوطي، فلما طرق البلادَ الفرنساويةُ تداخل المترجَم (خليل البكري) فيهم، وخرج السيد عمر مع من خرج هاربًا من الفرنساوية إلى بلاد الشام، وعرَّف المترجَم (خليل البكري) الفرنساويةَ أن النقابة كانت لِبيتهم وأنهم غصبوها منه، فقلدوه إياها، واستولى على وقفها وإيرادها، وانفرد بسكن البيت، وصار له قبول عند الفرنساوية، وجعلوه من أعاظم رؤساء الديوان الذي كانوا نظموه لإجراء الأحكام بين المسلمين، فكان وافر الحرمة مسموع الكلمة مقبول الشفاعة عندهم... واستمر على ذلك إلى أن حضر يوسف باشا الوزير[1] في المرة الأولى التي انتقض فيها الصلح[2]، ووقعت الحروب في البلدة

(1) يوسف باشا ضيا، هو الصدر الأعظم العثماني الذي كلفه السلطان سليم الثالث بتخليص مصر من الاحتلال الفرنسي بعدما تبين له عدم استعداد أحمد باشا الجزار للقيام بذلك، وأصله من جورجيا، خاض معارك عدة ضد الفرنسيين، كان أشهرها معركة المطرية في 20 مارس 1800 التي اندلعت على إثرها ثورة القاهرة الثانية. دخل القاهرة بعد جلاء الفرنسيين عنها في يونيو 1801. د. محمد حواش، خطاب التضامن الإسلامي في ضوء حملة نابليون على مصر والشام، وموقف المغرب منها ص 551.

(2) هو صلح العريش الذي تم في شعبان سنة 1214هـ = 24 يناير 1800 بين القوات العثمانية بقيادة الوزير الأعظم يوسف باشا، والقوات الفرنسية في عهد كليبر بقيادة الجنرال (ديزيه) ساري عسكر الصعيد، وكانت تقضي بانسحاب الجيش الفرنسي من مصر، وعودتها إلى السيادة العثمانية، وقد نقض الفرنسيون هذا الصلح بسبب اعتراض بريطانيا على بنوده، وهاجم كليبر الجيش العثماني الذي

بين العثمانية والفرنساوية والأمراء المصرية وأهل البلدة، فهجم على داره المتهورون من العامة ونهبوه وهتكوا حريمه وعرَّوه عن ثيابه وسحبوه بينهم مكشوف الرأس... فشفع فيه الحاضرون وأطلقوه بعد أن أشرف على الهلاك، وأخذه الخواجا أحمد بن محرم[1] إلى داره وأسكن روعه وألبسه ثيابًا وأكرمه، وبقي بداره إلى أن انقضت أيام الفتنة وظهرت الفرنساوية على المحاربين لهم وخرجوا من البلدة واستقر بها الفرنساوية، فعند ذلك ذهب إليهم وشكا لهم ما حل به بسبب موالاته لهم فعوضوا عليه ما نهب له، ورجع إلى الحالة التي كان عليها معهم... وكان له ابنة (زينب) خرجت عن طورها في أيام الفرنسيس، فلما أشيع حضور الوزير... وظهر على الفرنساوية الخروج من مصر؛ فقتل ابنته المذكورة بيد حاكم الشرطة، فلما استقرت العثمانية بالديار المصرية عزل المترجَم عن نقابة الأشراف وتولاها السيد عمر مكرم كما كان

كان يتأهب لدخول القاهرة بناء على الاتفاق، واستطاع أن يهزم الجيش العثماني في معركة عين شمس (المطرية)، إلا فرقتين من العثمانيين لم تقاتلا، واتجهتا إلى القاهرة بقيادة الوالي العثماني الجديد على مصر (نصوح باشا)، وكانت هذه هي النقطة التي بدأت منها ثورة القاهرة الثانية؛ لأن الشعب المصري انتهز فرصة انشغال الجيش الفرنسي ولبى نداء عمر مكرم الذي خرج من اعتكافه ونادى بالثورة. ينظر: تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 309)؛ محمد الشاويش، نهضات مجهضة 26؛ د. محمد حواش، خطاب التضامن الإسلامي في ضوء حملة نابليون على مصر والشام، وموقف المغرب منها ص 561.

(1) لم أقف على ترجمته.

قبل الفرنساوية، ولما حضر «محمد باشا خسرو»[1] أنهى إليه الكارهون له بأنه مرتكب للموبقات ويعاقر الشراب وغير ذلك، وأن ابنته كانت تذهب إلى الفرنسيس بعلمه وأنه قتلها خوفًا وتبرئة لنفسه من الشهرة التي لا يمكنه سترها ولا يقبل عذره[2]».

وعلى الرغم من وصف الجبرتي العامةَ بالتهور[3]؛ بسبب ما

---

(1) تولى على مصر بعد جلاء الحملة الفرنسية. تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 495).

(2) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 202). وما بين الأقواس من زيادتي.

(3) جدير بالذكر أن موقف الجبرتي من الحملة الفرنسية -وطريقة التعامل معها- لم يكن مؤيدًا لخط الثورة، فتراه دائمًا يشنع على الهبّات الشعبية التي تتخذ مسلكًا ثوريًّا، ويصفها بالفتنة التي تتسبب في خراب البلاد، ولحوق الأذى بالعباد، ومن ذلك وصفه لمسلك العامة في تحقير الفرنسيين بعد صلح العريش بقوله: «وأما الرعايا وهمج الناس من أهل مصر فإنهم استولى عليهم سلطان الغفلة ونظروا للفرنسيس بعين الاحتقار وأنزلوهم عن درجة الاعتبار وكشفوا نقاب الحياء معهم بالكلية وتطاولوا عليهم بالسب واللعن والسخرية، ولم يفكروا في عواقب الأمور، ولم يتركوا معهم للصلح مكانًا، حتى إن فقهاء المكاتب كانوا يجمعون الأطفال ويمشون بهم فرقًا وطوائف حسبة وهم يجهرون ويقولون كلامًا مقفّى بأعلى أصواتهم بلعن النصارى وأعوانهم وأفراد رؤسائهم... وظنوا فروغ القضية ولم يملكوا لأنفسهم صبرًا حتى تنقضي الأيام المشروطة، على أن ذلك لم يثمر إلا الحقد والعداوة التي تأسست في قلوب الفرنسيس وأوجبت ما حصل بعد ذلك من وقوع العذاب البئيس. وقال الشعبي من جملة كلام: [وصادفنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء ولا فجرة أقوياء]». تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 318).

فعلوه بخليل البكري، إلا أن هذا لا ينفي أهمية الحراك الشعبي في ردع المتعاونين مع المحتل؛ للحفاظ على كيان الأمة المادي وهويتها الدينية والحضارية، ولا يضر هذا الحراكَ وقوعُ بعض التجاوزات، التي لا يخلو عنها نموذج من نماذج الجهاد والمقاومة في التاريخ الإنساني، طالما كان هذا التجاوز نابعًا عن تصرفات فردية غير ممنهجة.

وتتفاوت درجات التأديب الشعبي بحسب شدة الجرم ودرجة الخيانة، فتبدأ بالإهانة كما فعلوا بالبكري، وتنتهي بالتصفية إذا اشتدت الخيانة، كما جرى لابنة البكري وغيرها ممن بلغوا الغاية في التداخل مع المحتل، على حد تعبير الجبرتي.

حكى الجبرتي في حوادث شهر رجب سنة أربع عشر ومئتين وألف: «وفي رابعه قتل جماعة بالرميلة[1] وغيرها ونودي عليهم: هذا جزاء من يتداخل في الفرنسيس والعثملي[2]».

وكان من تداعيات ثورة القاهرة الثانية الانتقام من «مصطفى أغا مستحفظان»؛ لاتهامه بإيواء الفرنسيين، قال الجبرتي: «واتهم مصطفى أغا مستحفظان بموالاته للفرنساوية وأنه عنده في بيته جماعة من الفرنسيس، فهجمت العساكر على داره... فوجدوا أنفارًا قليلة من الفرنسيس فقاتلوا وحامَوا عن أنفسهم وقتل منهم البعض وهرب البعض... وأما الأغا فإنهم قبضوا عليه وأحضروه بين يدي عثمان

(1) جهة بالقرب من القلعة.

(2) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 400).

كتخدا، ثم تسلمه الانكشارية وخنقوه ليلًا بالوكالة التي عند باب النصر، ورموا جيفته على مزبلة خارج البلد[1]».

وتأمل معي في تعبير الجبرتي (ورموا جيفته على مزبلة خارج البلد)، وما فيها من دلالة على مبلغ احتقار العامة والخاصة للعميل المتعاون مع المحتل، حتى ينتهي به الحال إلى أن يصير جيفة ترمى في المزبلة.

ولا أرى هذا الاحتقار الشعبي للعملاء إلا صورة أخرى من صور المقاومة الجماهيرية التي تفيد في تحقيق الردع الشعبي.

وقال الجبرتي في حوادث شهر صفر سنة 1216ه: «وفي يوم الاثنين قتلوا شخصًا بالرميلة، يسمى حجاجًا، كان متولي الأحكام ببولاق أيام الفرنسيس وجارَ وعسف. وقتل معه آخر يقال: إنه أخوه[2]».

أثر العامة في إعادة هيكلة القيادة في فترات السقوط الحضاري:

لا تتضح أهمية العامة في وقت مثلما تتضح في الأوقات التي تنهار فيها القيادة الرسمية بفعل الهزات الكبرى التي تتعرض لها الأمة، وذلك مثلما جرى في أوقات اجتياح العدو لأرض الإسلام، فحينئذ تجد العامةُ نفسَها في موقع المسئولية المفاجئة التي لم تكن تخطر لها على بال، ولا كانت مستعدة لها بحال؛ لأن غرور القيادة - والتفاتها عن تطوير المجتمع - لم يدع مجالًا لإعداد العامة لتولي زمام القيادة

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 332).

(2) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 400).

على نحو يقي المجتمع من السقوط المدوي بفعل الهجمات المعادية، فتكون المحصلة هي اضطراب الأمور مدة من الزمان تستغرقها عملية الإفاقة من الصدمة واستيعاب ما جرى مما لم يكن في الحسبان بفعل تغييب العامة من قبل القيادات المغرورة أو العاجزة، لكن يحدثنا التاريخ أن العامة تنجح بعدها في إعادة تنظيم نفسها وإفراز قيادات شعبية حقيقية تكون أصدق تعبيرًا عن تطلعات الجماهير[1]، وتنجح فيما فشلت فيه القيادات الرسمية المنهارة، التي غالبًا ما لا تكون طريقة اختيارها وتعيينها معبرة بدقة عن نبض الجماهير.

هذا ما أثبته لنا التاريخ في وقائع متعددة، وأعاد التاريخ نفسه وقت دخول الحملة الفرنسية على مصر؛ حيث انهارت القيادات الرسمية، ووجدت الجماهير نفسها وجهًا لوجه مع واحدة من أكبر القوى العسكرية الاستعمارية وأشدها تطورًا، وقد حصلت للجماهير صدمة حضارية عنيفة بسبب ما رأت عليه الفرنسيين من تقدم صناعي وعسكري لم يكن في حسبان أحد؛ بسبب أن القيادات الرسمية كانت تعيش في غيبوبة حضارية

(1) وفي هذا الانتخاب الشعبي التلقائي آلية (تعويضية) يلجأ إليها المجتمع المدني في أوقات انحراف السلطة؛ لتعويض غياب الآليات (الشورية) في التصعيد القيادي؛ فتتمخض هذه الحركة الجماهيرية عن تصعيد رجل المرحلة وشخصية الوقت في عملية عجيبة ظاهرها العفوية والفوضوية والعشوائية، وباطنها (السُّنَنية) التي تفرز الخلْق وتنتخب منهم شخصية الوقت وفق قوانين حضارية أقرتها الإرادة الإلهية في تدبيرها لأمر الأمم في مسيرتها التاريخية.

أقعدتها عن ملاحظة التطور الصناعي والتقني الهائل الذي طرأ على أوربا بعد هزيمة الحملات الصليبية، وعاشت القيادة الرسمية في وهم إمكانية أن يعيد التاريخ نفسه رغم حدوث تغيرات جوهرية أدت إلى طفرة مدنية في الغرب، بينما قعد الشرق الإسلامي عن تطوير نفسه واكتفى بالوهم -اللذيذ- الذي جعله يعيش على ذكرى انتصارات الأجداد العظماء، حتى إن قادة المماليك استهانوا استهانة عجيبة بالقوات الفرنسية الغازية واستكانت العامة لخيالاتهم السقيمة، فكان السقوط المروع، وكانت الصدمة الحضارية العنيفة التي زلزلت كيان الأمة وبددت الأوهام التي حجبت البصائر عن إدراك مدى اتساع الفجوة المدنية بين الشرق والغرب، مما أدى إلى صيرورة الشرق المتجمد فريسةً للغرب الاستعماري الذي تمكن من تغيير موازين القوى لصالحه بعد نجاحه في الثورة الصناعية.

وقد أبدع الجبرتي في وصف هذه الصدمة الحضارية وعرض تحليل بارع شخّص فيه أمراض الأمة في هذه الحقبة التعيسة، فقال:

«سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف: وهي أول سني الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة، والنوازل الهائلة، وتضاعف الشرور، وترادف الأمور، وتوالي المحن واختلال الزمن، وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع، وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال وفساد التدبير وحصول التدمير وعموم الخراب وتواتر الأسباب، وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون[1]».

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 179).

وقال الجبرتي في بيان سذاجة القيادة وقت وصول الحملة الفرنسية إلى الإسكندرية: «ثم إن أهل الثغر أرسلوا إلى كاشف البحيرة ليجمع العربان ويأتي معهم للمحافظة بالثغر، فلما قرئت المكاتبات بمصر حصل بها اللغط الكثير من الناس وتحدثوا بذلك فيما بينهم وكثرت المقالات والأراجيف.

ثم ورد في ثالث يوم - بعد ورود المكاتيب الأول- مكاتبات مضمونها أن المراكب التي وردت الثغر عادت راجعة؛ فاطمأن الناس وسكن القيل والقال، وأما الأمراء فلم يهتموا بشيء من ذلك ولم يكترثوا به؛ اعتمادًا على قوتهم، وزعمهم أنه إذا جاءت جميع الإفرنج لا يقفون في مقابلتهم، وأنهم يدوسونهم بخيولهم.

فلما كان يوم الأربعاء... وردت مكاتبات من الثغر ومن رشيد ودمنهور بأن في يوم الاثنين... وردت مراكب وعمارات للفرنسيين كثيرة؛ فأرسوا في البحر وأرسلوا جماعة يطلبون القنصل وبعض أهل البلد، فلما نزلوا إليهم عوقوهم عندهم، فلما دخل الليل تحولت منهم مراكب إلى جهة العجمي، وطلعوا إلى البر ومعهم آلات الحرب والعساكر فلم يشعر أهل الثغر وقت الصباح إلا وهم كالجراد المنتشر حول البلد، فعندها خرج أهل الثغر وما انضم إليهم من العربان المجتمعة وكاشف البحيرة؛ فلم يستطيعوا مدافعتهم ولا أمكنهم ممانعتهم، ولم يثبتوا لحربهم، وانهزم الكاشف ومن معه من العربان، ورجع أهل الثغر إلى التترس في البيوت والحيطان ودخلت الإفرنج

البلد وانبث فيها الكثير من ذلك العدد، كل ذلك وأهل البلد لهم بالرمي يدافعون عن أنفسهم وأهليهم يقاتلون ويمانعون، فلما أعياهم الحال وعلموا أنهم مأخوذون بكل حال وليس ثَمَّ عندهم للقتال استعداد - لِخُلُوِّ الأبراج من آلات الحرب والبارود، وكثرة العدو وغلبيته - طلب أهل الثغر الأمان؛ فأمنوهم ورفعوا عنهم القتال[1]».

وقال في بيان فشل الاستعدادات العسكرية لصد الفرنسيين عن دخول القاهرة وما نجم عن ذلك من شيوع الفوضى: «واجتمع باقي الأمراء والعلماء وأخذوا في الاستعداد للثغر وقضاء اللوازم والمهمات في مدة خمسة أيام، فصاروا يصادرون الناس ويأخذون أغلب ما يحتاجون إليه بدون ثمن، ثم ارتحل»مراد بك« بعد صلاة الجمعة... ولما ارتحل... أرسل إلى مصر يأمر بعمل سلسلة من الحديد في غاية الثخن والمتانة وطولها مائة ذراع وثلاثون ذراعًا؛ لتنصب على البغاز عند برج مغيزل من البر إلى البر؛ لتمنع مراكب الفرنسيين من العبور لبحر النيل وذلك بإشارة «علي باشا»، وأن يُعمَل عندها جسر من المراكب ويُنصَب عليها متاريس ومدافع؛ ظنًّا منهم أن الإفرنج لا يقدرون على محاربتهم في البر وأنهم يعبرون في المراكب ويقاتلونهم وهم في المراكب، وأنهم يصابرونهم ويطاولونهم في القتال حتى تأتيهم النجدة، وكان الأمر بخلاف ذلك؛ فإن الفرنسيس عندما ملكوا الأسكندرية ساروا على طريق البر الغربي من غير ممانع. وفي أثناء

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 180).

خروج «مراد بك» والحركة؛ بدت الوحشة في الأسواق، وكثر الهرج بين الناس والإرجاف، وانقطعت الطرق، وأخذت الحرامية في كل ليلة تطرق أطراف البلد، وانقطع مشي الناس من المرور في الطرق والأسواق من المغرب[1]».

وأحسن الجبرتي تشخيص أسباب الهزيمة التي تسببت في استيلاء الفرنسيين على القاهرة فقال: «ثم في كل يوم تكثر الإشاعة بقرب الفرنسيس إلى مصر، وتختلف الناس في الجهة التي يقصدون المجيء منها، فمنهم من يقول: إنهم واصلون من البر الغربي، ومنهم من يقول: بل يأتون من الشرقي، ومنهم من يقول: بل يأتون من الجهتين، هذا، وليس لأحد من أمراء العساكر همة أن يبعث جاسوسًا أو طليعة تناوشهم بالقتال قبل دخولهم وقربهم ووصولهم إلى فناء المصر، بل كل من إبراهيم بك ومراد بك جمع عسكره ومكث مكانه لا ينتقل عنه ينتظر ما يفعل بهم، وليس ثم قلعة ولا حصن ولا معقل، وهذا من سوء التدبير وإهمال أمر العدو. ولما كان يوم الجمعة سادس الشهر وصل الفرنسيس إلى الجسر الأسود وأصبح يوم السبت، فوصلوا إلى (أم دينار) فعندها اجتمع العالَم العظيم من الجند والرعايا والفلاحين المجاورةِ بلادُهم لمصر، ولكن الأجناد متنافرة قلوبهم، منحلة عزائمهم، مختلفة آراؤهم، حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم، مختالون في رئيسهم، مغترون بجمعهم، محتقرون شأن عدوهم، مرتبكون في رويتهم، مغمورون في غفلتهم، وهذا كله من

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 182).

أسباب ما وقع من خذلانهم وهزيمتهم... ولما قرب طابور الفرنسيس من متاريس «مراد بك» ترامى الفريقان بالمدافع... فلما عاين وسمع عسكر البر الشرقي القتال؛ ضج العامة والغوغاء من الرعية وأخلاط الناس بالصياح ورفع الأصوات بقولهم: يا رب، ويا لطيف، ويا رجال الله، ونحو ذلك، وكأنهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم وجلبتهم، فكان العقلاء من الناس يصرخون عليهم ويأمرونهم بترك ذلك ويقولون لهم: (إن الرسول والصحابة والمجاهدين إنما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقاب لا برفع الأصوات والصراخ والنباح) فلا يستمعون ولا يرجعون عما هم فيه، ومن يقرأ ومن يسمع! وركب طائفة كبيرة من الأمراء والأجناد من العرض الشرقي - ومنهم «إبراهيم بك» الوالي - وشرعوا في التعدية إلى البر الغربي في المراكب فتزاحموا على المعادي؛ لكون التعدية من محل واحد، والمراكب قليلة جدًّا؛ فلم يصلوا إلى البر الآخر حتى وقعت الهزيمة به على المحاربين، هذا والريح النكباء اشتد هبوبها، وأمواج البحر في قوة اضطرابها، والرمال يعلو غبارها وتنسفها الريح في وجوه المصريين؛ فلا يقدر أحد أن يفتح عينيه من شدة الغبار وكون الريح من ناحية العدو، وذلك من أعظم أسباب الهزيمة كما هو منصوص عليه[1]».

قال الأستاذ «محمد جلال كشك» - تعليقًا على وصف الجبرتي -: «ولا أظن أن محللًا ديالكتيكيًّا معاصرًا يستطيع أن يقدم تشريحًا لطبقة منهارة وجيش انتهى دوره كقوة مقاتلة مثلما فعل الشيخ الجبرتي

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 188).

الأزهري، مما يؤكد أن فهم قوانين التخلف لم يكن مستعصيًا على شيوخ الأزهر، ولكن لم يسعفهم الدهر[1]».

وقال الجبرتي في بيان أحول الناس بعد الهزيمة: «فلما عاين العامة والرعية ذلك؛ اشتد ضجرهم وخوفهم وتحركت عزائمهم للهروب واللحاق بهم، والحال أن الجميع لا يدرون أي جهة يسلكون وأي طريق يذهبون وأي محل يستقرون؛ فتلاحقوا وتسابقوا وخرجوا من كل حدَب ينسلون، وبِيع الحمار الأعرج أو البغل الضعيف بأضعاف ثمنه، وخرج أكثرهم ماشيًا أو حاملًا متاعه على رأسه وزوجتُه حاملة طفلها، ومن قدر على مركوب أركب زوجته أو ابنته ومشى هو على أقدامه، وخرج غالب النساء ماشيات حاسرات وأطفالهن على اكتافهن يبكين في ظلمة الليل، واستمروا على ذلك بطول ليلة الأحد وصبحها، وأخذ كل إنسان ما قدر على حمله من مال ومتاع، فلما خرجوا من أبواب البلد وتوسطوا الفلاة تلقتهم العربان والفلاحون فأخذوا متاعهم ولباسهم وأحمالهم بحيث لم يتركوا لمن صادفوه ما يستر به عورته أو يسد جوعته؛ فكان ما أخذته العرب شيئًا كثيرًا يفوق الحصر؛ بحيث إن الأموال والذخائر التي خرجت من مصر في تلك الليلة أضعاف ما بقي فيها بلا شك؛ لأن معظم الأموال عند الأمراء والأعيان وحريمهم وقد أخذوه صُحبتَهم، وغالب مساتير الناس وأصحاب المقدرة أخرجوا أيضًا ما عندهم، والذي

(1) ودخلت الخيل الأزهر ص 164.

أقعده العجز وكان عنده ما يعز عليه من مال أو مصاغ أعطاه لجاره أو صديقه الراحل، ومثل ذلك أمانات وودائع الحجاج من المغاربة والمسافرين، فذهب ذلك جميعه وربما قتلوا من قدروا عليه أو دافع عن نفسه ومتاعه، وسلبوا ثياب النساء وفضحوهن وهتكوهن وفيهم الخوندات والأعيان، فمنهم من رجع من قريب - وهم الذين تأخروا في الخروج وبلغهم ما حصل للسابقين - ومنهم من جازف متكلًا على كثرته وعزوته وخفارته فسلم أو عطب، وكانت ليلة وصباحها في غاية الشناعة: جرى فيها ما لم يتفق مثله في مصر ولا سمعنا بما شابه بعضه في تواريخ المتقدمين، فما راءٍ كمن سمعا!».

«كانت مصر غير متأهبة إطلاقًا لصدمة نزول الجيوش الفرنسية على أرضها، ولم يكن لديها سبيل لمعرفة أن هذا الغزو لا يشبه في شيء أيَّ غزو حدث للبلاد في الماضي. وأن هذه الحملة تعني انهيار العصور الوسطى في الشرق الأدنى[1]»

كانت الصدمة التاريخية التي أحدثتها مدافع الفرنسيين كافية لتبديد ليل الغفلة -والأمن الكاذب- الذي عاشته الشعوب العربية مخدرة بانتصاراتها على الصليبيين وبالفتوح العثمانية، وكانت ردة الفعل هي الاستجابة للتحدي ومحاولة التغلب عليه بامتلاك وسائل المعرفة التي نقلت التفوق للجانب الآخر من البحر الأبيض[2].

(1) ودخلت الخيل الأزهر ص 155.

(2) ودخلت الخيل الأزهر ص 177.

ثانياً: القيادات الجديدة:

بعد انهيار القيادات الرسمية - للأسباب السالف ذكرها تفصيلًا- سرعان ما أعادت الجماهير تنظيم نفسها، وتجديد نخبتها، واستبدال القيادات الشعبية الحقيقية -المعبرة عن نبض الشارع المصري- بالقيادات الرسمية الهشة التي تسببت في ضياع الأمة؛ بجهلها وتخلفها الفكري فضلًا عن أنانيتها وجعلها مصالح الأمة في ذيل قائمة اهتماماتها.

وكأن العناية الإلهية تأبى إلا أن تعمل سنة الاستبدال عملها في تصعيد رجال المرحلة -المغمورين بين العامة- بعد أن يصير الزمان زمانهم، فتتفجر طاقاتهم وتعمل مواهبهم بما لم يكن يخطر لأحد على بال.

يقول الأستاذ «محمد جلال كشك» في وصف الحالة العامة بعد اجتياح الحملة الفرنسية للقاهرة: «وبانهيار القيادة الرسمية انبثقت قيادة جديدة من المشايخ الصغار، باعتبار أن المشايخ الكبار كانوا مع الخارجين... أو يتعذر عليهم -بحكم مكانتهم- أن يبدءوا هم الاتصال بالسلطة الجديدة، فاجتمع هؤلاء وتشاوروا وقرروا مفاوضة الغازي[1]،

---

(1) قال الجبرتي: «وركب الشيخ مصطفى الصاوي والشيخ سليمان الفيومي وآخرون إلى الجيزة فتلقاهم (يعني ساري عسكر) وضحك لهم وقال: أنتم المشايخ الكبار، فأعلموه أن المشايخ الكبار خافوا وهربوا، فقال: لأي شيء يهربون؟ اكتبوا لهم بالحضور ونعمل لكم ديوانًا لأجل راحتكم وراحة الرعية وإجراء الشريعة؛ فكتبوا منه عدة مكاتبات بالحضور والأمان، ثم انفصلوا من معسكرهم بعد العشاء وحضروا إلى مصر، واطمأن برجوعهم الناس وكانوا

وسنرى أن ذات الجماهير التي تصرفت على هذا النحو عندما سقطت قيادتها الرسمية أو حتى في ظل هذه القيادة.. ذات الجماهير تحولت إلى قوة مقاتلة متشبثة بأرضها تعرف كيف تستخدم السلاح، بل وتصنعه، وتواجه ذات الجيش الذي قابلته بالصياح وفرت فور انتصاره.. ستقاتل من بيت إلى بيت ومن شارع إلى شارع عندما تحمل هي مسئولية الدفاع عن وطنها. وستظهر قيادة جديدة من بينها وتقودها إلى تحقيقه[1].

التنظيم الشعبي ذو القيادة (المنتخبة):

بعد الصدمة التي بددت كل الأوهام عن حالة العدو، وبعد تجديد دماء القيادة؛ كان لا بد من تغيير يسفر عن وضع استيراتيجيات جديدة في طريقة التعامل مع المحتل، فتمخضت هذه التفاعلات عن حراك شعبي جديد كان له أكبر الأثر في إنهاك العدو وإجباره على مراجعة حساباته التي بنى عليها خطته الاستعمارية.

ويسجل بعض الشهود والمؤرخين أن عمليات إعادة التنظيم التي أعقبت الانهيار الكبير وقت دخول الحملة الفرنسية قد تمخضت عن إنشاء تنظيم شعبي يؤجج نيران الثورة، فدخلت مصر بهذا عصر التنظيمات الشعبية ذاتية القيادة.

في وجل وخوف على غيابهم، وأصبحوا فأرسلوا الأمان إلى المشايخ؛ فحضر الشيخ السادات والشيخ الشرقاوي والمشايخ ومن انضم إليهم من الناس الفارين من ناحية المطرية، وأما عمر أفندي نقيب الأشراف فإنه لم يطمئن ولم يحضر». تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 192).

(1) ودخلت الخيل الأزهر ص 166.

يقول «نابليون» في مذكراته عن ثورة القاهرة الأولى: «إن الشعب قد انتخب (ديوانًا) للثورة ونظم المتطوعين للقتال واستخرج الأسلحة المخبوءة، وإن الشيخ السادات[1] انتُخب رئيسًا لهذا الديوان».

(1) هو: الأستاذ الشهير والجهبذ النحرير الرئيس المفضل والفريد المبجل نادرة عصره ووحيد دهره، الشيخ شمس الدين محمد أبو الأنوار ابن عبد الرحمن المعروف بابن عارفين، سبط بني الوفاء، وخليفة السادات الحنفاء، وشيخ سجادتها ومحط رحال سيادتها، وأمه السيدة صفية بنت الأستاذ جمال الدين يوسف أبي الإرشاد ابن وفا، تزوج بها الخواجا عبد الرحمن المعروف بعارفين فأولدها المترجَم وأخاه الشيخ يوسف، وكان أسن منه، فتربى مع أخيه في حجر السيادة والصيانة والحشمة وقراء القرآن، وتولع بطلب العلم وحضر دروس أشياخ الوقت وتلقى طريقة أسلافه عن خاله الأستاذ شمس الدين محمد أبي الإشراق ابن وفا عن عمه الشيخ عبد الخالق... إلى آخر السند المنتهي إلى الأستاذ أبي الحسن الشاذلي، وحج سنة تسع وسبعين ومائة وألف، وتزوج عقب عودته من الحج، وتقلد مشيخة السادات الوفائية سنة 1182ه، وانتظم أمره وحسن سلوكه بشهامة وحشمة ورئاسة وتؤدة وأدب مع الأشياخ والأقران وتحبب إلى أرباب المظاهر والأكابر واستجلاب الخواطر وسلوك الطرائق الحميدة والتباعد عن الأمور المخلة بالمروءة والأخذ بالحزم والرفق مع الاشتغال في بعض الأحيان بالمطالعة والمذاكرة في المسائل الدينية والأدبية ومعاشرة الفضلاء ومجالستهم والمناقشة معهم في النكات واقتناء الكتب من كل فن، كل ذلك مع الجد والتحصيل للأسباب الدنيوية وما يتوصل به إلى كثرة الإيراد بحسن تداخل وجميل طريقة مبعدة عما يخل بالمقدار، ولما انقرضت بقايا الشيوخ الذين كان يهابهم ويخضع لهم ويتأدب معهم وكانوا على طرائق الأقدمين في العفة والانجماع عما يخل بتعظيم العلم وأهله والتباعد عن بني الدنيا إلا بقدر الضرورة، وخلف من بعدهم من هم على خلاف ذلك، وهم

وتأمل معي في عبارة (إن الشعب قد انتخب ديوانًا للثورة) وتساءل

أعاظم مدرسي الوقت فأحدقوا به وأكثروا من الترداد عليه وعلى موائده وبالغوا في تعظيمه وتقبيل يده ومدحوه بالقصائد البليغة؛ طمعًا في صِلاته وجوائزه القليلة وحصول الشهرة لهم وزوال الخمول والتعارف بمن يتردد إلى داره من الأمراء والأكابر وزاد هو أيضًا وجهًا ووجاهة بمجالستهم. وكان إبراهيم بك الكبير قد أودع عند المترجم وديعة، وكذلك مراد بك أودع عند محمد أفندي البكري وديعة، وعلم ذلك حسن باشا القبطان فأرسل عسكرًا إلى السيد البكري، فلم تسعه المخالفة وسلم ما عنده، وأرسل كذلك يطلب من الشيخ السادات وديعة إبراهيم بك فامتنع من دفعها قائلًا: (إن صاحبها لم يمت وقد كتبت على نفسي وثيقة؛ فلا أسلم ذلك ما دام صاحبها في قيد الحياة) فاشتد غيظ الباشا منه وقصد البطش به فحماه الله منه ببركة الانتصار للحق، فكان يقول: لم أرَ في جميع الممالك التي ولجتها من اجترأ على مخالفتي مثل هذا الرجل؛ فإنه أحرق قلبي، وفي عقب ذلك نزل السيد محمد أفندي البكري المذكور عن وظيفة نظر المشهد الحسيني للشيخ السادات وأرسل إليه بصندوق دفاتر الوقف. وذكر الجبرتي أن الشيخ السادات قد فتنته الدنيا وأولع بتحصيل أسباب الرفاهية والرياسة، واستطال على العامة لما عظُم نفوذه، وحقد على السيد عمر مكرم وطمِع في تولي نقابة الأشراف بدلًا عنه، وتم له ذلك في عهد محمد علي. وفي يوم الأحد ثامن عشر ربيع الأول سنة 1228ه= 1814م توفي إلى رحمة الله تعالى وقت العصر، فلما أصبح يوم الاثنين غسل وكفن، وصلوا عليه بالأزهر بعد ما أنشد المنشد مرثية من إنشاء العلامة الشيخ حسن العطار، وجعل براعة استهلالها الإشارة إلى ما كان عليه المترجَم من التعاظم والتفاخر فقال: (سلام على الدنيا فقد ذهب الفخر)، ثم حمل إلى مشهد أسلافه بالقرافة ودفن في التربة التي أعدها لنفسه بجانب مقام جدهم. تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (3/ 419-430).

معي عن دلالات هذه العبارة حين تصدر عن «نابليون» الذي شكل ديوانًا يعين الحملة الفرنسية على إدارة شئون البلاد؟

ولعلك عزيزي القارئ تشاطرني الرأي في أن ديوان «نابليون» لم يكن ديوان الشعب[1]، وأن الشعب كان يدرك هذا؛ لذا تراه قد انتخب الديوان الحقيقي الذي يمثله، ويعبر عن تطلعاته.

«والرافعي يقرر أن دعاة الحركة تعاهدوا على الاجتماع ليلة الأحد 21 أكتوبر 1798؛ لرسم الخطة الواجب اتباعها، فاجتمعوا، وكان عددهم في ذلك الاجتماع ثلاثين، فاتفق رأيهم على البدء بالعمل في اليوم التالي، وأزمعوا إقفال الدكاكين ودعوة أكبر عدد من التجار والصناع للذهاب - بجمع كبير- من الشاكين[2] إلى مركز القيادة العامة؛ لرفع الصوت احتجاجًا على الضرائب الجديدة، وبذلك تحدث في المدينة حركة يكون منها الشغب والهياج فتكون مقدمة للثورة[3]».

وهذا النص من الرافعي يثبت أن قيادات التنظيم السري الجديد كانوا على وعي بمعنى الثورة، والمقدمات اللازمة للوصول إلى (الكتلة الحرجة الثورية)، ولا يخفى على القارئ الفَطِن أن هذا الوعي

---

(1) وإن كنا نرفض تعميم الحكم على أعضاء الديوان بالعمالة للمحتل، ونرى أن الحكم يكون على كل شخص على حدة؛ بناء على نيته في المشاركة واجتهاده الذي دعاه للمشاركة في هذا الديوان.

(2) أي: المحتجين على الضرائب التي فرضها المحتل.

(3) ودخلت الخيل الأزهر ص 210.

لا يمكن أن يتأتى إلا عن خبرة سابقة بالعمل الثوري. ومن هنا يمكن أن نستنتج أن قيادات وأعضاء هذا التنظيم الثوري (المنتخب) كانوا ممن شارك في الثورات التي قام بها الشعب ضد مظالم المماليك والعثمانيين، ولا يخفى الدور الأساسي الذي كان يقوم به مشايخ وطلاب الأزهر في قيادة هذه الثورات بمساندة عامة الشعب والتجار وشيوخ الحرف.

معايير التصعيد الجماهيري للقيادات الشعبية:

من المهم البحث في معايير التصعيد الشعبي التلقائي التي على أساسها يتم تصعيد القيادات الشعبية، لا سيما بعد انهيار القيادات الرسمية – المعيَّنة عادة – في أوقات الصدمات الحضارية الكبرى التي تلقتها الأمة في قرون الانحدار.

وباستقراء أحداث التاريخ يمكن أن نستخلص أن هناك صنفين من المعايير: المعيار الشخصي، والمعيار الموضوعي.

فالمعيار الشخصي هو الذي يلاحِظ – فيمن يتم تصعيده – سمات شخصية بارزة هي من سمات القادة التاريخيين العظماء، مثل القوة والشجاعة والذكاء والجَلَد والفصاحة... وما شابهها من سمات القادة العظماء على مر العصور، فهذه السمات تلفت أنظار الجماهير الباحثة عن رجل المرحلة، فتجد بغيتها فيمن يستجمع القدْرَ الأكبر منها كمًّا وكيفًا.

وهناك معيار موضوعي يتم على أساسه تصعيد القيادات الشعبية، وهو الذي أشار إليه مشايخ الأزهر في قولهم لأمراء المماليك: «والأمير يكون أميرًا بالإعطاء لا بالأخذ [1]»، فالإنسان الذي يعطي بلا حساب ولا ينتظر المقابل يكون ذا شخصية آسرة تجمع حولها قلوب الخلق، وتنال ثقة الناس، وتكسب محبتهم واحترامهم، فهذا هو الأمير الحقُّ الذي امتلك قلوب الناس؛ بالتفاني في العطاء والإيثار، وهذا من الناموس الذي فطر الله الناس عليه، فقلوب الخلق جبلت على حب الإحسان والمحسنين، والولع بأصحاب المبادئ الذين يؤثرون العطاء على الأخذ، والبذل على المنع، وقد قال الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم ... فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ

ومثل هذا الانجذاب الجماهيري يُثمِر التصعيدَ العفوي للإنسان المعطاء ذي المبادئ الفاضلة، فيئول الحال إلى صيرورته في محل القيادة، وفي التاريخ الكثيرُ من النماذج لهذا المعيار، منها تصعيد الخلفاء الراشدين، لا سيما عثمان بن عفان، فقد ورد في بعض الروايات أن عبد الرحمن بن عوف ذكر لعلي بن أبي طالب: أنه استطلع حالة الرضا العام؛ فوجد أنهم لا يرضون بعثمان بدلًا؛ فترجح تصعيد عثمان بعد البيعة.

---

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 166- 167).

ولو قارنا بين علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان - من حيث السمات الذاتية والمواهب الشخصية - لكانت المقارنة في صالح علي بن أبي طالب؛ لأنه أوسع مواهب، أما لو قارنا بينهما من حيث مقدار العطاء والخدمات العامة التي بذلها كل منهما؛ لكانت المقارنة لصالح عثمان بن عفان؛ فتاريخه في البذل والإيثار معروف للصغير والكبير، وحياته حافلة بمواقف العطاء التي كانت سببًا في تنفيس الكربات عن الأمة في أوقات الأزمات، ففي الحالة العثمانية تغلَّب المعيارُ الموضوعي على المعيار الشخصي، فأثمر تصعيد عثمان بعد مقتل الفاروق عمر، رضي الله عن الجميع.

المعيار الموضوعي:

بعد هذا التمهيد -في معايير التصعيد الجماهيري للقيادات الشعبية بوسيلة الانتخاب الشعبي العفوي- نعود فنقول:

إن كلا المعيارين قد عمل عملَه في التصعيد الشعبي -سالف الذكر- للقيادات الشعبية في قرون الانحدار، لكن الذي يبدو للباحث: أن المعيار الموضوعي كان صاحب النصيب الأوفر من الإعمال في تصعيد القادة وفقًا له، وفيما يأتي نعرض لنماذج ظهر فيها أثر المعيار الموضوعي في التصعيد الجماهيري للقيادات الشعبية التي كان لها باع في المقاومة الحضارية في قرون الانحدار..

النموذج الأول- الإمام علي الصعيدي[1]:

يظهر أثر المعيار الموضوعي في سيرة الشيخ الإمام علي الصعيدي – رحمه الله تعالى – فقد كان لعطائه الواسع في ميدان العلم والعمل الصالح، وجهاده في الدفاع عن حقوق الضعفاء أثر

(1) الشيخ علي العَدَوِي (1112 – 1189 هـ = 1700 – 1775 م)، هو من رموز المقاومة الحضارية في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري = الثامن عشر الميلادي، وهو: علي بن أحمد بن مكرم الله الصعيدي، العدوي، المالكي، الأزهري، الشهير بالصعيدي، فقيه، محدث، أصولي، متكلم، منطقي. ولد ببني عدي من أعمال أسيوط، وتوفي بالقاهرة في 10 رجب. من تصانيفه: إتحاف المريد لجوهرة التوحيد، وكان شيخ الشيوخ في عصره، قال الجبرتي في ترجمته: «مات الإمام الهمام شيخ مشايخ الإسلام، عالم العلماء الأعلام، إمام المحققين وعمدة المدققين، الشيخ علي بن أحمد بن مكرم الله الصعيدى العدوى المالكي، ولد ببني عدى -كما أخبر عن نفسه- سنة 1112... وقدم إلى مصر وحضر دروس المشايخ... ودرس بالأزهر وغيره. وقد بارك الله في أصحابه -طبقة بعد طبقة- كما هو مشاهد، وكان يحكي عن نفسه أنه طالما كان يبيت بالجوع في مبدأ اشتغاله بالعلم وكان لا يقدر على ثمن الورق ومع ذلك إن وجد شيئًا تصدق به. وقد تكررت له بشارات حسنة منامًا ويقظة، وله مؤلفات دالة على فضله... وكان قبل ظهوره لم تكن المالكية تعرف الحواشي على شروح كتبهم الفقهية فهو أول من خدم تلك الكتب بها... وتوفي في عاشر رجب من السنة، وصُلِّيَ عليه بالأزهر بمشهد عظيم... ولم يخلف بعده مثله». تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (1/ 479). وينظر في ترجمته أيضًا: معجم المؤلفين (7/ 29)، الأعلام للزركلي (4/ 260).

عظيم في المكانة القيادية التي تبوأها في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري.

قال الجبرتي في ترجمة الإمام الصعيدي: «وكان - رحمه الله - شديد الشكيمة في الدين؛ يصدع بالحق، ويأمر بالمعروف وإقامة الشريعة، ويحب الاجتهاد في طلب العلم، ويكره سفاسف الأمور، وينهى عن شرب الدخان، ويمنع من شربه بحضرته وبحضرة أهل العلم؛ تعظيمًا لهم. وإذا دخل منزلًا من منازل الأمراء ورأى من يشرب الدخان.. شنَّع عليه وكسر آلته، ولو كانت في يد كبير الأمراء. وشاع عنه ذلك وعرف في جميع الخاص والعام وتركوه بحضرته فكانوا عندما يرونه مقبلًا من بعيد؛ نبه بعضهم بعضًا ورفعوا شبكاتهم وأقصابهم وأخفوها عنه، وإن رأى شيئًا منها؛ أنكر عليهم ووبخهم وعنفهم وزجرهم، حتى إن «علي بك» في أيام إمارته كان إذا دخل عليه في حاجة أو شفاعة أخبروه قبل وصوله إلى مجلسه؛ فيرفع الشبك من يده ويخفوه من وجهه، وذلك مع عتوه وتجبره وتكبره. واتفق أنه دخل عليه في بعض الأوقات فتلقاه على عادته وقبّل يده وجلس، فسكت الأمير مفكرًا في أمر من الأمور؛ فظن الشيخ إعراضه عنه؛ فأخذته الحدة وقال مخاطبًا له باللغة الصعيدية: (يامين يامين، هو غضبك ورضاك على حد سواء، بل غضبك خير من رضاك)، وكرر ذلك وقام... وهو يأخذ بخاطره ويقول: (أنا لم أغضب من شيء) ويستعطفه. فلم يجبه ولم يجلس ثانيًا وخرج ذاهبًا... واستمر الشيخ منقطعًا عن الدخول إليه مدة حتى ركب في ليلة من ليالي رمضان مع الشيخ الوالد (يعني والد

الجبرتي) في حاجة عند بعض الأمراء ومرًّا ببيت «علي بك» فقال له: ادخل بنا نسلم عليه،

فقال: يا شيخنا أنا لا أدخل..

فقال: لا بد من دخولك معي. فلم تسعه مخالفته، وانسر بذلك «علي بك» تلك الليلة سرورًا كثيرًا.

ولما مات «علي بك» واستقل «محمد بك أبو الذهب» بإمارة مصر،كان يجل من شأنه ويحبه ولا يرد شفاعته في شيء أبدًا، وكل من تعسر عليه قضاء حاجة ذهب إلى الشيخ وأنهى إليه قصته فيكتبها مع غيرها في قائمة حتى تمتلئ الورقة ثم يذهب إلى الأمير بعد يومين أو ثلاثة فعندما يستقر في الجلوس، يخرج القائمة من جيبه ويقص ما فيها من القصص والدعاوى واحدة بعد واحدة، ويأمره بقضاء كل منها والأمير لا يخالفه ولا ينقبض خاطره في شيء من ذلك... وكان على قدم السلف في الاشتغال والقناعة وشرف النفس وعدم التصنع والتقوى، ولا يركب إلا الحمار، ويواسي أهله وأقاربه، ويرسل إلى فقرائهم – ببلده – الصِّلاتِ والأكسية والبَزَّ والطرح –للنساء– والعصائب والمداسات، وغير ذلك[1]».

وكانت حياة «الشيخ الصعيدي» حافلة بمواقف المقاومة الحضارية التي تجلت فيها جرأة الشيخ في التصدي للمظالم.

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (1/ 487).

ومن هذا القبيل: حادثة تحرير «الشيخ عبد الباقي» من سجن الأمير (يوسف بك الكبير) الذي كان يناصب المشايخ العداء، وتمام القصة كما أوردها الجبرتي أن «الشيخ عبد الباقي - ابن الشيخ عبد الوهاب العفيفي- طلق على زوج بنت أخيه في غيابه، على يد الشيخ حسن الجداوى المالكي على قاعدة مذهبه، وزوجها من آخر وحضر زوجها من الفيوم وذهب إلى ذلك الأمير وشكا له «الشيخَ عبد الباقي»؛ فطلبه فوجده غائبًا في منية عفيف؛ فأرسل إليه أعوانًا أهانوه وقبضوا عليه ووضعوا الحديد في رقبته ورجليه وأحضروه في صورة منكرة، وحبسه في حاصل أرباب الجرائم من الفلاحين. فركب الشيخ علي الصعيدي العدوى والشيخ الجداوى وجماعة كثيرة من المتعممين وذهبوا إليه، وخاطبه الشيخ الصعيدي فقال له: هذا قول في مذهب المالكية معمول به..

فقال: من يقول: إن المرأة تطلق زوجها إذا غاب عنها وعندها ما تنفقه وما تصرفه ووكيله يعطيها ما تطلبه ثم يأتي من غيبته فيجدها مع غيره.

فقالوا له: نحن أعلم بالأحكام الشرعية.

فقال: لو رأيت الشيخ الذي فسخ النكاح.

فقال الشيخ الجداوى: أنا الذي فسخت النكاح على قاعدة مذهبي.

فقام على أقدامه وصرخ وقال:- والله- أكسر رأسك.

فصرخ عليه الشيخ علي الصعيدي وسبه وقال له: لعنك الله ولعن

اليسرجي[1] الذي جاء بك ومن باعك ومن اشتراك ومن جعلك أميرًا.

فتوسط بينهم الحاضرون من الأمراء يُسَكِّنون حدته وحدتهم، وأحضروا الشيخ عبد الباقي من الحبس فأخذوه وخرجوا وهم يسبونه وهو يسمعهم» [2].

النموذج الثاني- الإمام الدردير[3]:

يظهر أثر المعيار الموضوعي في سيرة الإمام الدردير -رحمه الله تعالى- فقد كان لعطائه الواسع في ميدان العلم والعمل الصالح، وجهاده

(1) تاجر العبيد.

(2) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (1/ 512).

(3) الدَّرْدِير (1127 - 1201 هـ = 1715 - 1786 م)، هو: الإمام العالم العلامة، أوحد وقته في الفنون العقلية والنقلية، شيخ أهل الإسلام، وبركة الأنام، الشيخ/ أحمد بن محمد بن أحمد بن أبي حامد، العَدَوي، المالكي، الأزهري، الخلوتي، أبو البركات، الشهير بالدردير: فقيه، صوفي. ولد في بني عَدِيّ (بمحافظة أسيوط)، وتعلم بالأزهر، وأفتي في حياة شيوخه مع كمال الصيانة والزهد والعفة والديانة وكرم الأخلاق، ولي مشيخة الطريقة الخلوتية، ولما توفي الشيخ علي الصعيدي تعين الإمام الدردير شيخًا على المالكية ومفتيًا وناظرًا على وقف الصعايدة، وشيخًا على طائفة الرواق، وله في السعي على الخير يد بيضاء، وتوفي بالقاهرة في 6 ربيع الأول، وصُلِّيَ عليه بالأزهر بمشهد عظيم حافل. ودفن بزاويته التي أنشأها بجوار ضريح سيدي يحيى بن عقب، ولم يخلف بعده مثله. ومن كتبه (أقرب المسالك لمذهب الإمام مالك) في شرح مختصر خليل، فقه، و(تحفة الإخوان في علم البيان)، و(رسالة في متشابهات القرآن). ينظر في ترجمته رحمه الله تعالى: تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 32)، الأعلام للزركلي (1/ 244)، معجم المؤلفين لرضا كحالة (2/ 67).

في الدفاع عن حقوق الضعفاء - أثر عظيم في المكانة القيادية التي تبوأها في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري، قال الجبرتي في ترجمة الإمام الدردير: «ولما توفي الشيخ علي الصعيدي تعين الإمام الدردير شيخًا على المالكية ومفتيًا وناظرًا على وقف الصعايدة، وشيخًا على طائفة الرواق، بل شيخًا على أهل مصر بأسرها في وقته حسًّا ومعنى؛ فإنه كان -رحمه الله- يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويصدع بالحق ولا يأخذه في الله لومة لائم، وله في السعي على الخير يد بيضاء، وتوفي بالقاهرة في 6 ربيع الأول، وصلي عليه بالأزهر بمشهد عظيم حافل. ودفن بزاويته[1] التي أنشأها بجوار ضريح سيدي يحيى بن عقب، وسبب إنشائه للزاوية: أن مولاي محمدًا سلطان المغرب كان له صلات يرسلها لعلماء الأزهر وخَدَمة الأضرحة وأهل الحرمين في بعض السنين، وتكرر منه ذلك فأرسل على عادته - في سنة 1198هـ - مبلغًا وللشيخ الدردير قدرًا معينًا، وكان لمولاي محمد ولد تخلَّف بعد الحج وأقام بمصر مدة حتى نفد ما عنده من النفقة، فلما وصلت تلك الصلة أراد أخذها ممن هي في يده فامتنع عليه وشاع خبر ذلك في الناس وأرباب الصلات وذهبوا إلى الشيخ بحصته فسأل عن قضية ابن السلطان فأخبروه عنها وعن قصده، وأنه لم يتمكن من ذلك، فقال الإمام الدردير: (والله هذا لا يجوز، وكيف أننا نتفكه في مال الرجل ونحن أجانب وولده يتلظى من العدم؟

(1) وتعرف الآن بمسجد وضريح الشيخ الدردير، في حي الباطنية، بجوار الجامع الأزهر الشريف.

هو أولى مني وأحق؛ أعطوه قسمي)، فأعطاه ذلك، ولما رجع رسول أبيه أخبر السلطان والده بما فعل «الشيخ الدردير»؛ فشكره على فعله وأثنى عليه واعتقد صلاحه وأرسل له في ثاني عام عشرة أمثال الصلة المتقدمة؛ مجازاة للحسنة، فقبلها الأستاذ وحج منها، ولما رجع من الحج بنى هذه الزاوية مما بقي، ودفن بها- رحمه الله تعالى - ولم يخلف بعده مثله»[1].

وكانت حياة «الشيخ الدردير» حلقة متصلة من الجهاد العلمي والشعبي، تجلت فيها شجاعة الشيخ في الصدع بكلمة الحق والدفاع عن حقوق المظلومين من العامة، الأمر الذي كان له أكبر الأثر في تبؤ الشيخ للمكانة العظيمة التي نالها في حياته وبعد مماته.

ذكر الجبرتي في حوادث سنة إحدى وتسعين ومائة وألف: «وفيها - في أوائل شهر جمادى الأولى- وقعت حادثة في طائفة المغاربة المجاورين بالجامع الأزهر، وذلك أنه آل إليهم مكان موقوف، وجحد واضع اليد ذلك والتجأ إلى بعض الأمراء، وكتبوا فتوى في شأن ذلك، واختلفوا في ثبوت الوقف بالإشاعة، ثم أقاموا الدعاوى في المحكمة وثبت الحق للمغاربة، ووقع بينهم منازعات، وعزلوا شيخهم وولوا آخر، وكان المندفع في الخصومة واللسانة شيخًا منهم يسمى (الشيخ عباس) والأمير الملتجئ إليه الخصم (يوسف بك) فلما ترافعوا وظهر الحق على خلاف غرض الأمير؛ حنق لذلك ونسبهم إلى ارتكاب الباطل، فأرسل من طرفه من يقبض على الشيخ عباس المذكور من بين المجاورين، فطردوا المعينين وشتموهم

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 34) بتصرف.

وأخبروا الشيخ أحمد الدردير؛ فكتب مراسلة إلى «يوسف بك» تتضمن عدم تعرضه لأهل العلم ومعاندة الحكم الشرعي، وأرسلها صحبة «الشيخ عبد الرحمن الفرنوى» وآخرين، فعندما وصلوا إليه وأعطوه التذكرة؛ نهرهم وأمر بالقبض عليهم وسجنهم بالحبس. ووصل الخبر إلى «الشيخ الدردير» وأهل الجامع فاجتمعوا في صبحها، وأبطلوا الدروس والأذان والصلوات، وقفلوا أبواب الجامع وجلس المشايخ بالقبلة القديمة وطلع الصغار على المنارات يكثرون الصياح والدعاء على الأمراء. وأغلق أهل الأسواق القريبة الحوانيت[1]، وبلغ الأمراءَ ذلك؛ فأرسلوا إلى «يوسف بك»؛ فأطلق المسجونين، وأرسل إبراهيمُ بك من طرفه (إبراهيمَ: أغا بيت المال) فلم يأخذ جوابًا، وحضر الأغا إلى الغورية ونزل هناك ونادى بالأمان وأمر بفتح الحوانيت، فبلغ مجاوري المغاربة ذلك؛ فذهب إليه طائفة منهم وتبعهم بعض العوام وبأيديهم العصي والمساوق... [2]».

ويظهر من هذا النص أن «الشيخ الدردير» وأهل الأزهر والعامة كانوا يعرفون آليات الإضراب والعصيان المدني باعتبارها من صور المقاومة الفعالة في التصدي لمظالم الحكام، وكانوا يدركون أثرها في الضغط على الحكومة من أجل حملها على الاستجابة لمطالب الجماهير، وكانوا يبدءون بأنفسهم؛ حيث كانوا يعطلون الدراسة

---

(1) وكانت هذه هي الإجراءات المتبعة عادة في عمليات العصيان المدني التي يقودها المشايخ؛ احتجاجًا على مظالم الأمراء.

(2) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (1/ 497).

وبعض الشعائر؛ لتنبيه العامة وحشدهم، أو لإعلان النفير العام، فكان الإضراب والعصيان المدني من وسائل الحشد الإعلامي إضافة إلى كونهما من وسائل الضغط الثوري.

ويلاحظ أنهم نفذوها بنجاح، وأجبروا الأمراء على الاستجابة لمطالبهم.

وفي الحوادث المشابهة التي استقرأتها لم أقف على حادثة واحدة فشلت فيها أعمال الإضراب والعصيان المدني، بل كلها انتهت إلى نجاح الضغط الشعبي في إيجاد أرضية صلبة للمفاوضات التي تسفر عادة عن الاستجابة لمطالب الجماهير، أو الوصول إلى حل وسط يرضي جميع الأطراف.

وذكر الجبرتي في حادثة أخرى من حوادث سنة 1200ه: «حضر من ناحية قبلي سفينة وبها تمر وسمن وخلافه، فأرسل «سليمان بك» الأغا وأخذ ما فيها جميعه وادعى أن له عند (أولاد وافي) مالًا منكسرًا، ولم يكن ذلك لأولاد وافي، وإنما هو لجماعة يتسببون فيه من مجاورى الصعايدة وغيرهم، فتعصب مجاورو الصعايدة وأبطلوا دروس المدرسين، وركب الشيخ الدردير والشيخ العروسي[1] والشيخ

---

(1) هو: علامة العلوم والمعارف، وروضة الآداب وظلها الوارف، جامع المزايا والمناقب، شهاب الفضل الثاقب، الإمام العلامة الشيخ أحمد بن موسى بن داود، أبو الصلاح العروسي الشافعي الأزهري، ولد سنة ثلاث وثلاثين ومائة وألف، وقدم الأزهر فسمع على الشيخ أحمد الملوي صحيح البخاري بالمشهد الحسيني، وعلى الشيخ

عبد الله الشبراوي الصحيح وتفسير البيضاوي والجلالين، وعلى الشمس الحفني الصحيح مع شرحه للقسطلاني ومختصر ابن أبي جمرة والشمائل وابن حجر على الأربعين والجامع الصغير، وتفقه على كل من الشبراوي والعزيزي والحفني والشيخ علي قايتباي الأطفيجي والشيخ حسن المدابغي والشيخ سابق والشيخ عيسى البراوي والشيخ عطية الأجهوري، وتلقى بقية الفنون عن الشيخ علي الصعيدي ولازمه السنين العديدة وكان معيدًا لدروسه، وسمع عليه الصحيح بجامع مرزة ببولاق، ولازم الشيخ الجبرتي الوالد وأخذ عنه وقرأ عليه في الرياضيات والجبر والمقابلة، وتلقن الذكر والطريقة عن السيد مصطفى البكري ولازمه كثيرًا، واجتمع بعد ذلك على ولي عصره الشيخ أحمد العريان فأحبه ولازمه واعتنى به الشيخ وزوجه إحدى بناته وبشره بأنه سيسود ويكون شيخ الجامع الأزهر، فظهر ذلك بعد وفاته بمدة لما توفي الشيخ أحمد الدمنهوري، واستمر شيخ الجامع على الإطلاق ورئيسهم بالاتفاق يدرس ويعيد ويملي ويفيد ولم يزل يراعي للحقير حق الصحبة القديمة والمحبة الأكيدة، وكان رقيق الطباع مليح الأوضاع لطيفًا مهذبًا، إذا لقيته لقيت من لطفه ما ينعش ويسر، ولم تزل كئوس فضله على الطلبة مجلوة حتى ورد موارد الموت ودعاه الله – تعالى – بجوار الجنان، وتلقاه جدثه بروح رحمة ورضوان، وذلك في حادي عشرين شعبان سنة 1208، وصلي عليه بالأزهر في مشهد حافل، ودفن بمدفن صهره الشيخ العريان، تغمده الله بالرحمة والرضوان، ومن تآليفه: شرح على نظم التنوير في إسقاط التدبير للشيخ الملوي، وحاشية على الملوي على السمرقندية وغير ذلك، وخلَّف أولاده الأربعة، كلهم فضلاء أذكياء نبلاء، أحدهم الذي تعين بالتدريس في محله بالأزهر العلامة اللوذعي والفهامة الألمعي شمس الدين السيد محمد، وأخوه النبيه الفاضل المتقن شهاب الدين السيد أحمد، وأخوه الذكي اللبيب والفهيم النجيب السيد عبد الرحمن، والنبيه الصالح والمفرد الناجح السيد مصطفى. تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 164).

محمد المصيلحي[1] وآخرون، وذهبوا إلى بيت «إبراهيم بك» وتكلموا معه بحضرة «سليمان بك» كلامًا كثيرًا مفحمًا. فاحتج «سليمان بك» بأن ذلك متاع (أولاد وافي) وأنا أخذته بقيمته من أصل مالي عندهم..

(1) هو: الشيخ الإمام العلامة المتفنن المتقن المعمر الضرير الشيخ: محمد المصيلحي الشافعي، أجد العلماء، أخذ عن شيوخ الوقت، وأدرك الشيخ محمد شنن المالكي وأخذ عنه، وأجازه الشيخ مصطفى العزيزي والشيخ عبد ربه الديوي والشيخ أحمد الملوي والحفني والدفري والشيخ علي قايتباي والشيخ حسن المدابغي، وناضل ودرّس وأفاد، وانتفع عليه الطلبة، ولما مات الشيخ أحمد الدمنهوري وانقرض أشياخ الطبقة الأولى نوه بذكره واشتهر صيته وحف به تلامذته وغيرهم، ونصبوه شبكة لصيدهم وآلة لاقتناصهم وأخذوه إلى بيوت الأمراء في حاجاتهم، وكان يرى أحقيته في الرياسة؛ لسنه وأقدميته، ولما مات الشيخ أحمد الدمنهوري وتقدم الشيخ أحمد العروسي في مشيخة الأزهر كان المترجَم غائبًا في الحج، فلما رجع وكان الأمر قد تم للعروسي أخذته حمية المعاصرة، وأكثرها من إغراء من حوله، فيحركونه للمناقضة والمناكدة، حتى إنه تعدى على تدريس الصلاحية بجوار مقام الإمام الشافعي - المشروطة لشيخ الأزهر بعد صلاة الجمعة - فلم ينازعه الشيخ أحمد العروسي وتركها له؛ حسمًا للشر وخوفًا من ثوران الفتن، والتزم له الإغضاء والمسامحة في غالب الأطوار، ولم يُظهر الالتفات لما يعانونه أصلًا حتى غلب عليهم بحلمه وحسن مسايرته، حتى إنه لما توفي المترجَم ورجع إليه تدريس الصلاحية لم يباشر التصدر في الوظيفة؛ بل قرر فيها تلميذه العلامة الشيخ مصطفى الصاوي وأجلسه وحضر افتتاحه فيها، وذلك من حسن الرأي وجودة السياسة. توفي الشيخ محمد المصيلحي ثاني عشر شوال من سنة 1201هـ، وصلي عليه بالأزهر في مشهد حافل، ودفن بالمجاورين. تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 35).

فقالوا: هذا لم يكن لهم وإنما هؤلاء رُبَّابُه[1] ناس فقراء، فإن كان لك عند أولاد وافي شيء فخذه منهم، فرد بعضه وذهب بعضه[2]».

وذكر في حوادث نفس السنة واقعة أخرى تظهر جرأة الشيخ في التصدي لمظالم الحكام، وذلك أنه «اجتمع الناس بطندتا[3] لعمل مولد سيدى أحمد البدوى المعتاد المعروف بمولد الشرنبابلية، وحضر كاشف الغربية والمنوفية على جاري العادة وكاشف الغربية من طرف «إبراهيم بك» الوالي -المولى أمير الحاج- فحصل منه عسف[4] وجعل على كل جمل يباع في سوق المولد نصف ريال فرانسة فأغار أعوان الكاشف على بعض الأشراف وأخذوا جمالهم - وكان ذلك في آخر أيام المولد - فذهبوا إلى الشيخ الدردير - وكان هناك بقصد الزيارة - وشكوا إليه ما حل بهم؛ فأمر الشيخ بعض أتباعه بالذهاب إليه فامتنع الجماعة من مخاطبة ذلك الكاشف فركب الشيخ بنفسه وتبعه جماعة كثيرة من العامة. فلما وصل إلى خيمة كتخدا الكاشف دعاه فحضر إليه والشيخ راكب على بغلته فكلمه ووبخه وقال له: (أنتم ما تخافون من الله!).

ففي أثناء كلام الشيخ لكتخدا الكاشف هجم على الكتخدا رجل من عامة الناس وضربه بنبوت فلما عاين خدامه ضرب سيدهم

(1) أي: أصحابه.

(2) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (1/ 610).

(3) يعني مدينة (طنطا).

(4) أي: ظلم.

هجموا على العامة بنبابيتهم وعصيهم وقبضوا على السيد أحمد الصافي - تابع الشيخ[1]- وضربوه عدة نبابيت. وهاجت الناس على بعضهم ووقع النهب في الخيم وفي البلد ونهبت عدة دكاكين وأسرع الشيخ في الرجوع إلى محله، وراق الحال بعد ذلك وركب كاشف المنوفية -وهو من جماعة إبراهيم بك الكبير- وحضر إلى كاشف الغربية وأخذه وحضر به إلى الشيخ، وأخذوا بخاطره وصالحوه ونادوا بالأمان. وانفض المولد، ورجع الناس إلى أوطانهم، وكذلك الشيخ الدردير، فلما استقر بمنزله حضر إليه إبراهيم بك الوالي وأخذ بخاطره أيضًا، وكذلك إبراهيم بك الكبير وكتخدا الجاويشية[2].»

النموذج الثالث- السيد عمر مكرم:

لعل التصعيد الشعبي التلقائي للسيد عمر مكرم - في الحقبة التي شهدت قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر- من خير الأمثلة على أثر المعيار الموضوعي في التصعيد الجماهيري لقيادات المقاومة الحضارية، فالسيد عمر مكرم اشتهر بتوليه نقابة الأشراف، وتولى نظارة بعض الأوقاف، لكنه كان معدودًا في جملة المشايخ، ومع هذا فقد كان عاديًّا في مستواه العلمي، ولم يعرف له تفوق على أقرانه في المستوى العلمي، بل لم يشتهر بالتدريس والتصنيف، ومواهبه الشخصية كانت جيدة لكنها لم تكن فائقة إذا ما قيست بأنماط القادة التاريخيين العظماء

(1) أي: تابع الشيخ الدردير.
(2) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (1/ 612).

الذين غيروا مجرى التاريخ، ومع هذا فقد اجتمعت عليه قلوب العامة في مصر، وأسلمت إليه زمامها، وتقدم - في القيادة والقدرة على تحريك الجماهير- على من يفوقه علمًا وسنًّا من المشايخ، وصار هو أبرز شخصية في دائرة أهل الحل والعقد إلى أن انقلب عليه (محمد علي) بمعاونة من حقد عليه من المشايخ.

إذن؛ فما هو المعيار الذي رجح تصعيد السيد عمر مكرم؟

الإجابة هي ما ذكره المشايخ في قولهم: «الأمير إنما يصير أميرًا بالإعطاء لا بالأخذ»، فهذه كلمة السر في تفسير الصعود -الملفت للنظر- في حالة الشيخ عمر مكرم، فالسيد عمر مكرم كان شخصية صاحبة عطاء متشعب الجوانب؛ حيث بذل نفسه لخدمة دينه وأمته وآحاد الجماهير دون أن ينتظر المقابل؛ فاجتمعت عليه قلوب الناس، وجعلوه محلًّا لثقتهم، وأمينًا على تقرير مصيرهم في أوقات النكبات الكبرى التي نزلت بالأمة في عصر السيد عمر مكرم.

ومن أهم مظاهر العطاء في مسيرة السيد عمر مكرم: مواقف المقاومة الحضارية لمظالم الحكام المسلمين وجرائم المحتلين الكافرين.

وقد لخص الجبرتي جوانب العطاء -التي صعد بها السيد عمر مكرم إلى أرفع المنازل- فقال في بيان حزن العامة والخاصة على رحيل السيد عمر مكرم منفيًّا إلى دمياط: «واستهل شهر رجب بيوم الأحد سنة 1224.. فيه اجتمع الموعدون للسيد عمر... وشيعه الكثير

من المتعممين وغيرهم، وهم يتباكون حوله حزنًا على فراقه، وكذلك اغتم الناس على سفره وخروجه من مصر؛ لأنه كان ركنًا وملجأً ومقصدًا للناس، ولتعصبه على نصرة الحق».

وقال في التأسف على حال المشايخ الذين وافقوا (محمد علي) على عزل السيد عمر مكرم من نقابة الأشراف ونفيه إلى دمياط: «والحامل لهم على ذلك كله: الحظوظ النفسانية والحسد، مع أن السيد عمر كان ظلًّا ظليلًا عليهم وعلى أهل البلدة، ويدافع ويرافع عنهم وعن غيرهم، ولم تقم بعد خروجه من مصر راية، ولم يزالوا بعده في انحطاط وانخفاض[1]».

إذن؛ فالسيد عمر مكرم، لم يكن رجل مواهب بقدر ما كان رجل مواقف خالدة هي التي أهلته للتصعيد القيادي.

ومن هذا القبيل «الشيخ سليمان الجوسقي» شيخ طائفة العميان، والذي أعدمه «نابليون» عقابًا له على دوره القيادي في ثورة القاهرة الأولى، فالشيخ الجوسقي كان شيخًا لطائفة العميان، وقد أحسن تنظيم العميان، وتفانى في خدمتهم ورعايتهم واستخلاص حقوقهم، وتفنن في وسائل توفير الموارد لكفايتهم حتى صار للعميان في عهده صولة بحيث يُخشى منهم، ولم يقتصر عطاء الشيخ على طائفة العميان، بل كان يقرض أكابر البلاد الأموال الكثيرة.

---

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (3/ 275).

قال الجبرتي في وفيات سنة 1213هـ: «ومات العمدة الشهير الشيخ سليمان الجوسقي شيخ طائفة العميان بزاويتهم المعروفة الآن بالشنواني، تولى شيخًا على العميان المذكورين بعد وفاة الشيخ الشبراوي وسار فيهم بشهامة وصرامة وجبروت، وجمع بجاههم أموالًا عظيمة وعقارات، فكان يشتري غلال المستحقين المعطلة بالأبعاد بدون الطفيف ويخرج كشوفاتها وتحاويلها على الملتزمين ويطالبهم بها كيلًا وعينًا، ومن عصى عليه؛ أرسل إليه الجيوش الكثيرة من العميان فلا يجد بدًّا من الدفع، وإن كانت غلاله معطلة؛ صالَحَهُ بما أحب من الثمن، وله أعوان يرسلهم إلى الملتزمين بالجهة القبلية يأتون إليه بالسفن المشحونة بالغلال والمعاوضات من السمن والعسل والسكر والزيت وغير ذلك ويبيعها في سني الغلوات بالسواحل والرقع بأقصى القيمة ويطحن منها على طواحينه دقيقًا ويبيع خلاصته في البطط بحارة اليهود ويعجن نخالته خبزًا لفقراء العميان يتقوتون به... ولما انقضت تلك السنون وأهلها صار المترجم من أعيان الصدور المشار إليهم في المجالس، تُخشى سطوته وتسمع كلمته، ويقال: قال الشيخ كذا وأمر الشيخ بكذا وصار يلبس الملابس والفراوي ويركب البغال، وأتباعُه محدقة به، وتزوج الكثير من النساء الغنيات الجميلات واشترى السراري البيض والحبش والسود، وكان يُقرِض الأكابر المقادير الكثيرة من المال؛ ليكون له عليهم الفضل والمنة، ولم يزل حتى حمله التفاخر في زمن الفرنسيس على توليه كبر إثارة الفتنة التي أصابته وغيره وقتل فيمن قتل بالقلعة[1]».

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 279).

ويظهر من هذا النص أن «الشيخ الجوسقي» كان اقتصاديًّا بارعًا في تدبير أمور طائفته، وأحسن استخلاص حقوقهم بشتى الطرق.

المعيار الذاتي:

يظهر المعيار الذاتي بجلاء عند التأمل في سيرة بعض المشايخ القادة الذين أعدمهم «نابليون» من أعضاء مجلس قيادة ثورة القاهرة الأولى.

فالصفة المشتركة فيهم جميعًا هي (الجماهيرية) بكل ما يحيط بهذه الصفة من مواهب وصفات مكتسبة وغوغائية في بعض الأحيان، المهم أنهم كانوا طرازًا خاصًّا من المشايخ يستطيعون مخاطبة الجماهير وتحريكها وتنظيمها[1].

قال الجبرتي في ترجمة أحد المشايخ الذين أعدمهم نابليون: «ومات العلامة الفاضل الفقيه الشيخ أحمد بن إبراهيم الشرقاوي الشافعي الأزهري... يأتي إليه الفلاحون - من جيزة بلادهم - بقضاياهم وخصوماتهم وأنكحتهم، فيقضي بينهم ويكتب لهم الفتاوى في الدعاوى التي يحتاجون فيها إلى المرافعة عند القاضي، وربما زجر المعاند منهم وضربه وشتمه، ويستمعون لقوله ويمتثلون لأحكامه، وربما أتوه بهدايا ودراهم، واشتهر ذكره، وكان جسيمًا عظيم اللحية فصيح اللسان، ولم يزل على حالته حتى اتهم في فتنة الفرنسيس المتقدمة ومات مع من قتل بيد الفرنساوية بالقلعة ولم يعلم له قبر[2]».

---

(1) ينظر: محمد جلال كشك، ودخلت الخيل الأزهر، ص: 223.

(2) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 277).

ولعل هذا المنحى في تصعيد القيادات الشعبية هو الذي أثمر تصعيد سيف الدين قطز لإمارة مصر بعد مقتل شجرة الدر وكبار قادة المماليك إبان اجتياح التتار العالم الإسلامي واقترابهم من مصر.

وهو نفس المعيار الذي على أساسه تم تصعيد محمد علي للقيادة بعد عزل «خورشيد باشا» على إثر ثورة شعبية تزعمها السيد عمر مكرم سنة 1805هـ.

فمحمد علي كان قائد قوة ألبانية تابعة للسلطان العثماني، وهذه القوة كانت كيانًا دخيلًا ولم تكن جزءًا من الشعب المصري، ومن ثم فلم تعرف لمحمد علي إسهامات كبيرة - في خدمة المجتمع المصري - بحيث تكسبه شهرة واسعة النطاق وترجح تصعيده للقيادة، وإنما ترجح تصعيده بسبب كونه رجلًا ذكيًّا واسع المواهب، وقد مارس اللعبة بذكاء حين أخذ يتقرب إلى السيد عمر مكرم وكبار المشايخ، ويظهر لهم الاحترام والإكبار واحترام الشرع الشريف، فاستطاع أن يلفت نظر السيد عمر والمشايخ لمواهبه الذاتية الواسعة، وأن يكسب ثقتهم في شخصه؛ بما أظهره من حب العلم والعلماء واحترام الشرع الحنيف.

ثالثًا: سمات المقاومة الجماهيرية (الشعبية):

تتسم هبّات العامة في المقاومة بالصدق والاندفاع في نصرة الحق - بتفانٍ - دون مبالاة بعواقب هذا الاندفاع.

بل إن العامة أظهروا من الحرص على التضحية ما أحرج القيادات في غير مناسبة من مناسبات المقاومة والجهاد، وذلك كما ظهر في ثورة القاهرة الثانية؛ حيث اعتبر العامة محاولات الصلح مع ساري عسكر الفرنسيين؛ خيانة، وحملهم هذا على الإساءة للمشايخ الذين عرضوا الصلح، ثم اندفع العامة في المقاومة مظهرين استبسالًا يعز نظيره، غير مبالين بما يحل بهم من أصناف التنكيل والأذى جراء صمودهم، وكان هذا الاستبسال في المقاومة من أسباب امتداد شعلة الثورة لأكثر من شهر[1].

والعجيب أن فلول المماليك الذين فروا من (كليبر) إلى داخل القاهرة تحولوا إلى عبء على الثورة وعنصر تخاذل يسعى طيلة الوقت للتسليم والمفاوضة، أو يقوم بأعمال التخريب، ولكن مساعيهم فشلت تحت ضغط الشعب الثائر[2].

غير أن بعض المماليك أبت نفوسهم الكريمة أن تتلطخ بعار الخيانة أو خطيئة الاستكانة؛ فانحازوا إلى الثورة وأبلوا بلاءً حسنًا في ميدان المقاومة، ومن هؤلاء: (حسن بك الجداوي) الذي أظهر بطولات عظيمة.

وحسن بك الجداوي كان من مماليك علي بك الكبير، وولاه إمارة جدة[3]، ولهذا لقب بالجداوي، وكان شجاعًا مقدامًا يُضرب به

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 337).

(2) ودخلت الخيل الأزهر ص 276.

(3) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (1/ 398).

المثل في ذلك[1]، وكان من رموز الجهاد والمقاومة في عهد الحملة الفرنسية، ورفض عرضًا من الفرنسيين بأن يكون في أمان من ناحيتهم ويقرونه على ما تحت يده من البلاد بشرط أن يكف عن مقاتلتهم، لكنه رفض هذا العرض المغري، وأصر على الجهاد والمقاومة؛ فقام الفرنسيون بالتضييق على نسائه[2].

وكان حسن الجداوي يمتاز بالتحرك الواسع في أنحاء القطر المصري ليحض الناس على الجهاد، وينحاز إلى المجاهدين لنصرتهم على قدر استطاعته.

قال الجبرتي: «وحسن بك الجداوي تترس بناحية الرويعي، وربما فارق متراسَه في بعض الليالي؛ لنصرة جهة أخرى[3]».

وقال: «وفي كل ساعة تهجم العساكر الفرنساوية على جهة من الجهات ويحاربون الذين بها ويملكون منهم بعض المتاريس فيصيحون على بعضهم بالمناداة يتسامع الناس ويصرخون على بعضهم البعض ويقولون: (عليكم بالجهة الفلانية، الحقوا إخوانكم المسلمين) فيرمحون إلى تلك الخطة والمتاريس حتى يجلوهم عنها وينتقلون إلى

(1) يقول الجبرتي في ترجمة الأمير سليم الكاشف: «وكان المذكور ذا بأس وشدة وإقدام وشجاعة وتهور، مشابهًا لحسن بك الجداوي في هذه الفعال» تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 459).

(2) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 291).

(3) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 327).

غيرها فيفعلون كذلك، وكان المتحمل لغالب هذه المدافعات حسن بك الجداوي؛ فإنه كان عندما يبلغه زحف الفرنساوية على جهة من الجهات؛ يبادر هو ومن معه للذهاب لنصرة تلك الجهة، ورأى الناس من إقدامه وشجاعته وصبره على مجالدة العدو - ليلًا ونهارًا - ما ينبئ عن فضل نفس وقوة قلب وسمو همة، وقَلَّ أن وقع حرب في جهة من الجهات إلا وهو مدير رحاها ورئيس كماتها، هذا والآغا والوالي يكرران المناداة، وكذلك المشايخ والفقهاء والسيد أحمد المحروقي والسيد عمر النقيب[1] يمرون كل وقت ويأمرون الناس بالقتال ويحرضونهم على الجهاد وكذلك بعض العثمانية[2]».

حراك العامة وحراك النخبة:

من الملاحظات العجيبة: أن الحراك الذي تنظمه العامة وقياداتها الشعبية عادة ما يكون أنجح من حراك الجيوش المنهارة تبعًا لانهيار القيادة الرسمية في أوقات الاجتياحات، وقد ظهر هذا في غير واقعة من وقائع تاريخنا، منها نجاح المقاومة الشعبية المسلحة في مدينة السويس بعد انهيار القوات النظامية بفعل ثغرة الدفرسوار، ومنها ما نحن بصدده من نجاح عامة الشعب في الصمود المتكرر أمام قوات الحملة الفرنسية - بعد انهيار القيادة الرسمية - وتكبيدها خسائر فادحة، ورفع ضريبة بقائها في مصر، الأمر الذي أسهم في إقناع القوات

(1) يعني: عمر مكرم؛ لأنه كان نقيبًا للأشراف.

(2) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 334).

الفرنسية بعدم جدوى البقاء في مصر، مما حملهم على قبول الاتفاق على الجلاء.

يقول الرافعي في وصف جبن المماليك أثناء مجزرة أبنود: «لبثوا يشاهدون هذه المجزرة بعيدًا... ذلك كان شأنهم في كل المعارك التي اشتد فيها القتال، فكانوا يضنون بأرواحهم ويعرضون الأهالي فداء وضحية».

بينما استبسل الأهالي في الدفاع عن مدينتهم وكبدوا الفرنسيين خسائر فادحة[1].

يقول المسيو مارتان: «لم يترك الأهالي وسيلة لمقاومة السلطة الفرنسية إلا واتبعوها، وقد ذهب كثير من الفرنسيين ضحية لهذه المقاومة[2]».

ويشهد (هيرولد) للعامة المصريين بأنهم بذلوا أقصى جهدهم في حدود المقاومة المسموح لهم بها في ظل احتكار[3] المماليك لمهنة السلاح[4].

---

(1) ودخلت الخيل الأزهر ص 195.

(2) ودخلت الخيل الأزهر ص 171.

(3) إذن؛ فالتاريخ يثبت أن حق الدولة في احتكار حمل السلاح يقابله واجب الكفاءة في تأمين الوطن والمواطن ضد الأخطار الداخلية والخارجية، وإلا عُدَّ نزع السلاح من المواطن مع ضعف المنظومة الأمنية؛ ضربًا من ضروب العبث والتلاعب بأمن الناس.

(4) ودخلت الخيل الأزهر ص 147.

«وقد اتخذ المصريون شعارهم ذلك المبدأ المشهور الذي أعلنته فرنسا، وهو أن مقاومة الاضطهاد هي أقدس واجبات الشعب[1]».

هل المقاومة الشعبية فوضوية؟

لا يمكن لعاقل أن ينفي أهمية المقاومة الجماهيرية في صد الهجمات، وحفظ كيان الأمة، لكن قد يؤخذ على المقاومة الجماهيرية أنها مقاومة غير منظمة، تفتقر إلى التخطيط الإستيراتيجي، ويختل لديها ميزان الأولويات، وتندفع في حركات عفوية فوضوية غير محددة الأهداف بدقة، ولا تحكمها قيادة تضبط لها المسار على نحو يكفل لها النجاح في تحقيق الأهداف، ويستشهد منتقدو المسلك الثوري للمقاومة الشعبية بوقائع تاريخية حصلت فيها أعمال عدوانية في إطار المقاومة الشعبية، وكانت هذه التهمة من نصيب الثورات الشعبية ضد الحملة الفرنسية.

وكان للجبرتي استياء من غوغائية الثورة ضد الفرنسيين، وانتقادات لاذعة للاعتداءات التي صاحبت أعمال الثورة والمقاومة، ومن ذلك أنه قال عن ثورة القاهرة الأولى وما تقدمها من فرض الضرائب الباهظة: «وفي يوم السبت عاشر جمادى الأولى عملوا الديوان وأحضروا قائمة مقررات الأملاك والعقار فجعلوا على الأعلى ثمانية فرانسة والأوسط ستة والأدنى ثلاثة وما كان أجرته أقل من ريال في الشهر فهو معافى وأما الوكائل والخانات والحمامات والمَعاصر... والحوانيت فمنها ما جعلوا عليه ثلاثين وأربعين... وكتبوا بذلك مناشير على عادتهم... ولما أشيع

(1) ودخلت الخيل الأزهر ص 171.

ذلك في الناس كثر لغطهم واستعظموا ذلك والبعض استسلم للقضاء، فانتبذ جماعة من العامة وتناجوا في ذلك ووافقهم على ذلك بعض المتعممين الذي لم ينظر في عواقب الأمور، ولم يتفكر أنه في القبضة مأسور، فتجمع الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم وأصبحوا يوم الأحد متحزبين وعلى الجهاد عازمين وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح وآلات الحرب... وحضر السيد بدر وصَحِبَتْهُ حشرات الحسينية وزعر الحارات البرانية ولهم صياح عظيم وهول جسيم، ويقولون بصياح في الكلام: (نصر الله دين الإسلام) فذهبوا إلى بيت قاضي العسكر وتجمعوا، وتبعهم ممن على شاكلتهم نحو الألف والأكثر، فخاف القاضي العاقبة وأغلق أبوابه وأوقف حُجَّابه، فرجموه بالحجارة والطوب، وطلب الهرب فلم يمكنه الهروب...».

وقال في وصف ما جرى على الناس في ثورة القاهرة الثانية: «وجرى على الناس ما لا يسطر في كتاب، ولم يكن لأحد في حساب، ولا يمكن الوقوف على كلياته فضلًا عن جزئياته، منها عدم النوم ليلًا ونهارًا وعدم الطمأنينة وغلو الأقوات وفقد الكثير منها... وتوقع الهلاك كل لحظة والتكليف بما لا يطاق ومغالبة الجهلاء على العقلاء وتطاول السفهاء على الرؤساء وتهور العامة ولغط الحرافيش».

وممن انتقدهم الجبرتي وشنع عليهم: الرجل المغربي الذي كان يحرض العامة على الثورة وعدم قبول الصلح في ثورة القاهرة الثانية، وسيأتي تحقيق تاريخي عن حقيقة هذا الرجل واتهامات الجبرتي له.

فيظهر من مسلك الجبرتي في وصف أعمال الثورة والمقاومة أنه يرى فيها بعض التهور[1] والغوغائية وعدم التبصر بالعواقب، وانسياق العامة بلا قائد يقودهم ولا رئيس يسوسهم، لكن الجبرتي لم يكن ضد مقاومة المحتل من حيث المبدأ[2]، وإنما كان ينتقد الاندفاع العشوائي غير المنظم؛ ومن ثم فلا يصح الاستناد إلى كلام الجبرتي لسحب الحكم بالفوضوية على أعمال الثورة والمقاومة.

وحتى لو سلمنا بوصف الفوضوية، فهل كان ثمة خيار آخر (متحضر) أمام الجماهير التي سقطت بلادها في يد المحتل الكافر، وسقطت قيادتها السياسية، وانهارت قواتها العسكرية، ووجدت نفسها فجأة في مواجهة الطوفان بلا حامٍ يحميها؟!

وهل كانت هذه الجماهير تملك أن تمتنع عن إيقاد شعلة الثورة والمقاومة؛ خوفًا من الفوضوية ووقوع بعض التجاوزات؟

وعلى فرض أن الثورة والمقاومة تمكنت من تنظيم نفسها تحت قيادة واعية - تحسن التبصر بعواقب الأمور- فهل كانت هذه القيادة تملك أن تضبط الأمور وتمنع التجاوزات؟

وهل في التاريخ جهاد أو ثورة أو مقاومة بلا تجاوزات؟

---

(1) وتقدم بيان أن الجبرتي كان متحفظًا على المسلك الثوري - بوجه عام - نظرًا لفداحة الخسائر البشرية والمادية المترتبة عليه.

(2) بدليل إطلاق وصف الشهداء على المشايخ الذين قادوا ثورات المصريين ضد القوات الفرنسية وأعدمهم الفرنسيون.

على أن الجبرتي يمكن أن يُناقَش في مسألة اندفاع الثورة بلا قيادة؛ لأن أعمال الثورة والمقاومة كانت تستند إلى تنظيم سري تشكل بعد استيلاء الفرنسيين على القاهرة، وقد تحدثنا بالتفصيل عن هذا التنظيم بما يغني عن التكرار.

إذن؛ فتعميم الحكم بالفوضوية على أعمال المقاومة أمر يجافي مسلك الإنصاف؛ لأن المقاومة - في المحصلة النهائية - عمل بشري غير معصوم، وهذا العمل يجري في ظروف خاصة تزيغ فيها الأبصار وتبلغ القلوب الحناجر، ويضيق الخناق على المقاومين، ويظهر أعضاء الطابور الخامس على حقيقتهم من خلال التعاون مع المحتل، وفي ظل هذه الظروف العصيبة لا بد أن تقع أعمال انتقامية، لكنها لا تمثل جوهر المقاومة الحضارية، وإنما هي أمر عرضي يمثل حالة استثنائية، والاستثناء لا يتوسع فيه ولا يقاس عليه كما تنص القاعدة الأصولية.

إذن؛ فهذه الاعتداءات العارضة لا تمس جوهر المقاومة الشعبية ولا تنفي عنها صفة الحضارية.

رابعًا: اتساع نطاق المقاومة الجماهيرية في أوقات السقوط:

في أوقات الهجمات الكبرى التي تزلزل الأمة يتسع ميدان المقاومة ليشمل القاعدة الشعبية العريضة التي يتأسس عليها بنيان الأمة.

فمثلًا كان الرفض المصري للوجود الفرنسي يشكل حركة

وطنية عامة تشمل الأمة بكل طوائفها وطبقاتها؛ فالزعر[1] والحرافيش والغوغاء يقاتلون في شوارع القاهرة بكل بسالة..

والفلاحون يشنون أول حرب فلاحين في تاريخ الشرق، حتى إن المؤرخ الصهيوني (ناداف صافران) يقر بأن مصر شهدت ثورة فلاحين في سنة 1800م ضد المحتل الفرنسي[2].

أما المساتير والأغنياء فلم يكونوا أقل استعدادًا للبذل.

يقول المسيو (ريبو) - أحد كتاب الحملة الفرنسية -: «كان الجنود يعملون على إخماد الثورة بإطلاق النار على الفلاحين، لكن الثورة كانت كحية ذات مئة رأس: كلما أخمدها السيف والنار في ناحية ظهرت في ناحية أخرى أقوى وأشد مما كانت، فكأنها كانت تعظم ويتسع مداها كلما ارتحلت من بلد إلى بلد آخر[3]».

وفي وصف المشاركة الشعبية الواسعة في ثورة القاهرة الثانية يقول الجبرتي: «وصار جميع أهل مصر إما بالأزقة ليلًا ونهارًا، وهو من لا يمكنه القتال، وإما بالأطراف وراء المتاريس، وهو من عنده إقدام وتمكن من الحرب، ولم ينم أحد ببيته سوى الضعيف والجبان والخائف و»ناصف باشا«[4] و»إبراهيم بك» وجماعاتهم، وأنشأ «عثمان كتخدا» معملاً

(1) الفتوات في الحارات الشعبية.

(2) ودخلت الخيل الأزهر ص 199.

(3) ودخلت الخيل الأزهر ص 171.

(4) من أتباع مراد بك.

للبارود... وأحضر القندفجية والعربجية والحدادين والسباكين لإنشاء مدافع وبنبات وإصلاح المدافع التي وجدوها في بعض البيوت وعمل العجل والعربات... وغير ذلك من المهمات الجزئية... وجمعوا إلى ذلك الحدادين والنجارين والسباكين وأرباب الصنائع الذين يعرفون ذلك[1]... فكانوا كلما أدخلوا مدفعًا أدخلوه بجمع عظيم من الأوباش والحرافيش والأطفال، ولهم صياح ونباح وتجاوب بكلمات؛ مثل قولهم: (الله ينصر السلطان، ويهلك فرط الرمان[2]) وغير ذلك[3]».

ويحدثنا التاريخ أن ميدان المقاومة اتسع ليضم حتى الفئاتِ التي طالما دأبت على الفوضوية وقلة الاكتراث بالنظام الاجتماعي السائد،

---

(1) ويرى الأستاذ محمد جلال كشك أن هذه الأعمال المبهرة كانت نواة يمكن البناء عليها لإحداث ثورة صناعية.
وعلى كلٍّ فالضرورة التاريخية عادة ما تسفر عن قدرة العقل المصري على الإبداع وتحقيق الاكتفاء الذاتي في شتى الميادين متى وجدت الإرادة لذلك، لكن المشكلة في غياب القرار الحاسم الإيجابي، وترك الأمور للصدفة وردود الأفعال.
كما تثبت الضرورة التاريخية حقيقة أخرى مهمة بهذا الصدد هي: أن الاستقلال الصناعي عادة ما يكون مصاحبًا لحركة الأمة في الاستقلال السياسي والعسكري، والعكس بالعكس، ولعل هذا يفسر لنا كيف أن النهضة الصناعية لم تتحقق في الأمة حتى الآن!

(2) لقب أطلقه المصريون على (برطلمين) الرومي أحد أعوان الحملة الفرنسية، وكان من نصارى الروم الذين يعيشون بمصر وقت دخول الحملة.

(3) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 326).

فقد كان للعُربان - مثلًا - دور مهم في مقاومة الحملة الفرنسية، وملاحقة جنودها في عدة جبهات، حتى تمكنوا من أسر بعضهم.

ونظرًا للخطر الذي كان يشكله العُربان على جنود الحملة؛ قُدم اقتراحٌ بتخصيص سلاح الهجانة -الذي أنشأه قائد الجيش الفرنسي في مصر- لمقاومة تلك القبائل التي تهدد أمنهم.

وقام الفرنسيون بقتل بعض مشايخ العربان، مثل «الشيخ الشواربي» شيخ قليوب، وثلاثة من مشايخ العربان في الشرقية؛ بحجة أنهم اطلعوا على مكاتبات لهم فيها تحريض على الحملة، كما أنهم وجدوا كثيرًا من الأسلحة والأمتعة التي نهبت منهم (من الفرنسيين) لدى عربان (العبابدة)، وقتل هؤلاء العربان بطرق بشعة.

وبلغ من كراهية بونابرت للعربان وموقفهم من الحملة أنه أذاع في منشور عقب عودته من الشام: أن من أسباب عودته رغبتَه في تأديب العربان من قبائل (بلى) و(العبابدة) وغيرهم الذين يناصرون المماليك ويحركون الفتن في البلاد في غيابه، ويعيثون في البلاد فسادًا ونهبًا[1].

ويقول الرافعي: «والواقع أن من يتتبع سلسلة المقاومات التي لقيها الجيش الفرنسي من المصريين؛ يعجب من شدة مقاومة الأمة -وقتئذ- للاحتلال الفرنسي، واستمرار هذه المقاومة، وانفساح مداها في أنحاء القطر

---

(1) د. إيمان محمد عبد المنعم عامر، العُربان ودورهم في المجتمع المصري في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ص 30، الهيئة العامة للكتاب، فرع الصحافة 1997.

المصري، حتى كأن ثورة عامة قد اندلعت في وجه الفرنسيين... ولو قلبت صحائف الحركة القومية المصرية - في خلال المئة سنة الأخيرة - لما وجدت لهذه المقاومة شبهًا سوى الحركة العامة التي ظهرت سنة 1919م»[1].

ولكن الرافعي لم يقدم تفسيرًا لهذه الظاهرة العجيبة، وهي قوة واتساع المقاومة المصرية للحملة الفرنسية، ثم اختفاء هذه الروح مئة عام؛ حيث لم يواجه الإنجليز مثل هذه المقاومة بعد الاحتلال!

إن (محمد عبده) يفسر هذه الظاهرة بنسبة ذلك إلى استبداد محمد علي، وقتله - هو وأولاده - لروح الأمة.

لقد وضع محمد علي مصر في حالة القابلية للاستعمار من خلال عملية التغريب التي نجح فيها واستحق ثناء المدرسة الاستعمارية في كتابة التاريخ.

والفرق بين الرافعي والمدرسة الاستعمارية: أن الرافعي يريد أن يأكل الحلوى ويحتفظ بها، فهو يريد التغريب ويريد بقاء الروح الوطنية، بينما المدرسة الاستعمارية سرورها مضاعف؛ لأن التغريب يتم والروح الوطنية المقاومة للوجود الغربي تضعف في نفس الوقت.

كانت مصر لا تزال بكرًا لم تلوثها أمراض التحديث الكاذب؛ لذا هب الشعب المصري في أروع مقاومة عرفها تاريخ القرن التاسع عشر للغزو الاستعماري الغربي[2].

---

(1) ودخلت الخيل الأزهر ص 173.

(2) ودخلت الخيل الأزهر ص 174.

وكانت الأمة على حق عندما رأت أن فرصتها الوحيدة في دخول عصر الحضارة الحديثة كانت تبدأ بنجاح هذا البلد في منع استقرار حضارة المحتل في البلاد، فالبلد الشرقي الوحيد الذي حقق التحديث دون أن يفقد هويته هو[1] الذي نجا من الاحتلال الغربي، والبلاد التي لا زالت تبحث عن طريقها للحضارة والتصنيع والتحديث هي البلاد التي تحكَّم الغربُ في مصيرها في قرون الاستعمار: من الفلبين إلى مراكش[2].

المقاومة الحضارية الجماهيرية لعمليات التذويب الحضاري:

من أهم صور المقاومة الحضارية ما أظهره الحراك الجماهيري من عمليات المقاومة الشريفة لمحاولات التذويب الحضاري التي تعرضت لها الأمة في أوقات السقوط.

وقد حكى الجبرتي حكايات تثبت هذه المقاومة الشعبية لعمليات التذويب الحضاري، منها ما حكاه في حوادث شهر ربيع الأول سنة 1213، فقال: «وفيه طلب صاري عسكر بونابارته المشايخَ، فلما استقروا عنده نهض بونابارته من المجلس ورجع وبيده طيلسانات ملونة بثلاثة ألوان، كل طيلسان ثلاثة عروض: أبيض وأحمر وكحلي[3] فوضع منها واحدًا على كتف «الشيخ الشرقاوي»، فرمى به إلى الأرض[4]... وتغير

(1) يعني اليابان.

(2) ودخلت الخيل الأزهر ص 174.

(3) ألوان علم الثورة الفرنسية.

(4) وهذا السلوك الغاضب ينفي عن الشيخ الشرقاوي تهمة العمالة للمحتل بسبب

مزاجه... وانتقع لونه واحتد طبعه، فقال الترجمان: يا مشايخ، أنتم صرتم أحبابًا لصاري عسكر وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته؛ فإن تميزتم بذلك عظمتكم العساكر والناس وصار لكم منزلة في قلوبهم، فقالوا له: لكن قدْرنا يضيع عند الله وعند إخواننا من المسلمين، فاغتاظ لذلك (يعني بونابرت) وتكلم بلسانه، وبلغ عنه بعض المترجمين أنه قال عن الشيخ الشرقاوي: إنه لا يصلح للرياسة ونحو ذلك، فلاطفه بقية الجماعة واستعفوه من ذلك فقال: إن لم يكن ذلك فلازم من وضعكم الجوكار في صدروكم، وهي العلامة التي يقال لها: الوردة، فقالوا: أمهلونا حتى نتروى في ذلك واتفقوا على اثني عشر يومًا.

وفي ذلك الوقت حضر «الشيخ السادات» باستدعاء فصادفهم منصرفين، فلما استقر به الجلوس بشَّ له وضاحكه صاري عسكر ولاطفه في القول الذي يعربه الترجمان، وأهدى له خاتم الماس وكلفه الحضور في الغد عنده وأحضر له جوكار أوثقه بفراجته (أي: عباءته) فسكت وسايره وقام وانصرف، فلما خرج من عنده رفعه. على أن ذلك لا يخل بالدين (تعليق من الجبرتي).

مشاركته في الديوان، ويرجح أن مشاركته كانت نابعة من اجتهاد في تقدير المصلحة العامة، فترجح عنده أن المشاركة في الديوان هي أهون الشرين، ومما يؤكد هذا المعنى أن الشيخ الشرقاوي بقي محتفظًا بمكانته بعد جلاء الحملة الفرنسية، مما يدل على تفهم العامة لاجتهاد الشيخ في تقدير المصلحة العامة، بينما سلك العامة مسالك أخرى في التعامل مع بعض أعضاء الديوان الذين غلَّبوا مصالحهم الشخصية، ولم يحتفظوا بكرامتهم في التعامل مع المحتل، مثل خليل البكري.

وفي ذلك اليوم نادى... على الناس بوضع العلامات المذكورة المعروفة بالوردة، وهي إشارة الطاعة والمحبة؛ فأنف غالب الناس من وضعها... وبعضهم رأى أن ذلك لا يخل بالدين؛ إذ هو مكره، وربما ترتب على عدم الامتثال الضرر، فوضعها، ثم في عصر ذلك اليوم نادوا بإبطالها من العامة وألزموا بعض الأعيان ومن يريد الدخول عندهم -لحاجة من الحاجات- بوضعها، فكانوا يضعونها إذا حضروا عندهم ويرفعونها إذا انفصلوا عنهم وذلك أيامًا قليلة، وحصل ما يأتي ذكره فتركت[1]».

فهذا النص يبين مدى إدراك العامة والخاصة لخطورة قبول التميز بشارة المحتل على الدين والهوية، وأن من قبِل هذا التميز قبِله عن إكراه واضطرار، وبادر برفعها في أول فرصة.

فشارة الثورة الفرنسية حين تعبر البحر المتوسط وتستولي على بلادنا تفقد مضمونها التحرري الذي يكون له قيمة ما دامت في مهدها الأوربي[2]، أما عندنا فلم تكن هذه الشارة تعني إلا الاستعمار الأوربي للكيان المادي للأمة، والتذويب الحضاري للكيان المعنوي لأمتنا، والاستلاب الأجنبي لهويتنا.

ومن ثم فإلقاؤها على الأرض هو رفض للتبعية، ومقاومة للانتماء للمحتل، واعتزاز بالذات الحضارية[3].

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 203).

(2) ودخلت الخيل الأزهر ص 170.

(3) ودخلت الخيل الأزهر ص 170.

وكُتَّاب الحملة الفرنسية كانوا أصدق تعبيرًا عن شعور الشعب المصري وطبيعة العلاقة التي قامت بينه وبين المحتل؛ لأن تجميل التاريخ مرحلة تالية لتزويره...

قال الدكتور (ديجنت) -كبير أطباء الجيش الفرنسي- في مذكراته: «لقد تكلموا كثيرًا - حتى في أوربا - عن حفلات أول فنديميير (عيد الجمهورية الفرنسية) وتأثيرها في نفوس المصريين، على أن كاتب هذه المذكرات يؤكد أنها لم يكن لها أثر ما في سكان القاهرة»[1].

ومن هذا القبيل - في مقاومة التذويب الحضاري - سخرية العامة من النصب التذكاري الذي نصبه الفرنسيون بالقاهرة؛ ليكون رمزًا للثورة، لكن العامة في مصر لم تجد فيه إلا ما سجله نقولا الترك: «إن الفرنسيين كانوا يقولون: إن هذه شجرة الحرية، أما أهالي مصر فكانوا يقولون: إن هذه إشارة (الخازوق) الذي أدخلوه فينا، واستيلائهم على مملكتنا. واستمر هذا العمود نحو عشرة أشهر، وحينما رفعوه استبشرت أهل مصر وابتهجت بالفرح[2]».

وهذا النص يبين أن العامة كان لديهم من الوعي ما حصنهم من توهم أن الاحتلال الغربي يمكن أن يحرر الشعوب العربية والإسلامية، وأن (الكتلة الجماهيرية المقاوِمة) ربما كانت أوعى من بعض أفراد النخبة بحقيقة الأهداف الاستعمارية.

(1) ودخلت الخيل الأزهر ص 171.

(2) ودخلت الخيل الأزهر ص 358.

وفي فرح العامة واستبشارهم بزوال رمز المحتل علامةٌ على نجاح المقاومة الجماهيرية لمحاولات زعزعة الهوية وإضعاف الانتماء.

وعمليات الردع الشعبي للمتعاونين مع المحتل - المتقدم ذكرها - تنبع عادة من إدراك الجماهير لخطورة الثقة بالمحتل على الكيان المادي والمعنوي للأمة، وهذا الإدراك يتجسد في أشكال متنوعة كلها تصب في خانة المقاومة الحضارية للأمة، وهذا ما شهد به الأعداء للجماهير المصرية التي رفضت الذوبان الحضاري، وقاومت كل الإغراءات التي تعرضت لها من أجل قبول هذا الذوبان.

ومن صور هذه المقاومة: الفتك بالعناصر التي ارتبطت بعلاقات مشينة مع جنود الحملة الفرنسية، وقد أشرنا من قبل إلى تأديب العامة للشيخ خليل البكري، وإعدام ابنته زينب، وهناك مثال آخر وهو المرأة التي تسمى (هوى) وقد نالت مصير زينب البكرية هي وجارية لها، قال الجبرتي في حوادث ربيع الأول سنة 1216هـ: «وفي يوم الثلاثاء رابع عشرينه طُلبت ابنة الشيخ البكري - وكانت ممن تبرج مع الفرنسيس - وأحضروها ووالدها فسألوها عما كانت تفعله فقالت: (إني تبت من ذلك) فقالوا لوالدها: ما تقول أنت؟ فقال: أقول: (إني بريء منها)؛ فكسروا رقبتها. وكذلك المرأة التي تسمى «هوى» التي كانت تزوجت نقولا القبطان ثم أقامت بالقلعة وهربت بمتاعها... فلما دخلت المسلمون وحضر زوجها مع من حضر... أمنها وطمأنها وأقامت معه أيامًا، فاستاذن الوزير في قتلها

فأذنه، فخنقها في ذلك اليوم أيضًا ومعها جاريتها البيضاء أم ولده. وقتلوا أيضًا امرأتين من أشباههن[1]».

كم كانت هذه المقاومة رائعة وخالدة! لأنها كانت رفض أمة سليمة العقيدة نقية الجوهر لم يتم –بعد– تغريبها ولا تدجينها؛ ولأنها كانت بقيادة النخبة الشرعية للمجتمع.

ولقد كانت بذور البعث الحضاري المنشود موجودة في طيات هذه المقاومة، وفي صفحات هذا الرفض للوجود الحضاري. ففي ثورة القاهرة الأولى ولدت التنظيمات الوطنية، وفي الثانية أوشكنا أن ندخل عصر الانقلاب الصناعي عندما صنع أجدادنا المدفع والبارود[2].

وفي معارك دمنهور والصعيد ولدت الوحدة العربية عندما اختلطت دماء المجاهدين من الحجاز وتونس بدماء المجاهدين المصريين، وبلغت هذه الوحدة ذروتها بالبطل الشهيد «سليمان الحلبي» الذي جاء من حلب ليثأر لمصر من «كليبر» السفاح[3].

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 486).

(2) هذه الاستنتاجات مما يحمد للأستاذ محمد جلال كشك في معالجته لحدث الحملة الفرنسية وطريقة تعاطي حركة المقاومة معه. ونستفيد من كشف هذه الحقائق: أن القفزات العظيمة في حياة الأمم عادة ما تكون ناجمة عن التفاعل مع التحديات الكبرى، فهذه التحديات تمثل خطرًا – على الوجود والكينونة – يستقر في شعور الأمة، فيستنفر طاقات أبنائها المخلصين، فينفجر الحراك الشعبي ليثمر من الإنجازات ما لم يكن يخطر ببال المتفائلين أن يتحقق في هذا التوقيت لولا هذه التحديات.

(3) ودخلت الخيل الأزهر ص 27.

إن مقاومة الجماهير للرموز الحضارية للمحتل كانت وعيًا مبكرًا بخطورة التغريب الذي حاولت الحملة الفرنسية فرضه فرضًا على الأمة المصدومة.

وكلمة السر في عمليات المقاومة الجماهيرية للذوبان الحضاري هي: الإسلام.

فقد كان الإسلام هو السد الوطني الذي تتكسر عنده أمواج الغزو الغربي؛ لأن الإسلام هو الرفض الحضاري للغزو الغربي، وكان الإسلام يتمثل في الرفض الغريزي من جانب الجماهير للغزاة الأجانب الذين يهددون وجودنا الحضاري ومستقبلنا ومصالحنا ؛ لذلك كان على الغزوة الاستعمارية الغربية أن تفتت مقاومة أمتنا بتجريدها من الإسلام[1] إما بالإبادة المباشرة للمسلمين، وإما بالتبشير، وإما بالعلمنة والتغريب، وهما الحلقة الأحدث والأخطر في سلسلة الهجمات الاستعمارية على العالم الإسلامي.

ومنذ ريتشارد قلب الأسد إلى (هيرولد) لا بد أن تفسر مقاومة الغزو الغربي بأنها من فعل التعصب الديني،.. وليس يعيب الأمم أن تتعصب لدينها وهويتها وحضارتها[2]، المهم أن يكون هذا التعصب طاقة دافعة للمقاومة الحضارية والاستجابة للتحديات، فهو تعصب محمود – بل ومطلوب – طالما لم يكن سببًا في العدوان على المخالف في الدين.

(1) ودخلت الخيل الأزهر ص 18.

(2) ودخلت الخيل الأزهر ص 207.

الجنديات المجهولات في المقاومة الحضارية:

لا يفوتنا أن نبرز الأعمال البطولية التي قامت بها النسوة المناضلات في عمليات البعث الحضاري في قرون الانحدار، ولا أرى وصف الجنود المجهولين يصدق على أحد مثلما يصدق على الشهيدات والمجاهدات في وقت الحملة الفرنسية على مصر؛ حيث حفظت لنا سجلات التاريخ صفحات بيضاء سُطرت فيها - بأحرف من نور- بطولاتُ المصريات المجاهدات ضد جنود الحملة الفرنسية، ولقد تنوعت أشكال المقاومة والجهاد لتشمل كل ما يقوم به الرجال الذائدون عن حياضهم في مقاومة المحتل.

فنساء مصر الباسلات جدن بأنفسهن في عمليات القتال المباشر، وفي عمليات الإمداد للمقاتلين، ونلن مصير الرجال - من القتل والتنكيل بهن - جزاء بطولاتهن.

وقد بدأت مسيرة المرأة المصرية مع الجهاد والمقاومة منذ الساعات الأولى لدخول الحملة الفرنسية إلى الإسكندرية؛ حيث شاركت النساءُ الرجالَ في القتال لصد الفرنسيين عن احتلال الإسكندرية.

وتعددت بطولات المصريات في أعمال المقاومة بعد ذلك:

فعند جزيرة فيلة (أنس الوجود) قال الجنرال بليار: «حمل الأهالي أسلحتهم، وصاحوا صيحات القتال، ورأينا النساء ينشدن أناشيد الحرب والهيجاء، ويحثين التراب في وجوهنا[1]».

---

(1) ودخلت الخيل الأزهر ص 193.

وقال الكابتن (فيروس) حاكيًا ثورة أهالي (غمرين)[1] ضد الفرنسيين: «جاءنا المدد وتعاونت الكتيبتان على مهاجمة قرية غمرين فأخذناها عنوة بعد قتال ساعتين وقتلنا من الأعداء (الأهالي) من أربعمائة إلى خمسمائة بينهم عدد من النساء كن يهاجمن جنودنا بكل بسالة وإقدام[2]»

وهنا تبلغ الحماسة بالرافعي الذروة؛ فلا يملك إلا أن يعلق: «فانظر إلى هذا الوصف، وتأمل كيف كان النساء يشاركن الرجال في مقاتلة الفرنسيين ودفعهم، وهذا – لعمري – من أبلغ ما يذكر عن استبسال شعب في الدفاع عن كيانه، وأبلغ منه أن الشهادة به جاءت من عدو»[3].

وكان للمرأة المصرية مشاركة من نوع آخر في تنظيم أعمال المقاومة، وهي عضوية مجلس قيادة الثورة؛ من خلال المشاركة في عضوية الديوان الشعبي السري الذي انتخبه الشعب عقب استيلاء الحملة الفرنسية على القاهرة، وظهرت باكورة أعماله البطولية في ثورة القاهرة الأولى.

فيرى الأستاذ «محمد جلال كشك» أن عقوبات «نابليون» – التي انتقم بها من المسئولين عن تأجيج ثورة القاهرة الأولى– تدل على أن عضوية مجلس قيادة الثورة لم تكن مقصورة على الرجال[4].

(1) إحدى قرى مركز منوف بمحافظة المنوفية، وتعرف ببلد الخمسمائة شهيد.

(2) ودخلت الخيل الأزهر ص 187.

(3) ودخلت الخيل الأزهر ص 187 نقلًا عن الرافعي.

(4) ودخلت الخيل الأزهر ص 211.

قال المسيو (بوريين) – سكرتير «نابليون» الخاص – في مذكراته: «وكان كثير من النساء ممن نفذ فيهن أحكام الإعدام الليلية».

وقال الرافعي: «وقد أسرف الفرنسيون في القتل (بعد إخماد ثورة القاهرة الأولى) ولم تأخذهم رحمة حتى بالنساء، فقتلوا كثيرًا منهن، وهذا من أفظع ما سمع به من التنكيل وسفك الدماء».

ومن العجيب أن أصحاب المدرسة الاستعمارية في كتابة التاريخ أهملوا بطولات المصريات المسلمات العفيفات المجاهدات، وجعلوا الساقطات – اللاتي ارتبطن بعلاقات مشينة مع جنود الحملة الفرنسية – هن طليعة الثورة النسائية التحررية التي أحدثتها الحملة الفرنسية! [1].

وكأن تحرر المرأة في نظرهم المنكوس هو التحرر من الفضيلة، والقبول بابتذال المرأة نفسَها حتى تكون امرأة عصرية!

إن الطليعة الحقيقية للمرأة المصرية هن المصريات الباسلات اللاتي أعدمهن «نابليون» بالعشرات؛ لاشتراكهن في قيادة وتنظيم وتنفيذ ثورتي القاهرة، وهن الفلاحات المصريات الباسلات اللاتي اشتركن في قتال الجيش الفرنسي[2].

وهكذا نرى أن الدور (التحريري) الذي ينسبه مؤرخو المدرسة الاستعمارية إلى جيش الاحتلال الفرنسي – بالنسبة للمرأة المصرية – لم يكن يشمل كفاحها من أجل التحرر الوطني ولا حتى من أجل

(1) ينظر: محمد جلال كشك، ودخلت الخيل الأزهر، ص: 27، 226، 361.

(2) ودخلت الخيل الأزهر ص 27.

تخفيف الضرائب، بل هو لا يتعدى خصرها، وإلا لرحب الحكم الثوري (بانطلاق) المرأة من (عقالها) واشتراكها في الثورة.

وإذا فهمنا دوافع جيش الاحتلال والسلطة الحاكمة في إعدام النساء الثائرات؛ فأي عذر وأي منطق يخفي عار من يتصدون اليوم لتزوير تاريخ هذا الشعب؛ فيجعلون من مظاهرة تطالب بفتح الحمامات أو الخروج مع العسكر الفرنسيين - في ثياب خليعة وتهتك خلقي- بداية لحركة تحرير المرأة! ويُغفِلون - عن عمد - اشتراك المرأة المصرية في أعمال المقاومة في الريف المصري، واشتراكها في قيادة الثورة بالقاهرة على نحو دفعت معه حياتها ثمنًا لهذا الاشتراك؛ فأعدمت قيادة الثائرات بحد السناكي في القلعة أو أغرقن في النيل !

أين يمكن أن يبحث المؤرخ الشريف عن قيادة الحركة النسائية وطلائع تحرير المرأة.. في سجن القلعة بين النساء الثائرات ينتظرن الإعدام بسناكي جيش الاحتلال دون أن يسجل تاريخ الحملة حادثة انهيار واحدة للمجاهدات الباسلات.. أم يبحث عن هذه القيادة في خمارات أشباه (برطلمين) وفي فراش جنود الاحتلال يقودهن أمثال (يعقوب) ؟! على أي حال فإن ذلك المفهوم يلقي الضوء على طبيعة مفهومهم لتحرير المرأة[1].

وقد برز في هذه الحقبة اسم السيدة نفيسة المرادية ذات المناقب العظيمة والمفاخر الجسيمة، وكانت زوجة «علي بك» الكبير، ثم «مراد بك»

(1) ودخلت الخيل الأزهر ص 226.

من بعده، وكانت على جانب عظيم من التثقيف والتهذيب، إلى روعة في الجمال وسمو في العواطف، مما جعلها تكتسب احترام الجميع، وكذلك اجتذبت قلوب الشعب؛ لما اشتهرت به من البر والإحسان ورفع المظالم، وحماية الضعفاء، وإيواء الفارين من ظلم الحكام، فعظمت مكانتها بين طبقات الشعب، وسرت شهرتها إلى الأوساط الأوربية؛ إذ عرف عنها الميل إلى تنشيط التجارة والصناعة، ومعارضة البكوات المماليك في سلب أموال التجار، وقد أهدتها الحكومة الفرنسية - قَبل الحملة - ساعة مرصعة بالماس قدمها لها القنصل (مجالون)، ولما جاءت الحملة الفرنسية صارت السيدة نفيسة المرادية غرضًا لفرض الإتاوات والغرامات الفادحة، حتى اضطروها للتنازل عن الساعة التي كان قد أهداها لها القنصل مجالون، فكان اضطرارها للنزول عن هذه الهدية للفرنسيين احتجاجًا شريفًا منها[1].

ومن مناقبها في الإغاثة ورفع المظالم ما حكاه الجبرتي في حوادث شهر رجب سنة 1202هـ: «وفيه قَتَل حمزة كاشف المعروف بالدويدار رجلًا نصرانيًّا روميًّا صائغًا اتهمه مع حريمه... وطلق الزوجة بعد أن أراد قتلها، فهربت عند الست نفيسة زوجة مراد بك[2]».

وفي حوادث سنة 1214هـ: قال الجبرتي - في حكاية مطاردة الفرنسيين لواحد من رموز المقاومة الحضارية في هذا العصر-: وأما

(1) ودخلت الخيل الأزهر ص 374.

(2) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 51).

الشيخ محمد ابن الجوهري[1] فإنه اختفى فلم يجدوه؛ فنهبوا داره ودار

(1) يعد الشيخ محمد ابن الجوهري من أبرز مشايخ الأزهر الذين جمعوا – جمعًا فريدًا – بين العلم والتقوى ومقاومة الظلم والصدع بالحق؛ حيث كان – رحمه الله تعالى – صداعًا بالحق لا يخشى في الله لومة لائم، بل كان أمراء عصره يهابونه، ويتسابقون في السعي إليه والتبرك به، ويقبلون نصحه وصدعه بالحق، فكان نموذجًا فريدًا للعالم القائد المقاوِم ذي المواهب النادرة الذي يلتف حوله عامة الناس وخاصتهم، وكان من أبرز مواقفه: أنه طلب من نابليون إخراج العسكر من الأزهر، فاستجاب له وأمر بإخراج الجنود. قال الجبرتي في وفيات سنة خمس عشر ومئتين وألف: «مات الإمام الألمعي والذكي اللوذعي، من عجنت طينته بماء المعارف وتآخت طبيعته مع العوارف، العمدة العلامة والنحرير الفهامة فريد عصره ووحيد دهره الشيخ محمد بن أحمد بن حسن بن عبد الكريم الخالدي الشافعي الشهير بابن الجوهري... ولد سنة إحدى وخمسين ومائة وألف، ونشأ في حجر والده في عفة وصون وعفاف... وكان آية في الفهم والذكاء والغوص والاقتدار على حل المشكلات، وأقرأ الكتب وألقى الدروس بالأشرفية وأظهر التعفف والانجماع عن خلطة الناس والذهاب والترداد إلى بيوت الأعيان والتزهد عما بأيديهم؛ فأحبه الناس وصار له أتباع ومحبون... واتخذ له مكانًا خاصًّا بمنزل والده يجلس فيه في أوقات، وكل من حضر عند أبيه في حال انقطاعه – من الأكابر أو من غيرهم للزيارة أو للتلقي– يأمره بزيارة ابنه المترجَم والتلقي عنه وطلبهم الدعاء منه ويحكي لهم عنه مزايا وكرامات ومكاشفات ومجاهدات وزهديات؛ فازداد اعتقاد الناس فيه، وعاشر العلماء والفضلاء من أهل عصره ومشايخه وقرنائه وتردد عليهم وترددوا عليه ويبيتون عنده ويطعمهم ويكرمهم ويتنزه معهم في أيام النيل مع الحشمة والكمال ومجانبة الأمور المخلة بالمروءة، ولما مات أخوه الكبير الشيخ أحمد – وقد كان تصدر بعد والده في إقراء الدروس – أجمع الخاص والعام على تقدم المترجَم في إقراء الدروس

نسيبه المعروف بالشويخ، ثم إنه توسل بالست نفيسة زوجة «مراد بك»، فأرسلت إلى «مراد بك» وهو بالقرب من الفشن فأرسل من عنده كاشفًا

في الأزهر والمشهد الحسيني في رمضان؛ فامتنع من ذلك وواظب على حالة انجماعه وطريقته... وزاد في الانجماع والتحجب عن الناس في أكثر الأوقات؛ فعظمت رغبة الناس فيه، ورد هداياهم مرة بعد أخرى وأظهر الغنى عنهم؛ فازداد ميل الناس إليه وجبلت قلوبهم على حبه واعتقاده وتردد الأمراء وسعوا لزيارته أفواجًا وربما احتجب عن ملاقاتهم وقلد بعضهم بعضًا في السعي، ولم يعهد عليه أنه دخل بيت أمير قط، أو أكل من طعام أحد قط إلا بعض أشياخه المتقدمين، وكانت شفاعته لا ترد عند الأمراء والأعيان مع الشكيمة والصدع بالأمر والمناصحة في وجوههم إذا أتوا إليه، وازدادت شهرته وطار صيته ووفدت عليه الوفود... وقصدوا زيارته والتبرك به... ولم يزل وافر الحرمة معتقدًا عند الخاص والعام حتى حضر الفرنساوية واختلت الأمور وشارك الناسَ في تلقي البلاء وذهب ما كان له بأيدي التجار، ونهب بيته وكتبه التي جمعها وتراكمت عليه الهموم والأمراض وحصل له اختلاط ولم يزل حتى توفي يوم الأحد حادي عشرين شهر القعدة سنة تاريخه بحارة برجوان وصلي عليه بالأزهر في مشهد حافل... وبالجملة فكان من محاسن مصر والفريد في العصر، ذهنه وقاد ونظمه مستجاد وكان رقيق الطبع لطيف الذات مترفها في مأكله وملبسه. تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 440).

وقد سجل نقولا الترك أن الشيخ (محمد الجوهري) دخل على نابليون قائلًا: «ما قابلت حاكمًا عادلًا كان أو ظالمًا، والآن قد أتيتك متوسلًا إليك أن تأمر بإخراج العسكر من الجامع الأزهر، فقبل نابليون رجاءه وأمر بإخراج الجنود من الأزهر. انتهى. ودخلت الخيل الأزهر ص 221. وإنما أطلت في عرض ترجمته؛ لأنه يعد من رموز المقاومة الحضارية في هذه الحقبة.

وتشفع فيه؛ فقبلوا شفاعته ورفعوها عنه[1]».

ويحكي الجبرتي في حوادث سنة 1219هـ: «وفي يوم الاثنين أرسل الباشا الوالي والمحتسب إلى بيت الست نفيسة زوجة «مراد بك» وطلبها فركبت معهما وصحبتهما امرأتان، فطلعا بهن إلى القلعة وكذلك أرسلوا بالتفتيش على باقي نساء الأمراء فاختفى غالبهن وقبضوا على بعضهن وذلك كله بعد عصر ذلك اليوم، فلما حصلت الست نفيسة بين يديه قام إليها وأجلَّها ثم أمرها بالجلوس وقال لها على طريق اللوم: (يصح أن جاريتك «منور» تتكلم مع مصادق آغا وتقول له: يسعى في أمر المماليك العصاة، وتلتزم له بالمكسور من جامكية العسكر؟) فأجابته: (إن ثبت أن جاريتي قالت ذلك فأنا المأخوذة به دونها)، فأخرج من جيبه ورقة وقال لها: (وهذه؟) وأشار إلى الورقة، فقالت: (وما هذه الورقة؟ أرنيها؛ فإني أعرف أن أقرأ لأنظر ما هي) فأدخلها ثانيًا في جيبه. ثم قالت له: (أنا بطول ما عشت بمصر وقدري معلوم عند الأكابر وخلافهم، والسلطان ورجال الدولة وحريمهم يعرفونني أكثر من معرفتي بك، ولقد مرت بنا دولة الفرنسيس - الذين هم أعداء الدين - فما رأيت منهم إلا التكريم، وكذلك سيدي محمد باشا كان يعرفني ويعرف قدري ولم نرَ منه إلا المعروف، وأما أنت فلم يوافق فعلُك فعلَ أهل دولتك ولا غيرهم). فقال: (ونحن أيضًا لا نفعل غير المناسب). فقالت له: (وأي مناسبة في أخذك لي من بيتي بالوالي مثل أرباب الجرائم؟)، فقال: (أنا أرسلته لكونه أكبر أتباعي؛ فإرساله من باب

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 349).

التعظيم) ثم اعتذر إليها وأمرها بالتوجه إلى بيت «الشيخ السحيمي» بالقلعة، وأجلسوها عنده بجماعة من العسكر، وأصبح الخبر شائعًا بذلك؛ فتكدرت خواطر الناس لذلك، وركب القاضي ونقيب الأشراف والشيخ السادات والشيخ الأمير وطلعوا إلى الباشا وكلموه في أمرها فقال: (لا بأس عليها وإني أنزلتها ببيت الشيخ السحيمي مكرمة حسمًا للفتنة؛ لأنها حصل منها ما يوجب الحجز عليها). فقالوا: (نريد بيان الذنب وبعد ذلك إما العفو أو الانتقام) فقال: (إنها سعت مع بعض كبار العسكر تستميلهم إلى المماليك العصاة ووعدتهم بدفع علوفاتهم، وحيث إنها تقدر على دفع العلوفة فينبغي أنها تدفع العلوفة) فقالوا له: (إن ثبت عليها ذلك فإنها تستحق ما تأمرون به فيحتاج أن تتفحص على ذلك) فقام إليها الفيومي والمهدى وخاطباها في ذلك فقالت: (هذا الكلام لا أصل له وليس لي في المصرلية[1] زوج حتى إني أخاطر بسببه فإن كان قصده مصادرتي فلم يبق عندي شيء وعليّ ديون كثيرة) فعادوا إليه وتكلموا معه وراددهم فقال الشيخ الأمير للترجمان: (قل لأفندينا هذا أمر غير مناسب ويترتب عليه مفاسد وبعد ذلك يتوجه علينا اللوم فإن كان كذلك فلا علاقة لنا بشيء من هذا الوقت أو نخرج من هذه البلدة) وقام قائمًا على حيله يريد الذهاب، فأمسكه مصطفى أغا الوكيل وخلافه وكلموا الباشا في إطلاقها وأنها تقيم ببيت الشيخ السادات؛ فرضي بذلك وأنزلوها ببيت الشيخ السادات»[2].

---

(1) تعني: في المماليك.

(2) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 656).

لم يكن في الحملة الفرنسية كلها امرأة احتفظ التاريخ باسمها كما احتفظ باسم السيدة نفيسة المرادية، ولا كان في فرنسا ذاتها امرأة تتمتع بنفوذ وتجري مفاوضات وتدير شئون السياسة وتتصدى لجور الحكام وتنصر المظلومين كما كانت السيدة نفيسة المرادية[1].

وكان من نساء مصر في تلك الحقبة من قدَّمن لقضايا الأمة مثل ما قدمت السيدة نفيسة المرادية وأكثر منه، حين تعرضن لأبشع أنواع التنكيل على يد المحتل وأذنابه، لكن لم يحفظ لنا التاريخ أسماءهن، فاستحققن عن جدارة أن يلقبن بـ(الجنديات المجهولات) في مسيرة المقاومة الحضارية في قرون الانحدار.

ولا تزال أمثال هذه النماذج تحيا بيننا في صمود يخجل صناديد الرجال، ومما يؤسف له أن أكثر ما تقاسيه نساء الأمة -الصامدات في هذا العصر- من التنكيل يكون على أيدي المستبدين الذين تتشدق وسائل إعلامهم باحترام حقوق المرأة بينما يمارس زبانيتهم على الحرائر من ألوان البطش والتنكيل ما يكون معه الحديث عن الحقوق إفكًا مفضوحًا.

وعلى جانب آخر كان لنساء الجزائر دور عظيم في المقاومة الحضارية ضد الاستعمار الفرنسي، وابتدأ هذا الدور بالحفاظ على الهوية بواسطة التربية الإسلامية، وكان للتربية الإسلامية دور عظيم في صناعة الأجيال المجاهدة التي تم على أيديها التحرير.

(1) ودخلت الخيل الأزهر ص 374.

وكانت هذه المرأة الجزائرية المجاهدة تتمسك بحجابها الإسلامي طوال زمن الاحتلال باعتباره رمزًا ووسيلة للمقاومة الحضارية لثقافة المحتل التي حاول فرضها بالقوة على الشعوب المسلمة[1].

الغلام البطل:

لم تقتصر مقاومة المصريين على بطولات رجال مصر ونسائها، بل حفظت لنا سجلات التاريخ قصة بطولية في المقاومة بطلها طفل صعيدي.

فمن أروع قصص الجنود المجهولين في مقاومة المحتل الفرنسي قصة غلام قرية (الفقاعي) [2]، وهي قصة يهتم بها المؤرخون الغربيون وبعض المصريين، وهذا الغلام فلاح مصري -لم تتجاوز سنه الثانية عشرة- يسرق بنادق الجيش الفرنسي ويرفض الاعتراف على محرضيه، ويتحمل الضرب بصبر عجيب.

ففي الفقاعي تقدم أحد غلمان القرية وتغفل جنود الجنرال ديزيه وجواسيسه واستولى على بنادقهم، فرآه جندي فتعقبه وضربه بالسيف على ذراعه، وساقَه جريحًا إلى الجنرال (ديزيه) للقصاص منه... وهنا تسجل المصادر الفرنسية حوارًا أذهل قادة جيش الاحتلال، فعندما سأله الجنرال عما دعاه لارتكاب هذا الفعل، أجاب الغلام رابط الجأش ناظرًا إلى السماء: (إن الله القادر على كل شيء أمره بذلك)

(1) ودخلت الخيل الأزهر ص 28.

(2) قرية تابعة لمركز ببا بمحافظة بني سويف.

فسأله الجنرال عمن حرضه على فعلته فقال: (لم يحرضني أحد، وإنما ألهمني الله أن أفعل ما فعلت) ثم رفع رأسه ونظر إليه وقال في هدوء وثبات: (دونك رأسي فاقطعوه) فدهش الجنرال من شجاعته واكتفى بأن يجلده بالسوط ثلاثين جلدة، فجلد الغلام لا يتأوه ولا يتململ.

ويرجح الأستاذ «محمد جلال كشك» أن الغلام كان يتبع تنظيمًا ما، وأن هذه القصة تثبت أن التنظيم الوطني في صعيد مصر كان يعتمد -كما هي العادة في الحروب التحريرية- على مخازن العدو موردًا أساسيًّا للسلاح، وقد ثبت دائمًا أن الأحداث هم خير من يقوم بعمليات من هذا النوع[1].

جنود التضامن العربي والإسلامي:

من الجنود المجهولين في المقاومة الحضارية: أهل الأقطار العربية والإسلامية الذين وفدوا من خارج القطر المصري لمناصرة ثورات المصريين ضد الحملة الفرنسية، وهذه الإسهامات لا تقلل من شأن بطولات المصريين في صد العدوان، ومن ثم فلا أجد مسوغًا للحساسية التي يبديها بعضُ المؤرخين المصريين تجاه إسهامات أهل الأقطار العربية والإسلامية في مناصرة أهل مصر ضد الغزو الفرنسي، لأن هذه الحساسية تجافي مسلك الإنصاف الذي ينبغي أن يتسم به المؤرخ النزيه، بل إن التأريخ لهذه الإسهامات مما ينبغي أن يفتح شهية المؤرخ الحريص على إظهار التضامن بين أقطار الأمة الإسلامية، هذا

(1) ودخلت الخيل الأزهر ص 199.

التضامن النابع من إدراك هؤلاء الأبطال لمعاني الوحدة التي علمها لنا الإسلام في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 92].

ويبدو أن هذه آفة تعتري مناهج بعض المؤرخين المصريين في التأريخ لبطولات المصريين عمومًا في صد الاحتلال؛ لأن مثل هذا التحسس ظهر في تناول بعض مؤرخي معركة العاشر من رمضان 1393 هـ = السادس من أكتوبر 1973م، حيث تعمد بعضهم إخفاء نبأ مساهمة قوات عربية من أقطار مختلفة في بعض معارك العبور، لكن حرص بعض كتاب تاريخ معركة العبور على إظهار هذه الإسهامات؛ لما فيها من إظهار التضامن العربي في مواجهة العدوان الصهيوني.

يقول الأستاذ محمد الشاويش: «ولعل هذه المشاركات العربية الإسلامية المهمة في مقاومة الفرنسيين مما يغفل ذكره عادة، ولا أعتقد أن سبب ذلك بريء دائمًا؛ إذ كان بعض من المؤرخين للحملة الفرنسية لاحقًا ممن كانوا يرفعون شعار القومية المصرية، ويجتهدون في عزل مصر عن سياقها الديني والحضاري واللغوي[1]».

وبعد هذه المقدمة نعود لمسألة التضامن العربي والإسلامي في صد العدوان الفرنسي، فيحكي الجبرتي مثلًا في حوادث سنة ثلاث عشرة ومئتين وألف: «ومنها: تواتر الأخبار من ابتداء شهر رجب بأن رجلًا مغربيًّا -يقال له: «الشيخ الكيلاني»- كان مجاورًا بمكة والمدينة

(1) نهضات مجهضة ص 25.

والطائف، فلما وردت أخبار الفرنسيس إلى الحجاز وأنهم ملكوا الديار المصرية ؛ انزعج أهل الحجاز لذلك، وضجوا بالحرم، وجردوا الكعبة، وأن هذا الشيخ صار يعظ الناس ويدعوهم إلى الجهاد، ويحرضهم على نصرة الحق والدين، وقرأ بالحرم كتابًا مؤلفًا في معنى ذلك، فاتعظ جملة من الناس وبذلوا أموالهم وأنفسهم، واجتمع نحو الستمائة من المجاهدين وركبوا البحر إلى القصير مع ما انضم إليهم من أهل ينبع وخلافه، فورد الخبر في أواخره أنه انضم إليهم جملة من أهل الصعيد وبعض أتراك ومغاربة ممن كان خرج معهم مع غزو مصر عند وقعة إنبابة[1]، وركب الغز معهم أيضًا وحاربوا الفرنسيس، فلم

(1) يسميها الفرنسيون (موقعة الأهرام)، وكانت في يوم السبت السابع من شهر صفر سنة 1213ه بحسب تأريخ الجبرتي، وهي أول مواجهة بين الفرنسيين والقوات التي اجتمعت بالقاهرة لصد جنود الحملة بعد استيلائهم على الإسكندرية، وأسفرت عن هزيمة القوات المصرية والقوات المتحالفة معها واستيلاء الفرنسيين على القاهرة. وقد أحسن الجبرتي تشخيص أسباب الهزيمة في هذه المعركة فقال: «ثم في كل يوم تكثر الإشاعة بقرب الفرنسيس إلى مصر، وتختلف الناس في الجهة التي يقصدون المجيء منها فمنهم من يقول: إنهم واصلون من البر الغربي، ومنهم من يقول: بل يأتون من الشرقي، ومنهم من يقول: بل يأتون من الجهتين، هذا وليس لأحد من أمراء العساكر همة أن يبعث جاسوسًا أو طليعة تناوشهم بالقتال قبل دخولهم وقربهم ووصولهم إلى فناء المصر، بل كل من إبراهيم بك ومراد بك جمع عسكره ومكث مكانه لا ينتقل عنه؛ ينتظر ما يفعل بهم، وليس ثم قلعة ولا حصن ولا معقل، وهذا من سوء التدبير وإهمال أمر العدو. ولما كان يوم الجمعة سادس الشهر وصل

الفرنسيس إلى الجسر الأسود وأصبح يوم السبت فوصلوا إلى أم دينار فعندها اجتمع العالم العظيم من الجند والرعايا والفلاحين المجاورة بلادهم لمصر، ولكن الأجناد متنافرة قلوبهم منحلة عزائمهم مختلفة آراؤهم حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم مختالون في رئيسهم مغترون بجمعهم محتقرون شأن عدوهم مرتبكون في رويتهم مغمورون في غفلتهم، وهذا كله من أسباب ما وقع من خذلانهم وهزيمتهم... ولما قرب طابور الفرنسيس من متاريس مراد بك ترامى الفريقان بالمدافع وكذلك العساكر المحاربون البحرية وحضر عدة وافرة من عساكر الأرنؤد من دمياط وطلعوا إلى إنبابة وانضموا إلى المشاة وقاتلوا معهم في المتاريس، فلما عاين وسمع عسكر البر الشرقي القتال ضج العامة والغوغاء من الرعية وأخلاط الناس بالصياح ورفع الأصوات بقولهم: يا رب، ويا لطيف، ويا رجال الله ونحو ذلك، وكأنهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم وجلبتهم، فكان العقلاء من الناس يصرخون عليهم ويأمرونهم بترك ذلك ويقولون لهم: (إن الرسول والصحابة والمجاهدين إنما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقاب لا برفع الأصوات والصراخ والنباح) فلا يستمعون ولا يرجعون عما هم فيه، ومن يقرأ ومن يسمع! وركب طائفة كبيرة من الأمراء والأجناد من العرض الشرقي ومنهم إبراهيم بك الوالي وشرعوا في التعدية إلى البر الغربي في المراكب فتزاحموا على المعادي؛ لكون التعدية من محل واحد والمراكب قليلة جدًّا؛ فلم يصلوا إلى البر الآخر حتى وقعت الهزيمة به على المحاربين، هذا والريح النكباء اشتد هبوبها وأمواج البحر في قوة اضطرابها والرمال يعلو غبارها وتنسفها الريح في وجوه المصريين فلا يقدر أحد أن يفتح عينيه من شدة الغبار وكون الريح من ناحية العدو وذلك من أعظم أسباب الهزيمة كما هو منصوص عليه». تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 188).

تثبت الغز كعادتهم وانهزموا، وتبعهم هوارة الصعيد والمتجمعة من القرى، وثبت الحجازيون ثم انكفوا؛ لقلتهم وذلك بناحية (جرجا)، وهرب الغز والمماليك إلى ناحية إسنا، وصحبتهم حسن بك الجداوي وعثمان بك حسن تابعه، ووقع بين أهل الحجاز والفرنسيس بعض حروب غير هذه المرة بعدة مواضع[1]».

وقال الجبرتي: «ولما عجز الفرنساوية عن أخذ عكا وعزموا على الرجوع إلى مصر أرسل بونابارته مكاتبة إلى الفرنساوية المقيمين بمصر يقول فيها: إن الأمر الموجب للانتقال عن محاصرة عكا خمسة عشر سببًا.....

السادس: بلغنا توجه أهل الحجاز صحبة الجيلاني لناحية الصعيد.

السابع: المغربي محمد الذي صار له جيش كبير وادعى أنه من سلاطين المغرب[2]».

وهذا النص يبرز أهمية الدور الذي قام به أهل الأقطار العربية والإسلامية في مناصرة المصريين، واستنزاف الفرنسيين، حتى إن قدوم هذه الوفود كان من الأسباب التي اضطرت «نابليون» إلى فك حصاره عن عكا.

قال الأستاذ محمد جلال كشك تعليقًا على وصف الجبرتي: «ولا أظن أن محللًا ديالكتيكيًّا معاصرًا يستطيع أن يقدم تشريحًا لطبقة منهارة وجيش انتهى دوره كقوة مقاتلة مثلما فعل الشيخ الجبرتي الأزهري، مما يؤكد أن فهم قوانين التخلف لم يكن مستعصيًا على شيوخ الأزهر ولكن لم يسعفهم الدهر». ودخلت الخيل الأزهر ص 164.

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 251).

(2) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 288).

كما ورد في إعلان صادر من قيادة القوات الفرنسية[1]، حكاه الجبرتي، أن كتيبة من أهل الشام وفدوا لمناصرة المصريين، فجاء في هذا الإعلان: «ونخبركم أيضًا أن الجنرال يونوت انتصر على أربعة آلاف مقاتل حضروا من الشام - خيالة ومشاة - فقابلتهم بثلثمائة عسكري مشاة من عسكرنا؛ فكسروا التجريدة المذكورة وأوقع منهم نحو ستمائة نفس ما بين مقتول ومجروح وأخذ منهم خمسة بيارق[2]».

وقد ظهرت في هذه النصوص أسماء لمجاهدين مجهولي الهوية، لكن كان لهم دور قوي في إحداث التضامن العربي الإسلامي في مقاومة المحتل...

الجيلاني (الكيلاني):

تقدم حكاية الجبرتي خبر تحريضه أهل الحجاز على الزحف لمناصرة إخوانهم بمصر، وما كان لدعوته من أثر بالغ في إلهاب مشاعر الإخوة الإسلامية التي حملت المئات من أهل الحجاز- ومن انضم إليهم - على الزحف للجهاد في مصر.

ولم يذكر الجبرتي ما يفيد في تحديد هويته، بل نسبه إلى المغرب، وذكر أنه كان مجاورًا بالحرم، وأنه حرض أهل الحجاز على مناصرة أهل مصر.

---

(1) في 27 من ذي القعدة سنة ثلاث عشرة ومئتين وألف.

(2) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 272).

وذكر الجبرتي وفاته في حوادث شهر ذي القعدة من سنة ثلاث عشرة ومئتين وألف فقال: «ومنها أن الكيلاني المذكور آنفًا توفي -رحمه الله تعالى- وتفرقت طائفته في البلاد...».

وقد اجتهد الباحث المغربي الدكتور/ محمد حواش في تحديد شخصية الجيلاني، وتوصل إلى أنه «الشيخ محمد الجيلاني»، وأنه متزعم الحركة الجهادية التي وفدت من بلاد المغرب، وأن ساعده الأيمن كان ابن أخته: الشريف حسن، وأنهم أفراد عائلة شريفة من المغرب الأقصى، وبالذات قبيلة أولاد أبي السباع الإدريسية الحسنية الهاشمية المغربية[1].

وكان من إنجازات الشيخ محمد الجيلاني ورجاله:

إفشال مشروع استيلاء الفرنسيين على ميناء القصير الإستيراتيجي.

والاستيلاء على سفينة «نابليون» المفضلة (إيطاليا) في معركة أبنود الأولى[2].

---

(1) خطاب التضامن الإسلامي في ضوء حملة نابليون على مصر والشام، وموقف المغرب منها ص 332، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط: 1، بيروت 2013م.

(2) خطاب التضامن الإسلامي في ضوء حملة نابليون على مصر والشام، وموقف المغرب منها ص 352، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط: 1، بيروت 2013م.

مولاي محمد المغربي:

حكى الجبرتي حكايته في مواضع من تاريخه الماتع، وكان يصفه بالرجل المغربي – وقال: إنه ادعى المهدوية، وإنه من سلاطين المغرب – دون أن يذكر ما يفيد في تحديد شخصيته، فقال الجبرتي: «واستهل شهر ذي الحجة بيوم الثلاثاء سنة 1213.. في ثانيه خرج نحو الألف من عسكر الفرنسيس للمحافظة على البلاد الشرقية؛ لتجمع العرب والمماليك على الألفي، وكذلك تجمع الكثير من الفرنسيس وذهبوا إلى جهة دمنهور وفعلوا بها ما فعلوا في بني عدي من القتل والنهب؛ لكونهم عصوا عليهم بسبب أنه ورد عليهم رجل مغربي يدعي المهدوية ويدعو الناس ويحرضهم على الجهاد وصحبته نحو الثمانين نفرًا، فكان يكاتب أهل البلاد ويدعوهم إلى الجهاد فاجتمع عليه أهل البحيرة وغيرهم وحضروا إلى دمنهور وقاتلوا من بها من الفرنساوية، واستمر أيامًا كثيرة تجتمع عليه أهل تلك النواحي وتفترق والمغربي المذكور تارة يغرب وتارة يشرق[1]».

وقال في موضع آخر: «وحضر أيضًا رجل مغربي يقال: إنه الذي كان يحارب الفرنسيس بجهة البحيرة سابقًا، والتف عليه طائفة من المغاربة البلدية وجماعة من الحجازية ممن كان قدم صحبة الجيلاني الذي تقدم ذكره، وفعل ذلك الرجل المغربي أمورًا تنكر عليه؛ لأن غالب ما وقع من النهب وقتل من لا يجوز قتله يكون صدوره عنه، فكان يتجسس

---

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 273).

على البيوت التي بها الفرنسيس والنصارى فيكبس عليهم ومعه جمع من العوام والعسكر فيقتلون من يجدونه منهم وينهبون الدار ويسحبون النساء ويسلبون ما عليهن من الحلي والثياب، ومنهم من قطع رأس البنية الصغيرة؛ طمعًا فيما على رأسها وشعرها من الذهب[1]».

وقال في موضع آخر حاكيًا خبر الصلح الذي عرضه الفرنسيين بعد اندلاع ثورة القاهرة الثانية: «فلما رجع المشايخ بهذا الكلام وسمعه الانكشارية والناس قاموا عليهم وسبوهم وشتموهم، وضربوا الشرقاوي والسرسي ورموا عمائمهم وأسمعوهم قبيح الكلام وصاروا يقولون: (هؤلاء المشايخ ارتدوا وعملوا فرنسيس ومرادهم خذلان المسلمين، وأنهم أخذوا دراهم من الفرنسيس)، وتكلم السفلة والغوغاء من أمثال هذا الفضول، وتشدد في ذلك الرجل المغربي الملتف عليه أخلاط العالم ونادى من عند نفسه: الصلح منقوض وعليكم بالجهاد ومن تأخر عنه ضرب عنقه... ووافق ذلك أغراض العامة؛ لعدم إدراكهم لعواقب الأمور؛ فالتفوا عليه وتعضد كل بالآخر وأن غرضه هو في دوام الفتنة؛ فإن بها يتوصل لما يريد من النهب والسلب والتصور بصورة الإمارة: باجتماع الأوغاد عليه، وتكفُّلِ الناسِ له بالمأكل والمشرب هو ومن انضم إليه، واشتطاطٍ في المأكل مع فقد الناس لأَدْونِ ما يؤكل، حتى إنه كان إذا نزل جهة من جهات المدينة -لإظهار أنه يريد المعونة أو الحرس- فيقدمون له بالطعام فيقول: لا آكل إلا الفراخ، ويظهر أنه

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 327).

صائم فيكلف أهل تلك الجهة أنواع المشقات والتكلفات بتعنته في هذه الشدة بطلب أفحش المأكولات وما هو مفقود ثم هو مع ذلك لا يغني شيئًا، بل إذا دهم العدو تلك الجهة التي هو فيها فارقها وانتقل لغيرها، وهكذا كان ديدنه، ثم هو ليس ممن له في مصر ما يخاف عليه من مسكن أو أهل أو مال أو غير ذلك، بل كما قيل: (لا ناقتي فيها ولا جملي)، فإذا قدر ما قدر؛ تخلص مع حزبه إلى بعض الجهات والتحق بالريف أو غيره، وحينئذ يكون كآحاد الناس ويرجع لحالته الأولى وتبطل الهيئة الاجتماعية التي جعلها لجلب الدنيا فخًّا منصوبًا ومَخْرَقَ بها على سخاف العقول وأخِفَّاء الأحلام، وهكذا حال الفتن: تكثر فيها الدجاجلة، ولو أن نيته ممحضة لخصوص الجهاد؛ لكانت شواهد علانيته أظهر من نار على علم، أو اقتحم -كغيره ممن سمعنا عنهم من المخلصين في الجهات وفي بيع أنفسهم في مرضاة رب العباد- لظى الهيجاء، ولم يتعنت على الفقراء ولم يجعل همته في السلب مصروفة وحال سلوكه عند الناس ليست معروفة.

ومهما تكن عند امرىء من خليقة ... وإن خالها تخفى على الناس تعلمِ

وبالجملة فكان هذا الرجل سببًا في تهدم أغلب المنازل بالأزبكية، ومن جملة ما رُمِيت به مصر من البلاء، وكان ممن ينادى به عليه حين أشيع أمر الصلح وتكلم به الأشياخ: (الصلح منقوض وعليكم بالجهاد ومن تأخر ضرب عنقه) وهذا منه افتيات وفضول ودخول فيما لا يعني؛

حيث كان في البلد مثل الباشا والكتخدا والأمراء المصرية، فما قدْرُ هذا الأهوج حتى ينقض صلحًا أو يبرمه؟ وأي شيء يكون هو حتى ينادي أو ينصب نفسه بدون أن ينصبه أحد لذلك؟ لكنها الفتن يستنسر بها البغاث، سيما عند هيجان العامة وثوران الرعاع والغوغاء؛ إذ كان ذلك مما يوافق أغراضهم، على أن المشايخ لم يأمروا بشيء ولم يذكروا صلحًا ولا غيره، إنما بلغوا صورة المجلس - الذي طُلبوا لأجله - لحضرة الكتخدا، فبمجرد ذلك قامت عليهم العامة هذا المقام وسبوهم وشتموهم بل وضربوهم وبعضهم رموا بعمامته إلى الأرض وأسمعوهم قبيح الكلام وفعلوا معهم ما فعلوا وصاروا يقولون: (لولا أن الكفرة الملاعين تبين لهم الغلب والعجز؛ ما طلبوا المصالحة والموادعة وأن بارودهم وذخيرتهم فرغت) ونحو ذلك من الظنون الفاسدة[1]».

ويؤخذ من النصوص السابقة أن هذا الرجل المغربي كان يحرض الناس على الثبات في قتال الفرنسيين، ورفض دعوات المصالحة، وقد حكى الجبرتي من أفعال الرجل ما يناقض دعوته للثبات، ورأى الجبرتي أن هذا الرجل من أدعياء الثورة والجهاد الذين يستغلون حالة الاضطراب في أوقات الفتن لنيل مآرب شخصية تحت ستار الدعوة للثورة والجهاد.

غير أن الباحث المغربي الدكتور/ محمد حواش يخالف الجبرتي في رأيه السلبي عن هذا المغربي المجهول بحسب كلام الجبرتي، وادعى الدكتور حواش أن هذا الرجل المغربي هو: (مولاي

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 337).

محمد المغربي)، ورجح أن اسمه: (محمد بن عبد الله بن الأحرش الدرعاوي) وأنه هو صاحب الثورة التي اندلعت شرق الجزائر بعد ذلك اعتراضًا على توقيع داي الجزائر اتفاقية الصلح مع فرنسا، وأنه من قادة المقاومة والجهاد وقت الحملة الفرنسية، وأن حركته شكلت خطورة على القوات الفرنسية؛ لأنها اجتاحت محافظات الوجه البحري القريبة من الأسطول الإنجليزي - الذي كان يمارس سيطرةً شبه مطلقة على الساحل المتوسطي لمصر- ولأنه بذل مجهودات كبيرة في ردم الهوة بين العثمانيين والزعيم المملوكي الكبير مراد بك الذي كان قد دخل في صلح مشروط مع الفرنسيين[1].

كما كان لمولاي محمد المغربي دور مهم في تنسيق الجهود الحربية مع كل الأطراف المعنية بمقاتلة الفرنسيين، المحلية منها والإقليمية والدولية: من أهالٍ ومماليك وعربان وعثمانيين وإنجليز، وتمخض هذا الحراك عن تأليف جيش يتميز بقدر كبير من التماسك الوطني والإقليمي[2].

وقد تضافرت العوامل السابقة لتمييز خطته التعبوية، وتمكينه من جلب المؤيدين والأتباع على نحو أدخل الرعب والهلع في نفوس السلطات العسكرية الفرنسية، وأرغمهم على التسليم بالهزيمة في أكثر

(1) خطاب التضامن الإسلامي في ضوء حملة نابليون على مصر والشام، وموقف المغرب منها ص 367- 377، 390، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط: 1، بيروت 2013م.

(2) المرجع السابق ص 396.

من معركة، وأرغم «نابليون» على رفع حصاره عن عكا، الأمر الذي حوله - في وقت وجيز- إلى زعيم كبير تلتف حول شخصه جموع غفيرة في أكبر حركة جهادية عرفها إقليم البحيرة والوجه البحري بصفة عامة، حتى إن أحد المصادر الفرنسية قدر عدد الذين قاتلوا تحت قيادته في إحدى المعارك بين عشرين ألفًا وخمسة وعشرين ألف رجل، وهذا يدل على مدى النفوذ والشعبية اللتين حظي بهما هذا المجاهد المغربي في بلد إسلامي يبعد عن موطنه الأصلي آلاف الكيلومترات[1].

ويرى الدكتور/ حواش أن التجاوب الواسع الذي قوبلت به دعوة مولاي محمد بن الأحرش المغربي -قبل وبعد دخوله مصر- لا يمكن ربطه فقط بادعائه المهدوية ودعوته إلى مقاتلة الكفار بعد استباحتهم لواحدة من البلدان الإسلامية الأكثر قربًا من وجدان المغاربة، أو علاقات الانتماء الوطني والإقليمي التي كانت توجد بين أتباعه ومؤيديه، بل يضاف إلى هذا: أنه كان يتحرك ضمن خريطة بشرية وسياسية معروفة لديه منذ أن كان يقود ركب حجاج الشرفاء المغاربة، كما أن خطته كانت تشمل عنصرًا مهمًّا هو حرب الإشاعة التي استخدمها - هو وأتباعه - بحنكة ودهاء، ذلك أنه بمجرد دخوله القطر المصري أخذ - هو وأتباعه - يشيعون في الناس أنهم لا يمثلون سوى جزء يسير من جيش مغربي جرار يتقدم عبر الصحراء نحو مصر لاستخلاصها من الفرنسيين.

(1) المرجع السابق ص 396- 402.

وقد آتت هذه الخطة أكلها على الوجه الأكمل حينما أوقعت السلطات العسكرية الفرنسية في حالة من الارتباك والذهول، فتعطلت لدى كثير من قادتها حرية التحرك واتخاذ القرارات المناسبة. في حين شجعت حرب الإشاعة هذه الأهالي على الانضمام - بوتيرة متزايدة - إلى صفوف (جيش الإنقاذ) هذا الذي حضر على حين غرة بين ظهرانيهم في تلك اللحظات العصيبة. وهذا ما تؤكده مختلف المراسلات المتبادلة بين السلطات الفرنسية العليا[1].

وقد فسر الدكتور/ حواش الباعث الذي حمل مولاي محمد على الجهاد بمصر بأنه قد جال في خاطره أن أرض الكنانة قد ضاعت من المسلمين، سيما وأن نكبة الأندلس كانت ذكراها لا تزال حية في الأذهان[2].

ورأى الدكتور حواش أن الجبرتي كان متعسفًا - في حكمه على مولاي محمد المغربي بأن غرضه كان النهب والسلب - رغم إقرار الجبرتي بكفاءة هذا الرجل القتالية وقدرته على حشد الثوار وإطالة عمر الثورة، ومما زاد من خطورة هذه الاتهامات: تبنيها من قبل عدد من الدارسين والباحثين المصريين الذين لم يترددوا في استغلالها لإذكاء النزعة الوطنية و«تحرير» التاريخ المصري من «المندسين والدخلاء»، ولو كانوا من العرب والمسلمين مثل مولاي محمد المغربي ورجاله[3].

(1) المرجع السابق ص 404.

(2) المرجع السابق ص 384.

(3) المرجع السابق ص432.

إلا أن باحثين مصريين آخرين لم تؤثر فيهم لهجة الجبرتي التحاملية، ولم ينساقوا وراء النزعة الوطنية التي أضحت تهيمن على الكتابة التاريخية في مصر، ومنهم على سبيل المثال: يونان لبيب رزق، الذي تصدى - صحبة الباحث المغربي محمد مزين - لروايات الجبرتي في هذا الباب، فأخضعاها لمراجعة نقدية كشفت البواعث الخفية التي أطَّرت نظرة الجبرتي لحدث الثورة ككل، وأعمال مولاي محمد المغربي منها على وجه الخصوص.

أما محمد مورو فقد تصدى بدوره لكشف نوازع النظرة الضيقة - أو ما أسماه بـ(الأطروحة الإسلامية ذات التشوهات القومية) - التي عالج بها «محمد جلال كشك» بعض القضايا المتصلة بالمقاومة الإسلامية لجيش الحملة الفرنسية على مصر، وخاصة ما يتعلق منها بما قام به مولاي محمد المغربي من جهادات في هذا الإطار[1].

ورد الدكتور/ حواش على اتهامات الجبرتي لهذا الرجل بردود منها: أن تشدد مولاي محمد المغربي في رفض الصلح وإلقاء السلاح كان سببًا في طول أمد ثورة القاهرة الثانية واتساع نطاقها.

وأن صدور بعض الهفوات أمر مسلم، لكنه لا يقدح في بطولاته، ولا ينفي عنه وصف المجاهدين.

وبالجملة فحركة مولاي محمد المغربي كانت من صور التضامن العربي مع المحنة التي عاناها المصريون من جراء هذا العدوان الاستعماري.

(1) المرجع السابق.

وربما رأى البعض في تحليل الدكتور/ حواش أن عاطفته الوطنية - تجاه مواطنه المغربي - حملته على المبالغة في إضفاء أوصاف التبجيل على مولاي محمد المغربي وحركته في المقاومة، لكن لما كان الدكتور/ حواش قد اعتمد في بحثه على كثرة من المراجع العربية والأجنبية، فقد وجدت لكلامه مصداقية لا تطعن في رأي الجبرتي - الذي نحترم رأيه ولا نشك في أمانته في نقل الوقائع - لكنها تجعلنا مطمئنين لعرض حركة مولاي محمد المغربي باعتبارها من نماذج المقاومة الحضارية التي يظهر فيها التضامن العربي الإسلامي في مواجهة المحتل الأجنبي.

خامسًا: وليتَ العامةَ شُكِروا!

كثيرا ما يضحي العامة - وقت انهيار العسكر والقيادة الرسمية - ومع هذا لا ينسب إليهم فضل، ولا يوجه إليهم شكر، بل كثيرًا ما يُنسب الفضل إلى غير أهله، فيصنع العامة البطولات، ويسرق القادةُ المنهارون الإنجازات.

وقد أحسن الجبرتي في وصف هذه الظاهرة - في تعليقه على بطولات الجماهير في صد حملة فريزر عام 1807- فعقب عليها بقوله: «وليت العامة شكروا على ذلك أو نسب إليهم فعل! بل نسب كل ذلك للباشا وعساكره[1]».

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (3/ 196) بتصرف.

فقد أظهر العامة من البطولة والتفاني في الجهاد وحماية الأمة ما يدهش الألباب، ويغطي على عجز العسكر وجبنهم وتخليهم عن شرف الجهاد من أجل الذود عن حياض الوطن، ومع هذا لم ينسب للعامة أي فضل؛ قال الجبرتي: «ولما شاع أخذهم[1] الإسكندرية داخلَ العسكرَ والناسَ وهمٌ عظيم، وعزم أكثر العسكر على الفرار إلى جهة الشام، وشرعوا في قضاء أشغالهم واستخلاص أموالهم التي أعطوها للمتضايقين والمستقرضين بالربا... وفارق الكثير منهم النساء... حتى إن «محمد علي باشا» لما بلغه حصولهم بالإسكندرية – وكان يحارب المصريين ويشدد عليهم – فعند ذلك انحلت عزائمه، وأرسل يصالحهم على مايريدونه ويطلبونه، وثبت في يقينه استيلاء الإنكليز على الديار المصرية، وعزم على العود متلكئًا في السير يظن سرعة ورودهم إلى المدينة فيسير مشرقًا على طريق الشام ويكون له عذر بغيبته في الجملة فلما وصلت الشرذمة الأولى من الإنكليز إلى رشيد ودخلوها من غير مانع وحُبسوا، وحَبسوا أنفسهم فيها فقُتلوا وأسروا وهرب من هرب ووصلت الرءوس والأسرى وأسرع المبشرون إلى الباشا بالخبر؛ فعند ذلك تراجعت إليه نفسه وأسرع في الحضور، وتراجعت نفوس العساكر وطمعوا عند ذلك في الإنكليز وتجاسروا عليهم، وكذلك أهل البلاد قويت هممهم وتأهبوا للبروز والمحاربة واشتروا الأسلحة ونادوا على بعضهم بالجهاد وكثر المتطوعون... وجمعوا من بعضهم

(1) يعني الإنجليز.

دراهم وصرفوا على من انضم إليهم من الفقراء... فلما وصلوا إلى متاريس الإنكليز دهموهم من كل ناحية على غير قوانين حروبهم وترتيبهم وصدقوا في الحملة عليهم، وألقوا أنفسهم في النيران ولم يبالوا برميهم وهجموا عليهم واختلطوا بهم، وأدهشوهم بالتكبير والصياح حتى أبطلوا رميهم ونيرانهم فألقوا سلاحهم وطلبوا الأمان فلم يلتفتوا لذلك وقبضوا عليهم وذبحوا الكثير منهم... وفر الباقون إلى من بقي بالإسكندرية، وليت العامة شُكروا على ذلك أو نسب إليهم فعل، بل نسب كل ذلك للباشا وعساكره، وجوزيت العامة بضد الجزاء بعد ذلك... ولما انقضى أمر الحرب من ناحية رشيد وانجلت الإنكليز عنها ورجعوا إلى الإسكندرية؛ نزل الأتراك على الحماد وماجاورها واستباحوا أهلها ونساءها وأموالها ومواشيها زاعمين أنها صارت دار حرب بنزول الإنكليز عليها وتملكها... ثم أحاطت العساكر ورؤساؤهم برشيد وضربوا على أهلها الضرائب وطلبوا منها الأموال... وأخذوا ما وجدوه بها من الأرز... فخرج كبيرها السيد حسن كريت إلى حسن باشا وكتخدا بك وتكلم معهما وشنع عليهما، وقال: (أما كفانا ما وقع لنا من الحروب وهدم الدور وكلف العسكر ومساعدتهم ومحاربتنا معهم ومعكم وماقاسيناه من التعب والسهر وإنفاق المال ونجازى منكم بعدها بهذه الأفاعيل، فدعونا نخرج بأولادنا وعيالنا ولا نأخذ معنا شيئًا ونترك لكم البلدة افعلوا بها ما شئتم) فلاطفوه في الجواب

وأظهروا له الاهتمام... وكتب المذكورُ[1] أيضًا مكاتبات بمعنى ذلك وأرسلها إلى الباشا والسيد عمر[2] بمصر فكتبوا فرمانًا وأرسلوه إليهم بالكف والمنع، وهيهات! ولما وصل من وصل بالقتلى والأسرى أنعم الباشا على الواصلين منهم بالخِلع والبقاشيش وألبسهم شلنجات فضة على رءوسهم؛ فازداد جبروتهم وتعديهم [3]».

ومن هذا النص البليغ يظهر أن العامة الشرفاء جادوا بأرواحهم الزكية، ولم يتركوا سبيلًا للجهاد إلا وسلكوه، حتى الجهاد بالمال، وأن المتطوعين من العامة كثر عددهم، في الوقت الذي فكر فيه محمد علي وعسكره في الفرار وترْك الأمة تواجه خطر استيلاء الإنجليز عليها.

ومن العجيب أن اندفاع العامة في المقاومة والجهاد كان عفويًّا دون توعية أو تخطيط سابقين؛ وذلك أن العامة في هذا الوقت كانوا في نظر الباشا ورجاله أصفارًا لا يؤبه لها، ومن ثم لم تهتم القيادة الرسمية بتوعية العامة وتدريبهم على مواجهة المخاطر، ومع هذا تمكن العامة - بقوة إيمانهم وإمكاناتهم المحدودة - أن يرعبوا الإنجليز ويفسدوا خططهم، ويعطلوا إمكاناتهم الرهيبة، وينتصروا على أقوى جيش في

(1) يعني: حسن كريت، كبير رشيد.

(2) يعني: عمر مكرم.

(3) مع أنهم جبنوا عن قتال الإنجليز - هم والباشا - ولم يتجاسروا على القتال إلا بعد انهزام الإنجليز أمام عامة الشعب. تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (3/ 196).

العالم في هذا الوقت، والسبب في هذا هو صدق عزائمهم حال خور عزائم الباشا وعسكره، وخلوص نواياهم في الجهاد والمقاومة – في سبيل الله ومن أجل وطنهم الحبيب– حال فساد ذمم القائد ورجاله وتمكُّنِ حب الدنيا من أفئدتهم في أوان التضحية والجهاد، وكيف لا والوطن في نظرهم ما هو إلا ضرع حافل بالخيرات، وواجبهم (المقدس) هو حلب الضرع واستخلاص خيراته حتى آخر قطرة!

ثم لم يكن جزاء العامة على بطولاتهم وسترهم على عار الباشا ورجاله إلا الاستباحة والاستنزاف، بينما نال العسكر الجبناء كلَّ أصناف التكريم، لا لشيء إلا لأنهم رجال الباشا، فلكِ الله يا مصر الكنانة!

هذا، وهناك الكثير من الشخصيات التي قامت بأدوار مهمة في المقاومة الحضارية، لكنها لم تنل حظًّا من تسليط الأضواء التاريخية الكاشفة لهذه الأدوار المشرفة.

ومن هذه النماذج:

- حسن بك الجداوي، وعثمان بك حسن تابعه[1].
- الحاج مصطفى البشتيلي
- حجاج الخضري (شيخ طائفة الخضرية)

---

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 251).

- الشريف حسن، ابن أخت «الشيخ أحمد الجيلاني السباعي»[1].
- الحاج عمر الفوتي (أحد قادة المقاومة في بلاد المغرب).
- وغيرهم كثير مما لا يتسع المقام لاستيعاب بطولاتهم في المقاومة الحضارية.

***

(1) خطاب التضامن الإسلامي في ضوء حملة نابليون على مصر والشام، وموقف المغرب منها ص 424، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط: 1، بيروت 2013م.

الفَصْلُ الثّانِي

دور المؤسسات الوسيطة في المقاومة الحضارية

الأزهر الشريف نموذجًا

تمهيد

لم تنحصر حركية المقاومة الحضارية في الهبات الشعبية والحركات الجماهيرية المقاوِمة، بل كان للمؤسسات الوسيطة دورها الذي لا ينكر، وهنا يبرز اسم الأزهر الشريف؛ إذ يعد – في الحالة المصرية– من أهم الجماعات الوسيطة التي كان لها إسهام بالغ الأهمية في بعث المقاومة الحضارية وتوجيهها من خلال المشايخ الجماهيريين أمثال الإمام الدردير.

لقد مرّ الأزهر الشريف بأدوار حافلة بالنضال الديني والوطني الذي لم ينحصر في العطاء العلمي والثقافي.

فلقد نشأ الأزهر الشريف على يد العبيديين (الفاطميين) سنة (361 هـ)؛ ليكون مركزًا لنشر الفكر الشيعي، فلما استتب الأمر في مصر للأيوبيين – بعد سقوط دولة العبيديين – عطَّل صلاح الدين الأيوبي إقامة الشعائر بالأزهر الشريف؛ لمنع انتشار الفكر الشيعي، وبقي هكذا إلى أن أعاد الظاهر بيبرس (ت: 1277م) افتتاحه، وأقيمت صلاة الجمعة بالجامع الأزهر يوم الجمعة 18 ربيع الأول سنة 665هـ، في حفل من الأمراء والكبراء، وكان يومًا مشهودًا استعاد فيه الأزهر مركزه الدينيّ القديم، وصار منارة لأهل السنة والجماعة[1].

(1) محمد كامل الفقي، الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة (1/ 21).

والأزهر الشريف منذ أعيد افتتاحه وتحوله إلى مركز أهل السنة والجماعة؛ كان مؤسسة من مؤسسات المجتمع والأمة، ولم يكن مجرد مدرسة يتلقى فيها الطلاب علوم الشريعة المطهرة، بل كان للأزهر وظيفة شعبية وسياسية واجتماعية، فدور الأزهر في مقاومة الاستعمار لا يخفى على أحد[1]، وعلى مر العصور كان الأزهر الشريف صمام أمان في احتواء الفتن الطائفية وحفظ حقوق غير المسلمين، وكان الأزهر يقوم بدور رقابي على الحكام مكنه من حماية الأمة من جور الحكام وبطشهم في كثير من حقب التاريخ[2].

يقول الدكتور أسامة السيد: «وقد جرت الوقائع الكثيرة التي حصلت فيها المظالم من الولاة؛ فنادى الإمام الدردير بوقف الدراسة في الأزهر الشريف؛ فغلقت أبوابه، وصعد المجاورون إلى المآذن ينادون الناس أن يتجمعوا عند مشايخ الأزهر الشريف وعلمائه، وخرج الإمام الدردير على رأسهم إلى الوالي، وكلمه بلسان شديد، فاستجاب له وانصاع بما أبقى لمشايخ الأزهر الشريف في وجدان الشعب المصري مكانة وثقة ومصداقية كبيرة في سائر هذه الحقبة التاريخية المنيرة للجامع الأزهر الشريف»[3].

---

(1) ينظر: محمد جلال كشك، ودخلت الخيل الأزهر، ص: 15، الزهراء للإعلام العربي، الطبعة الثالثة.

(2) العلامة محمود محمد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص: 135، ط: مكتبة الأسرة؛ والدكتور يوسف القرضاوي، رسالة الأزهر بين الأمس واليوم والغد ص: 34، ط: مكتبة وهبة.

(3) فيلم: الأزهر (فيلم تسجيلي من وثائقيات قناة الجزيرة الفضائية)، الجزء الأول، من الدقيقة 47-48.

وفي حادثة أخرى في حادي عشر المحرم سنة خمس ومائتين وألف (1791م):

«كثُر تعدى «أحمد أغا» الوالي على أهل الحسينية، وتكرر قبضه وإيذاؤه لأناس منهم بالحبس والضرب وأخذ المال، بل ونهب بعض البيوت، وأرسل في يوم الجمعة ثاني عشرينه أعوانه بطلب أحمد سالم الجزار[1] شيخ طائفة البيومية[2]، وله كلمة وصولة بتلك الدائرة، وأرادوا

(1) تكررت الحوادث التي طارده فيها الأمراء، وهناك حادثة أخرى سترد في الفصل الثالث، فيبدو أن نفوذ أحمد سالم الجزار كان مزعجًا لحكام عصره.

(2) هم أتباع الشيخ البيومي، وهو: الإمام الولي الصالح المعتقَد المجذوب العالم العامل الشيخ علي ابن حجازي بن محمد البيومي، الشافعي الخلوتي ثم الأحمدي. ولد تقريبًا سنة 1108 ه، حفظ القرآن في صغره وطلب العلم وحضر دروس الأشياخ وسمع الحديث على عمر بن عبد السلام التطاوني، وتلقن الطريقة الخلوتية من السيد حسين الدمرداشي العادلي وسلك بها مدة ثم أخذ طريق الأحمدية عن جماعة، ثم حصل له جذب ومالت إليه القلوب، وصار للناس فيه اعتقاد عظيم. وانجذبت إليه الأرواح ومشى كثير من الخلق على طريقته وأذكاره، وصار له أتباع ومريدون، وكان يسكن الحسينية، ويعقد حلق الذكر في مسجد الظاهر خارج الحسينية، وكان يقيم به هو وجماعته لقربه من بيته، وكان ذا واردات وفيوضات، وأحواله غريبة. وألف كتبًا عديدة منها شرح الجامع الصغير، وشرح الحكم لابن عطاء الله السكندري، وشرح الإنسان الكامل للجيلي، وله مؤلفات في طريق القوم خصوصًا في طريق الخلوتية الدمرداشية ألفه سنة 1144، وشرح الأربعين النووية، وله كلام عال في التصوف، وإذا تكلم أفصح في البيان، وكان يلبس قميصًا أبيض وطاقية بيضاء، ويعتم عليها بقطعة شملة حمراء لا يزيد على ذلك شتاءً ولا صيفًا، وكان لا يخرج من بيته إلا

في كل أسبوع مرة لزيارة المشهد الحسيني وهو على بغلة، وأتباعه بين يديه وخلفه يعلنون بالتوحيد والذكر، وربما جلس شهورًا لا يجتمع بأحد من الناس. وكانت له كرامات ظاهرة. ولما كان يعقد الذكر بالمشهد الحسيني في كل يوم ثلاثاء ويأتي بجماعته على الصفة المذكورة ويذكرون في الصحن إلى الضحوة الكبرى؛ قامت عليه العلماء وأنكروا ما يحصل من التلوث في الجامع من إقدام جماعته؛ إذ غالبهم كانوا يأتون حفاة ويرفعون أصواتهم بالشدة، وكاد أن يتم لهم منعه بواسطة بعض الأمراء فانبرى لهم الشيخ الشبراوي، وكان شديد الحب في المجاذيب، وانتصر له، وقال للباشا والأمراء: (هذا الرجل من كبار العلماء والأولياء، فلا ينبغي التعرض له). وحينئذ أمره الشيخ بأن يعقد درسًا بالجامع الأزهر، فقرأ في الطيبرسية الأربعين النووية، وحضره غالب العلماء، وقرر لهم ما بهر عقولهم؛ فسكتوا عنه، وخمدت نار الفتنة. قال الجبرتي «ومن كراماته أنه كان يُتَوِّب العصاةَ من قطاع الطريق ويردهم عن حالهم فيصيرون مريدين له، وذا سمِعْته من الثقات، ومنهم من صار من السالكين، وكان تارة يربطهم بسلسلة عظيمة من حديد في عمدان مسجد الظاهر... يؤدبهم بما يقتضيه رأيه. وكان إذا ركب ساروا خلفه بالأسلحة والعصي، وكانت عليه مهابة الملوك. وإذا ورد المشهد الحسيني يغلب عليه الوجد في الذكر حتى يصير كالوحش النافر في غاية القوة فإذا جلس بعد الذكر تراه في غاية الضعف. وكان الجالس يرى وجهه تارة كالوحش وتارة كالعجل وتارة كالغزال. ولما كان بمصر مصطفى باشا مال إليه واعتقده وزاره، فقال له: (إنك ستطلب إلى الصدارة في الوقت الفلاني) فكان كما قال له الشيخ. فلما ولي الصدارة بعث إلى مصر وبنى له المسجد المعروف به بالحسينية وسبيلًا وكتّابًا وقمة وبداخلها مدفن للشيخ علي... ولما مات خرجوا بجنازته وصُلي عليه بالأزهر في مشهد عظيم، ودفن بالقبر الذي بني له بداخل القبة بالمسجد المذكور»، ومات سنة 1183هـ. تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (1/ 381).

القبض عليه، فثارت طوائفه على أتباع الوالي، ومنعوه منهم، وتحركت حميتهم عند ذلك وتجمعوا وانضم إليهم جمع كثير من أهل تلك النواحي وغيرها، وأغلقوا الأسواق والدكاكين، وحضروا إلى الجامع الأزهر ومعهم طبول، وقفلوا أبواب الجامع، وصعدوا على المنارات وهم يصرخون ويصيحون ويضربون على الطبول، وأبطلوا الدروس، فقال لهم «الشيخ العروسي»: (أنا أذهب إلى «إسماعيل بك» في هذا الوقت وأكلمه في عزل الوالي، وتخلَّص منهم بذلك)، وذهب إلى «إسماعيل بك» فاعتذر بأن الوالي ليس من جماعته بل هو من جماعة حسن بك الجداوي، وأمر بعض أتباعه بالذهاب إليه وإخباره بجمع الناس والمشايخ وطلبهم عزل الوالي، فلم يرض بذلك، وقال: (إن كان أنا أعزل الوالي تابعي؛ يعزل هو الآخر الأغا تابعه، ويعزل رضوان كتخدا المجنون من المقاطعة، ويرفع مصطفى كاشف من طرا، ويطرد عسكر القليونجية والأرنؤد) وترددت بينهم الرسل بذلك، ثم ركب «حسن بك» وخرج إلى ناحية العادلية مثل المغضب، وصار أحمد أغا الوالي يركب بجماعة كثيرة ويشق من المدينة ليغيظ العامة، وكذلك يجمع من العامة خلائق كثيرة، ووقع بينه وبينهم بعض مناوشات في مروره، وانجرح بينهم جماعة، وقتل شخصان، ثم ركب المشايخ وذهبوا إلى بيت محمد أفندي البكري وحضر هناك «إسماعيل بك»

وطيب خاطرهم والتزم لهم بعزل الوالي، ومر الوالي في ذلك الوقت على بيت «الشيخ البكري»، وكثيرٌ من العامة مجتمع هناك؛ ففزع فيهم بالسيف وفرق جمعهم وسار من بينهم وذهب في طريقه، ثم زاد الحال وكثرت غوغاء الناس ومشوا طوائف يأمرون بغلق الدكاكين، واجتمع بالأزهر الكثير منهم، واستمرت هذه القضية إلى يوم الثلاثاء ثالث صفر، ثم طلع «إسماعيل بك» والأمراء إلى القلعة واصطلحوا على عزل الوالي والآغا وجعلوهما صنجقين، وقلدوا خلافهما الآغا من طرف «إسماعيل بك» والوالي من طرف «حسن بك»، ونزل الوالي الجديد من الديوان إلى الأزهر، وقابل المشايخ الحاضرين واسترضاهم، ثم ركب إلى بيته وانفض الجمع».

وفي حادثة أخرى سنة (1209هـ - 1795م) قام الشيخ الشرقاوي والسيد عمر مكرم ومن معهما من العلماء بنفس الصنيع تجاه مظالم المماليك، ووقعوا وثيقة تاريخية مع الأمراء ألزموهم فيها بكف المظالم، وعدم المساس بالقضاء، والتزام أحكام الشرع الحنيف، وأعلن المماليك فيها توبتهم من المظالم[1].

وتفصيل هذه الحادثة كما رواها الجبرتي قال: «سنة تسعٍ ومائتين وألف: لم يقع بها شيء من الحوادث الخارجية سوى جور الأمراء وتتابع مظالمهم، واتخذ «مراد بك» الجيزة سكنًا، وزاد في عمارته،

(1) محمود محمد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص: 127-128؛ يوسف القرضاوي، رسالة الأزهر، ص: 37.

واستولى على غالب بلاد الجيزة...

وفي شهر الحجة وقع به من الحوادث: أن الشيخ الشرقاوي له حصفة في قرية بشرقية بلبيس حضر إليه أهلها وشكوا من «محمد بك» الألفي وذكروا أن أتباعه حضروا إليهم وظلموهم وطلبوا منهم ما لا قدرة لهم عليه واستغاثوا بالشيخ؛ فاغتاظ وحضر إلى الأزهر وجمع المشايخ وقفلوا أبواب الجامع، وذلك بعد ما خاطب مراد بك وإبراهيم بك فلم يبديا شيئًا؛ ففعل ذلك في ثاني يوم، وقفلوا الجامع وأمروا الناس بغلق الأسواق والحوانيت ثم ركبوا في ثاني يوم واجتمع عليهم خلق كثير من العامة وتبعوهم وذهبوا إلى بيت الشيخ السادات وأزحم الناس على بيت الشيخ من جهة الباب والبركة بحيث يراهم إبراهيم بك، وقد بلغه اجتماعهم فبعث من قبله أيوب بك الدفتردار فحضر إليهم وسلم عليهم ووقف بين يديهم وسألهم عن مرادهم..

فقالوا له: نريد العدل ورفع الظلم والجور، وإقامة الشرع، وإبطال الحوادث والمكوسات التي ابتدعتموها واحدثتموها..

فقال: لا يمكن الإجابة إلى هذا كله؛ فإننا إن فعلنا ذلك ضاقت علينا المعايش والنفقات..

فقيل له: هذا ليس بعذر عند الله ولا عند الناس، وما الباعث على الإكثار من النفقات وشراء المماليك، والأمير يكون أميرًا بالإعطاء لا بالأخذ..

فقال: حتى أبلغ، وانصرف ولم يعد لهم بجواب، وانفض المجلس وركب المشايخ إلى الجامع الأزهر، واجتمع أهل الأطراف من العامة والرعية وباتوا بالمسجد، وأرسل "إبراهيم بك" إلى المشايخ يعضدهم ويقول لهم: أنا معكم وهذه الأمور على غير خاطري ومرادي، وأرسل إلى "مراد بك" يخيفه عاقبة ذلك؛ فبعث "مراد بك" يقول: أجيبكم إلى جميع ما ذكرتموه إلا شيئين: ديوان بولاق، وطلبكم المنكسر من الجامكية، ونبطل ما عدا ذلك من الحوادث والظلم، وندفع لكم جامكية سنة تاريخه أثلاثًا، ثم طلب أربعة من المشايخ عينهم بأسمائهم؛ فذهبوا إليه بالجيزة، فلاطفهم والتمس منهم السعي في الصلح على ما ذكر، ورجعوا من عنده وباتوا على ذلك تلك الليلة، وفي اليوم الثالث حضر الباشا إلى منزل "إبراهيم بك" واجتمع الأمراء هناك وأرسلوا إلى المشايخ فحضر الشيخ السادات والسيد النقيب والشيخ الشرقاوي والشيخ البكري والشيخ الأمير، وكان المرسل إليهم رضوان كتخدا إبراهيم بك، فذهبوا معه ومنعوا العامة من السعي خلفهم، ودار الكلام بينهم وطال الحديث وانحط الأمر على أنهم تابوا ورجعوا والتزموا بما شرطه العلماء عليهم وانعقد الصلح على أن يدفعوا سبعمائة وخمسين كيسًا موزعة، وعلى أن يرسلوا غلال الحرمين ويصرفوا غلال الشون وأموال الرزق ويبطلوا رفع المظالم المحدثة والكشوفيات والتفاريد والمكوس ما عدا ديوان بولاق، وأن يكفوا أتباعهم عن امتداد أيديهم إلى أموال الناس ويرسلوا صرة الحرمين والموائد المقررة من قديم الزمان ويسيروا في الناس سيرة حسنة، وكان القاضي حاضرًا بالمجلس؛ فكتب حجة عليهم بذلك وفَرْمَنَ عليها الباشا، وختم عليها "إبراهيم بك" وأرسلها إلى "مراد بك"؛

فختم عليها أيضًا، وانجلت الفتنة ورجع المشايخ وحول كل واحد منهم وأمامه وخلفه جملة عظيمة من العامة وهم ينادون حسب ما رسم ساداتنا العلماء بأن جميع المظالم والحوادث والمكوس بطالة من مملكة الديار المصرية، وفرح الناس وظنوا صحته وفتحت الأسواق وسكن الحال على ذلك نحو شهر» (1).

ونلاحظ في هذه المطالب: أن العامة سلمت قيادتها إلى العلماء بصورة طبيعية، علمًا بأنه كانت هناك في الدولة العثمانية أشكال تنظيمية لممارسي الحرف وأنواع التجارة، فلكل حرفة نقابة لها (شيخ كار)، على أن العامة في الملمات كانت تتجمع تحت قيادة العلماء، وفي القاهرة كان المركز الأساسي لهؤلاء هو الأزهر كما هو معلوم (2).

فكان للأزهر الشريف ورجاله موقع محوري في التنظيم الاجتماعي والسياسي في عهد المماليك؛ حيث كان الأزهر واسطة العقد التي تصل بين طبقة الحكام (المماليك) (3) وعامة الشعب.

---

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 166- 167) بتصرف.

(2) محمد الشاويش، نهضات مجهضة، ص 21.

(3) كان المماليك ينفردون بحكم مصر قبل دخول العثمانيين، وبعد دخول العثمانيين، وهزيمة طومان باي في موقعة مرج دابق، انحسر نفوذ المماليك في السلطة، وصار لمصر والٍ يعينه الباب العالي بمنشور يصدر من الآستانة، لكن سرعان ما استطاع المماليك أن يستعيدوا زمام السلطة الفعلية ويجعلوا سلطة الوالي العثماني (الباشا) سلطة شكلية تعبر عن رابطة الوحدة التي تربط مصر بدولة الخلافة، وبهذا يثبت زيف المزاعم التي يدعي أصحابها أن مصر كانت مستعمرة عثمانية

ولم تكن قوة المشايخ شكلية بحال، فكانت لديهم القدرة على تحريك العامة وإصابة البلاد بالشلل التام: إما بالتوقف عن الإنتاج والتوقف عن ممارسة الشعائر الدينية، أو حتى بقيادة مقاومة مسلحة. هذه القدرة كانت عاملًا لا يمكن لأي أمير عاقل أن يغفله، أو يسمح لخصومه بالاستفادة منه في لعبة السلطة. ولم يكن المشايخ يجهلون قوتهم ولا عدمت مصر في أحلك العصور شيخًا صريحًا لا يخاف في الحق لومة أمير، ولا حتى السلطان ذاته[1].

ومن هنا فأي تهتك فكري أن يأتي كاتب يدعي أنه مؤرخ فيزعم أن المشايخ لم يشتركوا في قضايا المجتمع ولم ينالوا مكانة إلا بفضل الديوان الذي اخترعه نابليون؟[2].

ولا شك أن الدور القيادي للمشايخ يعود إلى العقلية الإسلامية المتفوقة على انهيار العصر، وإلى الفهم الإسلامي المتقدم لدور الدين ورسالته في حياة الناس.. فهم لم يكونوا – قط – رجال كهنوت منعزلين عن مجرى الحياة العامة، ولا كانوا –كما تصورهم بعض الأقلام المعاصرة– غارقين في الروحانيات لا يعلمون عن العلوم الوضعية وأحوال المادة شيئًا، ولا يقبلون أن يدرسوا هذه العلوم أو أن تدرس في الأزهر، بل سيرة علماء الأزهر حافلة بنماذج عديدة استطاعت أن

وقت دخول الحملة الفرنسية، وأن الاستعمار الفرنسي (المتقدم) كان خيرًا لها من الاستعمار العثماني (المتخلف). ودخلت الخيل الأزهر ص 58.

(1) ودخلت الخيل الأزهر ص 77.

(2) ودخلت الخيل الأزهر ص 87.

تجمع بين دراسة العلوم الشرعية والعلوم الطبيعية، ومنهم من كان يدرِّس كلا النوعين من العلوم[1].

فضلًا عن هذا، كان الأزهر الشريف يضطلع بمهمتي التشريع والقضاء، أي: إن الأزهر الشريف كان يتولى سلطتي التشريع والقضاء بينما يتولى المماليك السلطة التنفيذية؛ وقد وصف الأستاذ محمد جلال كشك عملية اقتسام السلطة بين الأزهر والمماليك، ويحسن أن أنقل عبارته كاملة لأهميتها، فقال - رحمه الله تعالى -: «فالسلطة هي حق مطلق للماليك، لهم وحدهم حق نهب البلاد، مقابل توفير الأمن الداخلي والخارجي، والشيوخ يقيمون الشريعة ويحددون ما هو قانوني، وما هو ضد الشرع، ويتولون قيادة العامة والدفاع عن مصالحهم، ومن خلالهم - وحدهم - يحق للعامة أن يخاطبوا السلطة، ويحق للسلطة أن تتصل بالعامة.

وليس للسلطة أن تتعدى على الشيوخ، أو أن تهين الشرع كما يحدده ويفهمه هؤلاء الشيوخ، أو أن تتدخل في التشريع، وليس للمماليك أن يتجاوزوا في نهبهم للعامة حدًّا معينًا، وإلا ثار العامة، وطالبوا الشيوخ بأداء واجبهم، عندها يقود الشيوخ حركة مقاومة تتفاوت.. من منع الأذان، أو الأذان في غير أوقات الصلاة.. إلى القتال الحقيقي.. أو شن ما يمكن وصفه بثورة.

---

(1) ودخلت الخيل الأزهر ص 91.

وليس للمماليك أن ينقلوا قتالهم على السلطة إلى حياة العامة؛ لأن ذلك يهدد حياة الجماهير، ويعطل إنتاجها... فلما طال قتال (إسماعيل بك) ضد الشقيين (إبراهيم ومراد).. وجبن (إسماعيل بك) عن الخروج إليهم، وعجزا هم عن احتلال القاهرة؛ تعطلت الأحوال ووقع «ضيق في المعايش، وانقطاع للطرق، وعدم أمن، ووقوف العربان، ومنع السبل، وتعطيل أسباب، وعسر في الأسفار برًّا وبحرًا، فاقتضى رأي الشيخ العروسي أنه يجتمع مع المشايخ ويركبون إلى الباشا ويتكلمون معه في شأن هذا الحال»

فلما زعم (إسماعيل بك) أنه مكلف من السلطان بمحاربة (إبراهيم ومراد) رد عليه الشيخ (العروسي): «وما المانع لكم من الخروج وقد ضاق الحال بالناس؟ ولا يقدر أحد من الناس أن يصل إلى بحر النيل وقربة الماء بخمسة عشر نصف فضة، وحضرة «إسماعيل بك» مشتغل ببناء حيطان ومتاريس، وهذه ليست طريقة المصريين في الحروب، بل طريقتهم المصادمة وانفصال الحرب في ساعة: إما غالب وإما مغلوب، وأما هذا الحال فإنه يستدعي طولًا، وذلك يقتضي الخراب والتعطيل ووقف الحال»»[1].

وتحليل هذا النص نستخلص منه الحقائق الآتية:

أن وظيفة مشايخ الأزهر كانت وظيفة مركبة لا تنحصر في التعليم والدعوة والإفتاء - كما يراد للأزهر في العصر الحاضر - وإنما كان

(1) ودخلت الخيل الأزهر 73-74.

الأزهر يقوم بالوظائف الأربعة التي تقوم بها السلطة التشريعية لمنع طغيان السلطة التنفيذية، وهي: الرقابة والنيابة والتشريع والمساءلة، وكانت الطبقة الحاكمة تذعن لقيام الأزهر بهذه المهام رغم أنها تتعرض للحرج البالغ جراء هذا الإذعان.

كما كان يقوم الأزهر بما يشبه الدور النقابي العام، حيث توجد قيادات نقابية تدافع من مصالح الطبقة التي ارتضتها معبرة عنها ومدافعة عن حقوقها.

أن الأزهر الشريف كان يضطلع بوظيفة إعلامية أقرب ما تكون إلى ما يسمى في العصر الحاضر ب(إعلام الجماهير)؛ وكانت مآذن الأزهر الشريف هي مركز البث الرئيس لهذا الكيان الإعلامي الشعبي.

أن رجال الأزهر كانوا على دراية بالقوانين والأعراف السائدة بما فيها الأعراف السياسية والعسكرية، وقد ظهر هذا في موقف الشيخ العروسي حين احتج على (إسماعيل باشا) بمخالفته لطبيعة الحرب عند المصريين؛ مما ألحق الضرر بحياة العامة ومعايشهم.

أن التنظيم السياسي والاجتماعي في هذا الوقت عرف مبدأ الفصل بين السلطة التنفيذية وبين السلطتين التشريعية والقضائية.

أن دفاع الأزهر عن حقوق عامة الشعب لم ينحصر في مخاطبة السلطة بمطالب العامة، بل تعدى هذا إلى صور متدرجة من المقاومة تبدأ بالتهديد وتصل إلى إعلان الحرب على السلطة الظالمة وحشد عامة الشعب للاشتباك المباشر تحت قيادة مشايخ الأزهر.

وفي ظني أن طلاب الأزهر كان لهم دور مهم في قيادة هذه الهبات الشعبية، بل يمكن القول إن القيادة المباشرة لعامة الناس كان يقوم بها الطلبة وصغار المشايخ، بينما كان كبار المشايخ يقومون بالتوجيه وإصدار القرارات.

وقد ظهر هذا الدور جليًّا في عمليات المقاومة والثورة ضد الاحتلال الفرنسي؛ حيث كان الطلبة وصغار المشايخ يقودون عامة الشعب.

أن الأزهريين عرفوا آليات الإضراب والعصيان المدني باعتبارها من صور المقاومة الفعالة في التصدي لمظالم الحكام، وكانوا يبدءون بأنفسهم؛ حيث كانوا يعطلون الدراسة وبعض الشعائر؛ لتنبيه العامة وحشدهم، أو لإعلان النفير العام، فكان الإضراب والعصيان المدني من وسائل الحشد الإعلامي إضافة إلى كونهما من وسائل الضغط الثوري.

ومن صور المقاومة التي استعملها الأزهريون: تحرير المسجونين من قبضة الأمراء، ويظهر هذا في حادثة تحرير الشيخ عبد الباقي من سجن الأمير (يوسف بك الكبير) الذي كان يناصب المشايخ العداء، وتمام القصة كما أوردها الجبرتي أن «الشيخ عبد الباقي ابن الشيخ عبد الوهاب العفيفي طلق على زوج بنت أخيه في غيابه، على يد الشيخ حسن الجداوى المالكي على قاعدة مذهبه، وزوجها من آخر وحضر زوجها من الفيوم وذهب إلى ذلك الأمير وشكا إليه الشيخَ عبد الباقي؛ فطلبه فوجده غائبًا في منية عفيف، فأرسل إليه أعوانًا أهانوه وقبضوا

عليه ووضعوا الحديد في رقبته ورجليه وأحضروه في صورة منكرة وحبسه في حاصل أرباب الجرائم من الفلاحين. فركب الشيخ علي الصعيدي العدوى والشيخ الجداوى وجماعة كثيرة من المتعممين وذهبوا إليه وخاطبه الشيخ الصعيدي فقال له: هذا قول في مذهب المالكية معمول به..

فقال: من يقول: إن المرأة تطلق زوجها إذا غاب عنها وعندها ما تنفقه وما تصرفه ووكيله يعطيها ما تطلبه، ثم يأتي من غيبته فيجدها مع غيره؟!

فقالوا له: نحن أعلم بالأحكام الشرعية.

فقال: لو رأيت الشيخ الذي فسخ النكاح!

فقال "الشيخ الجداوى": أنا الذي فسخت النكاح على قاعدة مذهبي.

فقام على أقدامه وصرخ وقال: - والله - أكسر رأسك.

فصرخ عليه "الشيخ علي الصعيدي" وسبه وقال له: لعنك الله ولعن اليسرجي[1] الذي جاء بك ومن باعك ومن اشتراك ومن جعلك أميرًا.

فتوسط بينهم الحاضرون من الأمراء يُسَكِّنُون حدته وحدتهم وأحضروا الشيخ عبد الباقي من الحبس فأخذوه وخرجوا وهم يسبونه وهو يسمعهم» [2].

ولم يقتصر حرص علماء الأزهر على تحرير المشايخ، بل إن نبل

(1) تاجر العبيد.

(2) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (1/ 512)

المشايخ اتسع ليشمل تحرير نساء أمراء المماليك مع أن المماليك يعدون منافسين للمشايخ، فيحكي الجبرتي في حوادث سنة 1219ه: «وفي يوم الاثنين أرسل الباشا الواليَ والمحتسبَ إلى بيت الست نفيسة زوجة «مراد بك» وطلبها فركبت معهما وصحبتهما امرأتان، فطلعا بهن إلى القلعة وكذلك أرسلوا بالتفتيش على باقي نساء الأمراء فاختفى غالبهن وقبضوا على بعضهن، وذلك كله بعد عصر ذلك اليوم، فلما حصلت الست نفيسة بين يديه قام إليها وأجلَّها ثم أمرها بالجلوس وقال لها على طريق اللوم: (يصح أن جاريتك «منور» تتكلم مع مصادق آغا وتقول له: يسعى في أمر المماليك العصاة، وتلتزم له بالمكسور من جامكية العسكر؟) فأجابته: (إن ثبت أن جاريتي قالت ذلك فأنا المأخوذة به دونها)، فأخرج من جيبه ورقة وقال لها: (وهذه؟) وأشار إلى الورقة، فقالت: (وما هذه الورقة؟ أرنيها؛ فإني أعرف أن أقرأ لأنظر ما هي) فأدخلها ثانيًا في جيبه. ثم قالت له: (أنا بطول ما عشت بمصر وقدري معلوم عند الأكابر وخلافهم، والسلطان ورجال الدولة وحريمهم يعرفونني أكثر من معرفتي بك، ولقد مرت بنا دولة الفرنسيس - الذين هم أعداء الدين- فما رأيت منهم إلا التكريم، وكذلك سيدي محمد باشا كان يعرفني ويعرف قدري ولم نرَ منه إلا المعروف، وأما أنت فلم يوافق فعلك فعل أهل دولتك ولا غيرهم). فقال: (ونحن أيضًا لا نفعل غير المناسب). فقالت له: (وأي مناسبة في أخذك لي من بيتي بالوالي مثل أرباب الجرائم؟)، فقال: (أنا أرسلته لكونه أكبر أتباعي؛ فإرساله من باب التعظيم) ثم اعتذر إليها وأمرها بالتوجه إلى

بيت الشيخ السحيمي بالقلعة وأجلسوها عنده بجماعة من العسكر وأصبح الخبر شائعًا بذلك؛ فتكدرت خواطر الناس لذلك، وركب القاضي ونقيب الأشراف والشيخ السادات والشيخ الأمير وطلعوا إلى الباشا وكلموه في أمرها فقال: (لا بأس عليها وإني أنزلتها ببيت الشيخ السحيمي مكرمة حسمًا للفتنة؛ لأنها حصل منها ما يوجب الحجز عليها). فقالوا: (نريد بيان الذنب وبعد ذلك إما العفو أو الانتقام) فقال: (إنها سعت مع بعض كبار العسكر تستميلهم إلى المماليك العصاة ووعدتهم بدفع علوفاتهم، وحيث إنها تقدر على دفع العلوفة فينبغي أنها تدفع العلوفة) فقالوا له: (إن ثبت عليها ذلك فإنها تستحق ما تأمرون به فيحتاج أن تتفحص على ذلك) فقام إليها الفيومي والمهدى وخاطباها في ذلك فقالت: (هذا الكلام لا أصل له وليس لي في المصرلية[1] زوج حتى إني أخاطر بسببه، فإن كان قصده مصادرتي فلم يبق عندي شيء وعليّ ديون كثيرة) فعادوا إليه وتكلموا معه وراددهم فقال الشيخ الأمير للترجمان: (قل لأفندينا: هذا أمر غير مناسب ويترتب عليه مفاسد وبعد ذلك يتوجه علينا اللوم فإن كان كذلك فلا علاقة لنا بشيء من هذا الوقت أو نخرج من هذه البلدة) وقام قائمًا على حيله يريد الذهاب؛ فأمسكه مصطفى أغا الوكيل وخلافه وكلموا الباشا في إطلاقها وأنها تقيم ببيت الشيخ السادات؛ فرضي بذلك وأنزلوها ببيت الشيخ السادات»[2].

(1) تعني: في المماليك.

(2) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (2/ 656)

ولا يخفى أن هذا الموقع المحوري للأزهر في التنظيم الاجتماعي والسياسي؛ قد مكنه من القيام بدور مهم في عملية المقاومة الحضارية سواء ضد مظالم الحكام المماليك، أو ضد الاحتلال الفرنسي في وقت لاحق ظهر فيه من استبسال الأزهرين في المقاومة والجهاد ما سطره التاريخ بأحرف من نور.

أولًا: الأزهر و(الفرنسيس):

للأزهر مع الاستعمار الفرنسي صولات وجولات أظهر فيها الأزهر ورجاله مقاومة صلبة كان لها الفضل في الحفاظ على كيان الأمة من تلك الهجمة الاستعمارية.

فقد «كان الأزهر هو رمز سيادة الأمة، ومركز قيادتها، وما إن سقطت الدولة المصرية في معركة إمبابة حتى أصبح الغازي المحتل والأزهر وجهًا لوجه، فقاد الأزهر مقاومة الأمة على جميع المستويات: من المقاومة السلبية التي قادها الشيوخ الكبار داخل مجالس «نابليون» وداخل التشكيلات الإدارية التي أقامها لحكم البلاد، إلى المقاومة الوطنية العنيفة التي قادها الشيوخ الصغار بتنظيم حركات سرية وأعمال المقاومة الشعبية - التي وصلت ذروتها بتنفيذ أهم ثورتين عرفهما الشرق في ذلك الوقت - إلى أعمال الاغتيال التي نظمها ونفذها - بنجاح - طلبة الأزهر.

كان الأزهر يمثل الكيان المتميز لهذه الأمة، يمثل ذاتها وتراثها وإمكانية مستقبلها، وأدرك المحتلون ذلك كله؛ لذا نراهم في نفس الوقت الذي

يجرون فيه المفاوضات والمساومات مع الباب العالي بهدف التفاهم معه ويعقدون الاتفاقيات مع فلول المماليك، ويصبح كبيرهم «مراد بك» بمثابة موظف أو قائد قوة بوليسية تابعة للمحتل الفرنسي، في نفس الوقت كان الصدام يتصاعد يوميًّا بين جيش الاحتلال أو السلطة الفرنسية وبين الأزهر، وانتهى ذلك الصراع بإغلاق الأزهر وتسمير أبوابه بعد مصرع «كليبر»[1].

لقد سقطت مصر خلال ساعات عندما كان أمراء المماليك يتولون الدفاع عنها، ودخل «نابليون» القاهرة سعيدًا مستبشرًا حالِمًا بإمبراطورية الإسكندر، فلما برز الأزهر؛ لأنه هو وحده الذي بقي في الساحة، وتحمل شيوخه المنتشرون في كل قرية مصرية بالوجود أو بالفكر أو بالتوقير مسئولية قيادة مقاومة الأمة - لم يبت جيش الاحتلال ليلة واحدة هادئة طوال ثلاث سنوات، ولم يسجل تاريخ الشعوب الشرقية قبل مقاومة الشعب المصري ولسنوات أخرى عديدة بعدها مثل هذه المقاومة العامة والشاملة للوجود الغربي التي شهدتها مصر في الفترة من[2] 1798-1801.

مناقشة لمنهج منحرف في التأريخ للأزهر:

كان من المراجع التي طالعتها: كتاب (الأزهر الشيخ والمشيخة) للكاتب حلمي النمنم، وقد هالني ابتعاد الكاتب عن الموضوعية في تناول تاريخ الأزهر ورجاله؛ لأن الكاتب صرف جل عنايته إلى تتبع زلات بعض

(1) ودخلت الخيل الأزهر ص 16.

(2) ودخلت الخيل الأزهر ص 17.

المشايخ، مع إهمال الكثير من المواقف المهمة التي تظهر حقيقة الدور الأزهري في الفترات الزمنية التي أرخ لها، بحيث يخرج القارئ بانطباع يجافي الحقيقة، وتصور ينتقص من المشايخ، فأحببت أن أسجل هنا اعتراضي على المنهج الذي سلكه هذا الكاتب؛ لأن كتابه طبع على نفقة الدولة ضمن مطبوعات مكتبة الأسرة، وهو الأمر الذي يكفل له قدرًا من الانتشار والثقة التي لا يستحقها في تقديري؛ لمجافاة منهجه القواعد العلمية.

ثانيًا: عناصر القوة الأزهرية:

بالتأمل في حال الأزهر الشريف في هذه الحقب التاريخية نستنتج أن الأزهر الشريف كان يتمتع بعناصر قوة مكنته من أداء هذا الدور الاجتماعي في حماية الشعب ونصرة المظلوم، وهذه العناصر هي:

كون الأزهر الشريف مؤسسة من مؤسسات المجتمع، لا من مؤسسات الدولة[1]؛ مما حفظ للأزهر الشريف استقلاله.

وكان من مظاهر هذا الاستقلال أن الأمراء كانوا إذا تدخلوا في تعيين شيخ الأزهر أبطل المشايخ تدبيرهم، وثاروا عليهم، فلما تدخل «إبراهيم بك» وحاول تعيين «الشيخ عبد الرحمن بن عمر العريشي الحنفي» «كاد يتم الأمر، فانتدب لنقض ذلك بعض الشافعية الخاملين وذهبوا إلى «الشيخ محمد الجوهري» وساعدهم وركب معهم إلى بيت الشيخ البكرى وجمعوا عليهم جملة من أكابر الشافعية...

(1) من هنا ندرك أن تحويل الأزهر إلى مؤسسة من مؤسسات الدولة – بعد أن كان مؤسسة من مؤسسات المجتمع – كان من التغييرات الكبرى التي أثرت تأثيرًا سلبيًّا في الدور التاريخي للأزهر الشريف.

وكتبوا عرضحال إلى الأمراء... وإنهم اتفقوا على أن يكون المتعين لذلك الشيخ أحمد العروسي وختم الحاضرون على ذلك العرضحال وأرسلوه إلى إبراهيم بك ومراد بك، فتوقفوا وأبوا وثارت فيهم العصبية وشددوا في عدم النقض، ورجع الجواب للمشايخ بذلك؛ فقاموا على ساق، وشدد الشيخ محمد الجوهري في ذلك وركبوا بأجمعهم... وجلسوا بجامع الإمام الشافعي وباتوا به، وكان ذلك ليلة الجمعة واجتماع الناس للزيارة، فهرعت الناس واجتمع الكثير من العامة ينظرون فيما يؤول إليه هذا الأمر، وكان للأمراء اعتقاد وميل للشيخ محمد ابن الجوهري، وكذلك نساؤهم وأغواتهم؛ بسبب تعففه عنهم وعدم دخول بيوتهم ورد صلاتهم وتميزه بذلك عن جميع المتعممين، فسعى أكثرهم في إنفاذ غرضه وراجعوا «مراد بك» وأوهموه حصول العطب له ولهم أو ثوران فتنة في البلد[1]».

وانتهى الأمر بتولية الشيخ العروسي الشافعي، وفشلت محاولات الأمراء لتولية الشيخ العريشي الحنفي الذي ينتمي إلى مذهبهم؛ فانتهى الحال إلى احترام التقليد الذي جرى عليه العمل في الأزهر[2].

ب- تولي شيخ الأزهر المنصب بالانتخاب من هيئة كبار العلماء.

ج- استقلال الأوقاف: فصار العالم بمأمن من التهديد في رزقه إذا رأى رأيًا لا يوافق هوى السلطة.

---

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (1/ 542).

(2) ودخلت الخيل الأزهر ص 84.

د- انفراد الأزهر بصياغة نظام التعليم في مصر: وذلك قبل إنشاء التعليم المدني[1].

هـ- سيطرة الأزهر على القضاء: والقضاء كله كان شرعيًّا قبل إدخال القوانين الوضعية والمحاكم المختلطة، وكان هذا يجعل من خريج الأزهر ضمن النخبة، ويمنح الأزهر قسمًا من السلطة والنفوذ.

تراجع المكانة الأزهرية:

لا يخفى على متابع أن مكانة الأزهر الشريف وقدرته على التأثير وقيادة العامة قد تراجعت عما كانت عليه في السابق، وتراجع مكانة الأزهر الشريف من الأمور التي تؤرق كل باحث غيور يتطلع لتعزيز مكانة الأزهر الشريف وعودته لما كان عليه من تبنٍّ إيجابي فعال لقضايا الأمة وتطلعات جماهيرها، وقدرة على النضال في سبيل تحقيقها، وذلك لأن الأزهر الشريف يعد - في الحالة المصرية - أهم الجماعات الوسيطة التي من شأنها أن تُكسِب المجتمع المدني قوة ومناعة تحولان دون تغول الدولة الحديثة - بإمكاناتها الرهيبة - على المجتمع.

وتراجعُ هذه الجماعات الوسيطة ينذر بخطر داهم على منظومة الحقوق والحريات، ويمهد لحصول الاستبداد المدعوم بإمكانات يتضاءل أمامها ما كان يمتلكه فرعون نفسه من فرص لفرض الحكم

(1) محمود شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص: 142- 147؛ عبد المتعال الصعيدي، تاريخ الإصلاح في الأزهر ص: 16.

المطلق والعصف بدولة القانون، على حد تعبير أستاذنا البشري.

وقد اهتم عدد من الباحثين بالتأريخ لتراجع مكانة الأزهر، وهذا بحث على قدر كبير من الأهمية؛ لأنه يفيد في التبصر بالأسباب والعوامل التي مهدت لهذا التراجع، وهذا التبصر شرط لازم لوضع تصور صحيح عما ينبغي أن يكون عليه المنهج السليم لاستعادة هذه المؤسسة العريقة مكانتها اللائقة بحجمها وتاريخها.

التدجين وتضعضع مقومات المقاومة الحضارية الأزهرية:

يعود تاريخ صياغة هذا المصطلح (التدجين) للعلامة الأديب الأستاذ/ «محمود شاكر» - رحمه الله تعالى - حيث تحدث باستفاضة عنه في كتبه، واصفًا عملية الاحتواء التي حاول القيام بها «نابليون» إبان دخول الحملة الفرنسية إلى مصر.

فقد «كانت الحملة الفرنسية هي طليعة الاستعمارية الغربية، وكانت تجربةُ السنوات الثلاث التي قضتها في مصر كافيةً لإقناع هذه الاستعمارية بأنه ما لم تتم تصفية الدور القيادي الذي يلعبه الأزهر؛ فلن يمكن لأي استعمار غربي أن يستقر على ضفاف النيل[1]».

ويرى الأستاذ «محمد جلال كشك» أن مكانة الأزهر الشريف لم يتطاول عليها ولم تمتهن إلا على يد «نابليون» وجيش الاحتلال

(1) محمد جلال كشك، ودخلت الخيل الأزهر، ص: 15، الزهراء للإعلام العربي، الطبعة الثالثة.

الفرنسي إلى أن أنجز المهمة الحكم المتغرب الذي بدأه «محمد علي» وأكمله من جاءوا بعده[1].

ويرى الأستاذ/ «محمود شاكر» أن أول محاولة للإضعاف من قوة الأزهر واستقلاله كانت من «نابليون» حين أنشأ الديوان؛ لمعاونته في إدارة البلاد[2]، وقبِل الشيخ الشرقاوي وثمانية من المشايخ بالمشاركة

(1) ودخلت الخيل الأزهر ص 81.

(2) كان ذلك يوم الخميس 13 من صفر، سنة 1213هـ، وقد وقع الاتفاق على انتخاب الشيخ: عبد الله الشرقاوي، والشيخ: خليل البكري، والشيخ: مصطفى الصاوي، والشيخ: سليمان الفيومي، والشيخ: محمد المهدي، والشيخ: موسى السرسي، والشيخ: مصطفى الدمنهوري، والشيخ: أحمد العريشي، والشيخ: يوسف الشبراخيتي، والشيخ: محمد الدواخلي، ثم انتخب الشيخ: عبد الله الشرقاوي رئيسًا له.

ثم إن هذا الديوان قد عُطِّلَ في أثناء المفاوضات التي كانت قائمةً بين الفرنسيين والأتراك؛ لعقد معاهدة العريش، فقد كان الفرنسيون يعتزمون الرحيل إذا نفذت المعاهدة، ولكنها نقضت، ولم يفكر «كليبر» في إعادة الديوان، فلما قُتِلَ، وآلت القيادة إلى «مينو» أعاد الديوان في صورة أخرى، وعلى ترتيبٍ جديد؛ إذ أصبح مكونًا من تسعة أعضاء، وهم: الشيخ: عبد الله الشرقاوي، رئيس الديوان، والمهدي كاتب السر، والشيخ: الأمير، والشيخ: الصاوي، وكاتبه، والشيخ: موسى السرسي، والشيخ: خليل البكري، والسيد: علي الرشيدي، نسيب ساري عسكر، والشيخ: الفيومي، والقاضي الشيخ: إسماعيل الزرقان، وكاتب سلسلة التاريخ، السيد: إسماعيل الخشاب، والشيخ: علي كاتب غربي.

ثم أجريت القرعة، فكان الشيخ الشرقاوي رئيسًا، والشيخ المهدي كاتبًا للسرِّ،

فيه؛ خشية من تدمير القاهرة لو رفض المشايخ هذا الطلب، خاصة بعد فرار المماليك وترك القاهرة بلا حامٍ من العسكر.

غير أن صغار الطلبة وفريقًا من العلماء رفضوا هذه المشاركة، وعدوا هذا اعترافًا بالمستعمر، وتقليلًا من شأن الأزهر وعلمائه؛ إذ يجعل الأزهر تابعًا مرءوسًا، وتأيد رأيهم بأن المشاركة في الديوان لم تمنع الفرنسيين من اجتياح القاهرة وتدنيس الأزهر لما اندلعت ثورة القاهرة الأولى[1].

قال الأستاذ محمود شاكر:

«فإن تدجين المشايخ الكبار في (الديوان)، لم يمنع الثورة أن تقوم، وذلك لأن (المشايخ الكبار) لهم عند عامة المسلمين، هيبة العلم، وطاعتهم واجبة علينا فيما هو طاعة لله ولرسوله.. ولكن هيبة العلم ليست بمانعة جماهير الأمة من عصيانهم وترك طاعتهم إذا خالفوا صريح أوامر الله وأوامر رسوله - ﷺ - بقتال الغزاة لدار الإسلام، فإن قتال الغزاة عند المسلمين واجب وفرض عين على كل قادر على القتال، إلا في حالة واحدة: أن يخافوا أن يصطلمهم[2] العدو؛

وكان بجانب الديوان الأول ديوانٌ آخر سُمِّيَ محكمة القضايا؛ للنظر في قضايا التجار والعامة. الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة (1/ 45).

(1) محمود محمد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص: 128-135، ط: مكتبة الأسرة.

(2) يبيدهم. والصَّلْمُ: قَطْعُ الأَنْفِ من أصلِه. واصطُلِمَ القومُ اذا أُبيدوا من أصلِهم. العين (7/ 129).

لقلة عددهم وكثرة عدد العدو.. فجائز عندئذ أن يلقوا إليهم السّلم، بيد أن في قتالهم الشهادة، وهي إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة[1].»

وكثيرًا ما كان الفرنسيون يذيعون -كلما اقتضى الحال- باسم العلماء نداءات ومنشوراتٍ؛ لتهدأ بها العواصف وتسكن الفتن، ومن ذلك ما كُتِبَ في شهر جمادى الآخرة سنة 1213هـ، ووزع في مختلف الأمكنة "نصيحةً من كافة علماء الإسلام بمصر المحروسة، نعوذ بالله من الفتن، ما ظهر منها وما بطن، عليكم ألّا تحركوا الفتن، ولا تطيعوا المفسدين، ولا تسمعوا كلام المنافقين، ولا تتبعوا الشرار، ولا تكونوا من الخاسرين، سفهاء العقول الذين لا يقرءون العواقب؛ لأجل أن تحفظوا أوطانكم، وتطمئنوا على عيالكم ودنياكم، فإن الله -سبحانه وتعالى- يولي ملكه من يشاء، ويحكم ما يريد، ونخبركم أن كل من تسبب في تحريك هذه الفتنة قتلوا عن آخرهم، وأراح الله منهم العباد والبلاد، ونصيحتنا لكم: ألا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة، وانشغلوا بأسباب معايشكم وأمور دينكم، وادفعوا الخراج الذي عليكم، والدين النصيحة، والسلام".

وكثير من أمثال هذه النداءات كان الفرنسيون يذيعونها باسم علماء الأزهر، كما كانوا يذيعون ما يتخذ في الديوان من قراراتٍ يراها أعضاؤه، فتكون سببًا في إسكان القلاقل[2].

ويرى الأستاذ «محمد جلال كشك» أن مشاركة كبار المشايخ في الديوان والتشكيلات الإدارية كان نوعًا من أنواع المقاومة السلبية،

(1) المرجع السابق.

(2) الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة (1/ 46).

وتوازيها المقاومة الوطنية العنيفة التي قام بها الطلبة وصغار المشايخ وبلغت ذروتها في ثورتي القاهرة وأعمال الاغتيال التي شنها المقاومون الأزهريون ضد الاحتلال الفرنسي[1].

لكن اعتذار الأستاذ كشك لمشايخ الديوان - بأن مشاركتهم كانت نوعًا من المقاومة السلبية - لا يناقض حقيقة أن مشاركة كبار المشايخ في الديوان، واستغلال هذا الديوان في إذاعة بيانات الحملة الفرنسية؛ قد أثر تأثيرًا سلبيًّا على صورة المشايخ المشاركين، وأفقدهم قدرًا من الثقة الشعبية، الأمر الذي حمل الشعب على انتخاب ديوان شعبي اتخذ شكل التنظيمات السرية، وكان هذا الديوان مسئولًا عن تأجيج ثورة القاهرة الأولى في 21 أكتوبر 1798.

ويقول الرافعي: إن ديوان الشعب هذا قد نظم حملة دعائية ناجحة ضد أعضاء الديوان الرسمي واتهموهم بممالأة الفرنسيين؛ حتى لا يستمع الجمهور لنصائحهم في الإخلاد إلى السكينة، وقد أفلحوا في إحراج مركز أعضاء الديوان فأخذت منزلتهم تتضعضع في نفوس الشعب[2].

الأزهر و(الباشا):

في عهد «محمد علي» طرأت متغيرات أضعفت من قوة الأزهر الشريف؛ حيث نقض محمد علي اتفاقه مع المشايخ على أن يحكم

(1) ينظر: محمد جلال كشك، ودخلت الخيل الأزهر، ص: 15، الزهراء للإعلام العربي، الطبعة الثالثة.

(2) ودخلت الخيل الأزهر ص 212.

بالمشورة مع أهل العلم، واستبد محمد علي بالأمر بعد أن تخلص من نفوذ المماليك في مذبحة القلعة، والتفت بعد ذلك للقضاء على نفوذ المشايخ (فصل العلماء عن مساحات التغيير والتأثير[1])، وسلك محمد علي مع المشايخ مسالك مختلفة؛ تبعًا لاختلاف شخصياتهم، فاستمال بعضهم، واضطهد من استعصى على محاولات الاستمالة من أمثال السيد «عمر مكرم» الذي كان محمد علي يغار منه؛ لأنه كان الزعيم الشعبي الذي التف حوله عامة الناس، وسلموه زمام القيادة منذ جلاء الفرنسيين، وكان محمد علي يتطلع إلى تقويض نفوذه، فبدأ بمحاولة استمالته بمرتب شهري؛ حتى يسكت عن معارضة سياسات محمد علي التي أثقلت كاهل الشعب، فلما أبى السيد عمر؛ عزله محمد علي عن نقابة الأشراف، ونفاه إلى دمياط[2].

وكان مما يؤسف له أن أغلب المشايخ قد ساعدوا محمد علي على عزل السيد عمر مكرم بتأييد هذا القرار والتوقيع على مذكرة كيدية موجهة للباب العالي فيها اتهامات للسيد عمر مكرم بإثارة الفتنة في البلاد.

وقد ثبتت قلة من المشايخ على الحق، فضربوا مثلًا رائعًا من أمثلة المقاومة الحضارية لظلم أولي الأمر، وقد ذكر الجبرتي منهم «الشيخ أحمد الطحطاوي» مفتي الحنفية الذي رفض التوقيع على هذه المذكرة، وتحمل أن يدفع ثمن موقفه البطولي صابرًا محتسبًا؛ حيث عزله الباشا

(1) أو تصفية النخبة المثقفة على حد تعبير الأستاذ محمد جلال كشك، ينظر: ودخلت الخيل الأزهر ص 18.

(2) محمد الشاويش، نهضات مجهضة ص46.

عن منصب الإفتاء بموافقة المشايخ الذين أيدوا عزل السيد عمر مكرم.

وسقط المشايخ بعد هذا سقوطًا مريعًا من عين محمد علي، ولم يعد يحترمهم، ولا يقيم لهم أي اعتبار، وفي الحقيقة جلب سلوكُ هذه المجموعة من العلماء النهايةَ لنفوذ العلماء في مصر، فمنذ ذلك التاريخ فقدوا دورهم المستقل الذي ما كانوا فقدوه - قط - حتى في أحلك أوقات الاستبداد والطغيان[1].

وقد ساعد الباشا على تقويض نفوذ المشايخ التغيرُ الذي طرأ على كثير منهم بعد جلاء الفرنسيين وفشل حملة فريزر على مصر، وقد وصف الجبرتي هذا التغير بقوله: «وافتتنوا بالدنيا وهجروا مذاكرة المسائل ومدارسة العلم إلا بمقدار حفظ الناموس مع ترك العمل بالكلية، وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد الأمراء الألوف الأقدمين واتخذوا الخدم والمقدمين والأعوان[2]».

وقال - في موضع آخر- في وصف ما جرى للدواخلي، أحد المشايخ الذين ساعدوا محمد علي باشا على نفي السيد عمر مكرم: «وأنا أقول: إن الذي وقع لهذا الدواخلي إنما هو قصاص وجزاء فعله في السيد عمر مكرم؛ فإنه كان من أكبر الساعين عليه إلى أن عزلوه وأخرجوه من مصر، والجزاء من جنس العمل كما قيل:

---

(1) محمد الشاويش، نهضات مجهضة ص47.

(2) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (3/ 219).

فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

ولما جرى على الدواخلي ما جرى - من العزل والنفي- أظهر الكثير من نظرائه المتفقهين الشماتة والفرح، وعملوا ولائم وعزائم ومضاحكات، كما قيل:

أمور تضحك السفهاء منها ويبكي من عواقبها اللبيب

وقد زالت هيبتهم ووقارهم من النفوس، وانهمكوا في الأمور الدنيوية والحظوظ النفسانية والوساوس الشيطانية ومشاركة الجهال في المآثم، والمسارعة إلى الولائم في الأفراح والمآتم، يتكالبون على أسمطة كالبهائم، فتراهم في كل دعوة ذاهبين، وعلى الخوانات راكعين، وللكباب والمحمرات خاطفين، وعلى ما وجب عليهم من النصح تاركين[1]».

إذن؛ استطاع محمد علي أن يقضي على واحد من أهم إنجازات المقاومة الشعبية للحملة الفرنسية، وهو قوة التحام الشعب بالقيادات العلمية الفاعلة، واستطاع محمد علي أن يستثمر العيوب الشخصية للعلماء، وفقدانهم لخصلة الزهد في الدنيا، وقلة وعيهم بدورهم التاريخي، وانعدام شعورهم بالمسئولية عن المجتمع، مما جعل السيد عمر مكرم يقف وحيدًا في مواجهة الطغيان[2].

(1) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (3/ 509).

(2) محمد الشاويش، نهضات مجهضة، ص 17.

ومن الشائق للباحث أن يقارن هذه التجربة مع تجربة جارة، هي تجربة الدعوة التي قادها الشيخ «محمد بن عبد الوهاب»، وسارت على مبدأ الوحدة اللصيقة بين السلطة السياسية والعلماء، ولم تنفصم هذه الوحدة كما حصل في التجربة المصرية، بل صيغت الدولة السعودية الحديثة وفقًا للاتفاق الأصلي بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب والأمير «محمد بن سعود»[1].

وقد أحسن «الجبرتي» وصف حال مصر والمصريين بعد خروج السيد عمر مكرم وانتكاس من انتكس من المشايخ فقال: «والحامل لهم على ذلك كله: الحظوظ النفسانية والحسد، مع أن السيد عمر كان ظلًّا ظليلًا عليهم وعلى أهل البلدة، ويدافع ويرافع عنهم وعن غيرهم، ولم تقم بعد خروجه من مصر راية، ولم يزالوا بعده في انحطاط وانخفاض[2]».

وإن كان الجبرتي يظهر عدم تعاطفه مع السيد عمر مكرم في محنته، ويرى أن السيد عمر مكرم نال جزاء إعانته للظالم! يقول الجبرتي: «وأما السيد عمر: فإن الذي وقع له بعض ما يستحقه، ومن أعان ظالِمًا سُلِّطَ عليه، ولا يظلم ربك أحدًا[3]».

كما اتبع محمد علي سياسة أخرى تتعلق بالأوقاف، التي كانت من

(1) محمد الشاويش، نهضات مجهضة ص46.
(2) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (3/ 275).
(3) تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (3/ 275).

الأسباب التي تحفظ كرامة العلماء وتغنيهم عن الحاجة وإذلال النفس، وهذه السياسة ابتدأها محمد علي بنزع نظارة الأوقاف من المشايخ[1]، ثم تم تقليص الأوقاف[2]، الأمر الذي حد من قوة الأزهر المالية، وأنشئ التعليم المدني، وصار هو محل اهتمام ورعاية الدولة، في الوقت الذي أهمل فيه الأزهر، ففقد بهذا عنصرًا آخر من عناصر قوته[3].

الأزهر والتغريب:

عندما جاء نابليون بجيشه واجه شيوخَ الأزهر(القيادةَ الشرعية والواقعية للأمة) ؛ لذلك كانت سنواته الثلاث هي سنوات حرب متصلة ومقاومة لا تهدأ، ولكن بعد ثمانين عامًا -من تحضير وتمدين وتغريب أسرة محمد علي- انتقلت القيادة نهائيًّا من الأزهر وصارت بيد الجيش، فلما سقط الجيش في معركة التل الكبير سقطت مصر، ونعم الإنجليز بهدوء دام أكثر من ربع قرن؛ لأن الأمة كانت بلا قيادة؛ لأن قيادتها الطبيعية كانت قد نحيت وصفيت، لأن عملية التغريب كانت قد تمت بنجاح، وأصبحت البلاد ناضجة ليتناولها السيد الغربي، وقد كان[4].

(1) محمد الشاويش، نهضات مجهضة ص43.

(2) عندما عمد بالقوّة إلى تأميم 623000 فداناً من الأراضي الموقوفة للمساجد؛ بهدف جمع إيرادات إضافية للدولة. ينظر: أحمد موسى، صوت مستقل للأزهر في مصر، نشرة الإصلاح العربي، 13 يوليو 2011م.

(3) محمود محمد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص: 142- 147، ط: مكتبة الأسرة.

(4) ودخلت الخيل الأزهر ص 17.

وفي فترة لاحقة من القرن التاسع عشر صيغت القوانين الوضعية، وأنشئت المحاكم المختلطة التي صار قضاتها الوضعيون يزاحمون قضاة الأزهريين الذين كانوا ينفردون بأمر القضاء، لكن ظل الأزهر مهيمنًا على القضاء الشرعي في مجال الأحوال الشخصية حتى عهد عبد الناصر.

ومع مطلع القرن العشرين ظهرت الدعوة للجنوح بالأزهر ليبتعد عن السياسة؛ بإيعاز من الخديوي إلى الإمام الشربيني شيخ الأزهر آنذاك[1].

وفي عام 1911 صدر قانون من سلطة الاستعمار البريطاني يحظر على الأزهريين الاشتغال بالسياسة، لكن هذا القانون بطل مفعوله في ثورة 1919م التي اندلعت شرارتها من الأزهر، غير أن البريطانيين «عملوا على تقسيم دور المؤسسة الأزهرية بين هيئات أخرى مختلفة»[2].

ثم حاول الملك فاروق أن يعيد الكرة ويحظر اشتغال الأزهريين بالسياسة، لكن تصدى له الإمام إبراهيم حمروش، وأبى الانصياع لهذا القرار؛ فصدر قرار بإعفائه من منصبه[3].

(1) الدكتور أحمد محمد عوف، الأزهر في ألف عام، ص 100، منشورات مجمع البحوث الإسلامية.

(2) ناثان ج. براون، الأزهر في حقبة ما بعد الثورة ص: 14، نقلًا عن الشيخ جمال قطب، وينظر أيضًا: ص15 منه.

(3) ينظر: عمار علي حسن، الإصلاح السياسي في محراب الأزهر والإخوان المسلمين، ص166- 167.

الأزهر والتأميم[1]:

كان التغير الكبير في مسيرة الأزهر إبان الحقبة الناصرية؛ حيث حدثت ثلاثة تغييرات كبرى بدأت بتأميم أوقاف الأزهر[2]، ثم إلغاء القضاء الشرعي؛ ما دفع شيخ الأزهر الإمام محمد الخضر حسين إلى تقديم استقالته[3]، وبهذا فقد الأزهر آخر ما تبقى له من الاستحواذ على قسم من السلطة القضائية.

وكان التغيير الثالث: القانون 103 لسنة 1961، وقبل هذا القانون كانت المؤسسة الدينية مستقلة مع وجود علاقة وثيقة - لكنها غير مستقرة - مع الدولة، فلما صدر القانون بدأت مرحلة جديدة، هي هيمنة الدولة القومية العلمانية على المؤسسة الدينية، ومحاولة الاستفادة منها في حماية النظام ومنحه غطاء شرعيًّا، ما مكنها من الحد من دور المؤسسة وتأثيرها. ولم تقع المؤسسة بإرادتها تحت هيمنة الدولة، لكنها لم تستطع المقاومة رغم أنها قاومت الاستعمار من قبل. نعم، استطاع بعض الشيوخ

(1) المقصود بتأميم الأزهر: تحويله من مؤسسة من مؤسسات المجتمع إلى مؤسسة من مؤسسات الدولة، وهذا وصف موضوعي لا يقصد به الإساءة إلى المؤسسة أو رجالاتها، وإنما هو وصف لواقعها الحالي وتداعياته.

(2) ينظر: د. حسن الشافعي: عبد الناصر أضاع أوقاف الأزهر بالمليارات، وتركها للكنيسة.

http://digital.ahram.org.eg/articles.aspx?Serial=1156802&eid=17

(3) ينظر: عمار علي حسن، الإصلاح السياسي في محراب الأزهر والإخوان المسلمين، ص: 166.

التصرف بشيء من الاستقلال، لكن هؤلاء تم تحييدهم، ولم يستطع أحد في النهاية تحرير المؤسسة الدينية من قبضة السلطة[1].

ولعل السر في هذا: أن عملية وضع المؤسسة الدينية تحت قبضة الدولة القومية العلمانية تمت على مراحل، في كل مرحلة كان يتم تحطيم بعض أجنحتها، وهذه المراحل بدأها نابليون، وتبعه محمد علي، ثم تتابعت عمليات تحطيم الأجنحة إلى أن تم للسلطة ما أرادت في الحقبة الناصرية[2].

وقد ذكر الدكتور «أحمد الطيب» أن فترة «عبد الناصر» هي أول فترة يتضعضع فيها الأزهر الشريف، وأرجع السبب إلى ارتماء نظام عبد الناصر في أحضان النظام الشيوعي المعادي للدين في روسيا[3].

---

(1) ينظر: الشيخ جمال قطب: قانون الأزهر فضيحة وكارثة، بوابة الوفد، بتاريخ الأحد 29 يناير 2012؛ د/ رفيق حبيب: الأزهر والإخوان.. الصراع المفترض على المرجعية ص:1- 3، 11، إبريل 2013؛ ناثان ج. براون: الأزهر في حقبة ما بعد الثورة ص: 6.

(2) محمود محمد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص: 137-146، ط: مكتبة الأسرة. وينظر: الشيخ جمال قطب: قانون الأزهر فضيحة وكارثة، حوار أجرته معه بوابة الوفد، منشور بتاريخ الأحد 29 يناير 2012.

(3) في حوار له على قناة العربية:

http://www.youtube.com/watch?v=1HJr_2e8Ktg

وقد عُدَّ من مزايا هذا القانون أنه مهد للتوسع في إنشاء الكليات المدنية أو العلمية[1]، غير أنه حل هيئة كبار العلماء، وألغى نظام انتخاب شيخ الأزهر، وأعطى رئيس الجمهورية حق تعيين الشيخ ووكيله، وبهذا تحول الأزهر رسميًّا من مؤسسة من مؤسسات المجتمع إلى مؤسسة من مؤسسات الدولة[2].

«وفي السنوات اللاحقة عملت القيادة السياسية على ضمان أن يكون الأزهر بمثابة قوّة موازنة في مواجهة التأثير الديني المتنامي لقوّتين داخليّتين هما: الإخوان المسلمون، والسلفيّون، ولقوى خارجية مثل الوهّابية في المملكة العربية السعودية[3]».

وفي عهد الدكتور الطيب أجريت تعديلات جزئية بمقتضاها عادت هيئة كبار العلماء[4]، ووعد منذ فبراير 2012م بالعمل على

(1) وهذه التسمية محل نظر؛ لأن كل العلوم - بما فيها علوم الدين- لها صفة العلمية، وتفيد في صناعة الحضارة المدنية.

(2) ينظر: ناثان ج. براون، الأزهر في حقبة ما بعد الثورة ص: 7؛ وينظر: الدكتور محمد عمارة، والدكتور محمد كمال إمام وآخرون، في: (الأزهر بين ثورتين): الجزء الرابع والأخير من فيلم: الأزهر، من وثائقيات قناة الجزيرة الفضائية.

(3) أحمد مرسي، ناثان ج. براون، الأزهر يخطو نحو الاستقلالية والنفوذ، 13 نوفمبر 2013، مركز كارنيغي للشرق الأوسط.

(4) لكن هذه التعديلات محل انتقاد؛ لصدورها على عجل دون دراسة واستطلاع رأي عموم الأزهريين. ينظر: الشيخ جمال قطب: قانون الأزهر فضيحة وكارثة، حوار أجرته معه بوابة الوفد، منشور بتاريخ الأحد 29 يناير 2012.

إعادة نظام انتخاب شيخ الأزهر دون تدخل من السلطة[1]، ولا يزال هذا الأمل يراود أفئدة المتطلعين إلى أزهر حر مستقل.

الآثار السلبية لتراجع دور الأزهر في المقاومة الحضارية:

إن عملية تأميم الأزهر قد نتج عنها وجود نمطين أزهريين هما: الأزهر الرسمي (المؤمم)، والأزهر الشعبي[2] الذي ظل يحمل في ضميره روحَ الثورة على الفساد والاستبداد، ويتمثل في أفراد من المشايخ والطلبة ساروا على خطى أئمة النضال الأزهري، وأدركوا رسالة الأزهر الحقيقية، ورفضوا التأميم الذي أفقد الأزهر قدرًا كبيرًا من استقلاله، وكبل حركته في خدمة قضايا الأمة.

وكان لهذا التأميم آثار فكرية أعادت صياغة الموقف الأزهري الرسمي إزاء مختلف القضايا، لا سيما تلك التي تتعلق بالشأن العام، والتي اصطلح على تسميتها بقضايا الأمة.

وكان من آثار تمام عملية التأميم: أن الأزهر الرسمي صار -لا شعوريًّا- يرعى النمط الإسلامي المستأنس الذي لا يسبب الإزعاج للحكومات العلمانية ورعاتها الدوليين.

والتصريحات الأزهرية الرسمية تتعاقب على نفي هذه التهمة

(1) http://www.youm7.com/News.asp?NewsID=59200220%&#.UsvnYdIW3qE.

(2) على حد تعبير الباحث أنس السلطان، وهو امتداد لمنهج أئمة الأزهر الذين أدركوا حقيقة رسالة الأزهر في الدفاع عن الأمة والشعب.

التي طاردت الأزهر الرسمي في العقود الأخيرة، لكن تحليل الموقف الأزهري الرسمي كثيرًا ما ينتهي بمناقضة هذه المواقف لتلك التصريحات الدفاعية.

ثالثًا: مقارنة بين الموقف التاريخي لقيادات الأزهر الشعبية وقيادات ما بعد مرحلة التأميم (الأزهر الرسمي):

رأينا كيف أن المشايخ الشعبيين المتقدمين سلكوا المسلك الشعبي النضالي لمجابهة المفاسد والمظالم، وهذا يؤيد وجهة نظر الرافضين للدور الضعيف والباهت للمشايخ الرسميين، وذلك لأسباب،منها:

- أن هذا المسلك الثوري سلكه المشايخ الثوريون الشعبيون رغم محدودية وسائل المعرفة في زمانهم، فمصدر المعرفة - الذي يكاد يكون وحيدًا - في زمانهم هو شكاوى المواطنين من بعض مظالم الحكام، أما المشايخ المعاصرون فلديهم العديد من الوسائل لمعرفة نبض الشعوب المقهورة وحجم المخاطر التي تكتنف الأمة، لا على المستوى المحلي فحسب، بل على نطاق الأمة، بل العالم، وبالتالي ففرصة إدراكهم لحجم المخاطر التي تكتنف الأمة الإسلامية وشعوبها أعظم، وإمكانية وقوفهم على حجم المؤامرات التي تحاك من أعداء الخارج وعملاء الداخل أكبر، الأمر الذي يكاثر من الأسانيد والمبررات التي تقتضي سلوكهم المسلك النضالي المناصر للشعوب في مواجهة بطش الأنظمة المستبدة.

ومنها: أن المشايخ الشعبيين المتقدمين كانوا يجابهون مظالم جزئية تحدث في ظل منظومة حكم قائمة على المرجعية الشرعية الملزمة، بمعنى: أن حكام الزمان المتقدم كانت مظالمهم محدودة نابعة من ضعف نفوسهم أمام الشهوات، مع إيمانهم بهيمنة الشريعة وإلزامية الخضوع لها، ووجوب تحكيمها، وإلزامية الاحتكام إلى أهل الشريعة؛ باعتبارهم حكامًا على الحكام -لا مجرد مستشارين يرجع إليهم عند الحاجة، وبحسب الرغبة (المزاج)- فيمكن القول: إن أنظمة الحكم كانت إسلامية في قاعدتها وسياجها المحيط الملزم، الذي قد تتخلله مخالفات تنتهك الأحكام الفرعية دون أن تمس السياج العقدي الحاكم (الإيديولوجي بالتعبير المعاصر)، أو فلسفة الحكم.

أما المشايخ الشعبيون المعاصرون فهم يجابهون ثلاثة أنواع من الخروق السلطوية هي:

أولها- المظالم الجزئية، وتعالَج بإلغاء القرار السلطوي الذي نجمت عنه هذه المخالفات مع إزالة الآثار الناجمة عنه وتعويض المتضرر. وهذا النوع من المخالفات السلطوية لا يجد من المشايخ الرسميين موقفًا قويًّا مؤثرًا يحقق المطالب الثلاثة المتقدمة:

- إلغاء القرار السلطوي الفاسد، أو الممارسة السلطوية الفاسدة التي نجم عنها المخالفة.
- إزالة الآثار الضارة.
- تعويض المتضرر.

بل غاية ما نراه من المشايخ الرسميين هو إصدار بيانات باهتة تتحفظ على كذا، أو تشجب كذا، أو تطالب بكذا، دون أن يصحب ذلك موقفٌ قوي يَحمِل صاحبَ المظلمة على تغيير مسلكه، ويجعل العالم الشرعي مرهوبَ الجانب، مطاع الأمر.

الأمر الثاني- الذي يواجه العلماء الشعبيين المعاصرين هو: تضعضع المرجعية الشرعية الملزمة في نفوس الحكام، ونظرتهم لعلماء الشريعة باعتبارهم مستشارين يُرجَع إليهم عند الحاجة، لا حكامًا على الحكام كما كان الأمر في الزمان المتقدم ، قبل سقوط الخلافة وتحكّم الفلسفة العلمانية في أنظمة الحكم في العالم الإسلامي؛ بفعل الاستعمار الذي رحل عنا – ظاهريًّا – وترك أذنابه التي حافظت له على تغييره لتركيبة الحكم التي أصبحت ذات خلفية علمانية.

وهذا الأمر الثاني (تضعضع المرجعية الشرعية) يعد تحدّيًا عظيمًا يُحمِّل العلماءَ الشعبيين المعاصرين حِملًا ثقيلًا كان العلماء المتقدمون في غنى عن تحمله؛ بسبب عملهم في إطار منظومة حكم ذات قاعدة ملتزمة بالمرجعية الوجوبية للشريعة الإسلامية، فصارت مجابهة هذا التحدي الأيديولوجي من المستجدات التي جدت على الواقع الإسلامي المعاصر.

الأمر الثالث الذي يجابهه العلماء الشعبيون المعاصرون هو: قعود أنظمة الحكم المعاصرة عن القيام بفروض وواجبات كان القيام بها من المسلمات لدى الحكام السابقين، مثل:

الجهاد لتحرير المقدسات الإسلامية.

ومثل: التقاعس عن نجدة الشعوب الإسلامية المستضعفة التي تتعرض لصنوف الإيذاء والتنكيل: بدءًا من التخويف والترويع، ونهاية بنصب المذابح والإبادة الجماعية، مرورًا بنهب الأموال، والتضييق عليهم في ممارسة الشعائر الإسلامية.

فالجهاد لدفع هذه الاعتداءات على المقدسات والشعوب الإسلامية؛ تقلصت مساحته في اهتمامات الأنظمة الحاكمة والعلماء الرسميين، حتى إنه لم يتجاوز حدَّ الكلام والمطالبات والاستنكارات وعقد المؤتمرات التي تتمخض عنها قرارات، القصدُ منها تسكين غضب الشعوب المجروحة في ضميرها الديني، والمكلومة في مقدساتها المسلوبة وأوطانها الضائعة، وإخوانها المذبوحين.

نخلص مما سبق إلى أن مبررات المسلك النضالي لدى العلماء الشعبيين المعاصرين زادت عما كان الأمر عليه لدى العلماء المتقدمين؛ بسبب مجابهتهم لنوعين من الخروقات كان العلماء المتقدمون في غنى عن تحمل مؤونة مجابهتهما، وهذان النوعان من الخروقات هما:

- تقلص المرجعية الشرعية الملزمة، وسيطرة الفلسفة العلمانية على صياغة أنظمة الحكم في العالم الإسلامي.
- والتقاعس في أداء فروض نضالية كان القيام بها من المسلمات لدى أنظمة الحكم التي كانت تعمل تحت لواء المرجعية الشرعية الملزمة.

كما أن تقاعس العلماء الرسميين المعاصرين وتفريطهم في القيام على أمر الدين والأمة - بالذب والنصرة والضرب على أيدي المفرطين من أصحاب السلطان - قد بات أكثر وضوحًا وأشد صدمة، وأعظم جرحًا للمشاعر الدينية والضمائر الوطنية لدى الشعوب المغلوب على أمرها؛ بسبب الخلل اللاحق بمن بيدهم الأمر من العلماء والأمراء.

رابعًا: آثار التحولات السابقة على موقف الأزهر الرسمي في الأزمات الراهنة

وأبرز ما يتجلى فيه أثر هذه التحولات هو موقف الأزهر من ثورة يناير وتوابعها.

الموقف العام (قبل الثورة):

كان موقف المؤسسة الأزهرية قبل الثورة يغلب عليه الانحياز للنخبة - بفرعيها: الحاكمة والمثقفة - دون الشارع الذي انحازت له القوى الإسلامية الناشئة، فازداد رصيدها لدى الشارع؛ تبعًا لذلك.

ويلاحظ في بعض الأحيان أن المؤسسة الدينية كان لديها حساسية من إعلان موقف واضح في بعض القضايا الشعبية[1]، بينما كانت القوى الإسلامية الناشئة أشد جرأة في إعلان الموقف في كثير من القضايا التي تشغل اهتمامات الجمهور المسلم؛ فازداد رصيدها في الشارع، وأحدثت زخمًا أسهم في الترويج لفكرها، وزادت شعبيتها؛ خصمًا من شعبية

(1) ينظر: د/ رفيق حبيب، الأزهر والإخوان.. الصراع المفترض على المرجعية، ص: 5-6.

المؤسسة الدينية التي كانت تنفرد على مدار قرون بالتأثير الديني؛ بفضل معايشتها للناس، وقيادتها لآمالهم، خاصة في أوقات المحن.

فالتخوف الأزهري الرسمي من تشكيل الموقف الواضح في جُلِّ القضايا الشعبية - أو التخوف من إعلان هذا الموقف - أنقص من رصيد المؤسسة الأزهرية بشكل كبير.

وهنا لا بد أن نستخلص مما سبق معادلة تعد نتيجتها هي المحدد الرئيس لصورة المشهد سالف الذكر، ونص هذه المعادلة في تقديري كما يلي: (مدى: التفاعل الجماهيري + إعلان المواقف الواضحة في القضايا المهمة + قيادة آمال الجماهير وتطلعاتهم ومساندة مسيرتهم نحو الحق والعدل = حجم الوجود والتأثير).

الموقف من الثورة المصرية:

يعد هذا الموقف علامة فارقة - في مسيرة المؤسسة الأزهرية - كان لها النصيب الأوفر في رسم أجزاء صورة المشهد الإسلامي بعد الثورة، خاصة في الجانب السياسي.

ففي اللحظات الأولى ظهر أثر حرص المؤسسة الدينية على الصيغة التوافقية مع النخبة الحاكمة؛ حيث رأت أن ما يجري خروج على الحاكم محرم في الشرع، وطالبت الثوار بالعودة إلى منازلهم وعدم تعطيل الإنتاج، غير أن عددًا كبيرًا من علماء الأزهر وطلابه لم يعبئوا بهذه النداءات الرسمية، وشاركوا في الثورة. وقد صرحت مشيخة الأزهر بعد ذلك أن

الدافع لدعوة الثوار إلى مغادرة الميادين في الأيام الأولى من اندلاع الثورة هو الحرص على سلامتهم، والرغبة في حقن الدماء[1].

ولما نجحت الثورة في تغيير رأس النظام تفاعلت القيادة الأزهرية مع الوضع الجديد، وأصدرت وثيقة الأزهر التي بدت أكثر اتساقًا مع أوضاع الدولة الحديثة[2]، لكن سرعان ما خابت الآمال بعد 3 يوليو 2013م.

موقف الأزهر من أحداث 30 يونيو 2013 وما تلاها:

تمهيد: بقليل من التأمل يدرك الباحث أن حالة من الفتور غلبت على علاقة القيادة الأزهرية بنظام الدكتور «مرسي»، على الرغم من تصريح الدكتور «أحمد الطيب» بأن النظام يدعم الأزهر الشريف[3]، وعلى الرغم من المكانة المتميزة التي نالها الأزهر الشريف في دستور 2012 [4].

ولعل التوجس الأزهري الرسمي من جماعة الإخوان يقدم لنا تفسيرًا مقنعًا لهذا الفتور، ويفسر لنا سر التخلي السريع من القيادة الأزهرية عن شرعية الدكتور مرسي وتأييدها لعزله على خلاف ما نص عليه القانون والدستور.

---

(1) ومن الملفت للنظر: أن القيادة الأزهرية كان لها موقف آخر من تظاهرات 30 يونيو وما تلاها رغم أن شرعية الدكتور محمد مرسي أقوى من شرعية مبارك.

(2) ينظر: د/ رفيق حبيب، الأزهر والإخوان.. الصراع المفترض على المرجعية ص: 6.

(3) ينظر: http://www.youtube.com/watch?v=c0J57y3XwsQ.

(4) ومن العجيب: قبول القيادة الأزهرية بالانتقاص العظيم من هذه المزايا في تعديلات 2014.

ومما زاد من توجس الصوفية والقيادات الأزهرية الرسمية من حكم الرئيس مرسي؛ واقعة: أن وزارة الأوقاف في ظل حكومة الرئيس مرسي استعانت ببعض الأساتذة ذوي الميول السلفية في إلقاء محاضرات على الأئمة المتدربين، وقد رأى الصوفية وبعض القيادات الأزهرية أن هذه محاولة لنشر الفكر السلفي بين أئمة الأوقاف الأزهريين على حساب الفكر الصوفي والأشعري.

وليس لدينا تأكيد جازم على حجم الدور الذي قام به المشايخ الرسميون في مسانده انقلاب 3 يوليو، بمعنى: هل اقتصر هذا الدور على استدعائهم لأخذ الرأي ومخاطبة الرأي العام، أم كان هناك تنسيق سابق قبل 3 يوليو، أو قبل 30 يونيو.

وبمراجعة خطابات القيادة الأزهرية منذ 30 يونيو حتى الآن نجدها تتلخص في النقاط الآتية:

في البداية أكدت القيادة الأزهرية على أن حق التظاهر السلمي مكفول، ودعت للحوار الوطني، وعدم استغلال المساجد في الصراع السياسي، وأدانت ما صاحب تظاهرات 30 يونيو من أعمال عنف وإتلاف، لكنها في 3 يوليو – في تغير مفاجئ – أيدت عزل الدكتور مرسي؛ بناء على رؤية تقوم على أن عزله يجنب البلاد تداعيات فيها أضرار أشد من الضرر المترتب على عزله.

وعقب أحداث الحرس الجمهوري طالبت القيادة الأزهرية بإجراء تحقيق، والإعلان عن جدول واضح ودقيق للانتقال الديمقراطي

المنشود الذي يحفظ وحدة البلاد، وإطلاق سراح المعتقلين السياسيين، وحماية المتظاهرين السلميين، ودعت للحفاظ على مؤسسات الدولة، وطالبت بالمصالحة الوطنية الشاملة، وحثت الإخوان وأنصارهم على الانخراط في الحوار، وأسهمت في إعداد التعديلات الدستورية، ودعت للخروج من أجل التصويت على الدستور[1].

الموقف من الشرعية: رأت القيادة الأزهرية أن الشرعية الدستورية يمكن أن تسقط بنزول أعداد غفيرة من الجماهير على نحو يمكن أن يهدد الاستقرار؛ لذا أيدت عزل الدكتور مرسي قبل إكمال مدته.

بينما يرى الإخوان وأنصارهم أن الشرعية لا تسقط إلا بنفس الطريق الذي استُمِدَّت منه، وهو صندوق الانتخاب النزيه، وأن نزول الجماهير يستحق الالتفات إليه، لكنه لا يسقط الشرعية الدستورية، فكان من الطبيعي أن تنظر الجماعات المؤيدة لحكم الدكتور مرسي إلى أحداث 30 يونيو وما تلاها على أنها محاولة انقلابية لإسقاط حكم مرسي بغير صندوق الانتخاب.

والعجيب أنه رغم التباينات الفكرية بين الخطاب الأزهري الصوفي وبين الخطاب السلفي إلا أننا وجدنا فريقًا من التيار السلفي يتفق إلى حد بعيد مع القيادة الأزهرية إزاء الأحداث الراهنة، أعني: الدعوة السلفية بالإسكندرية وذراعها السياسي المتمثل في حزب النور.

---

(1) المصدر: البيانات الرسمية الصادرة عن مشيخة الأزهر الشريف على:

http://www.onazhar.com/page2home2.php?page1=5

وربما كان من أسباب هذا التقارب في الموقف: أن الدعوة السلفية ليس لديها عناصر الاختلاف الأخرى التي أسهمت في تباين الرؤية بين القيادة الأزهرية والإخوان؛ فالدعوة السلفية ليس لديها تنظيم سياسي كما لدى الإخوان، وليس لها موقف في مناهضة النظام، وليس لديها نشاط طلابي قوي بالأزهر أثار حفيظة القيادة الأزهرية، وليس لها موقف صلب في مسألة الشرعية والمصالحة، بل إنها لا تزال ترى صحة إمامة المتغلب في الواقع السياسي المعاصر.

فهذه أبرز أسباب تقارب الخطاب الخاص بالدعوة السلفية وحزب النور، والخطاب الصوفي/ الأزهري- في الشأن العام بعد 3 يوليو.

تقييم:

يلاحَظ على موقف القيادة الأزهرية ومن معها ما يأتي:

لم نسمع عن اجتماع القيادة الأزهرية - بعد اندلاع تظاهرات 30 يونيو - بالرئيس مرسي وقيادات الإخوان وأنصارهم؛ للإنصات إلى وجهة نظرهم المؤيدة للتمسك بالشرعية الدستورية؛ حتى يكون حكمها صادرًا عن اطلاع شامل ودقيق على وجهتي نظر طرفي الأزمة.

لم تجتمع هيئة كبار العلماء لتصدر موقفًا جماعيًّا بدلًا من أن يظهر فضيلة الإمام الأكبر في مشهد 3 يوليو ليعلن بمفرده موافقته على عزل الرئيس المنتخب - عن منصبه - ممن لا يملك قرار العزل بمقتضى الدستور والقانون، وأي شيء يستحق أن تجتمع لأجله هيئة كبار العلماء إن لم تجتمع لأمر يمس مصير الوطن، ودماء أبنائه؟

لم يُستطلَع رأيُ بقية علماء الأزهر - غير الأعضاء بالهيئة - حتى يكون قرار شيخ الأزهر في الأمور المصيرية عاكسًا لما يراه أبناء الأزهر، فيقي المؤسسة العريقة شبح الانقسام، ويستعيد التقليد التاريخي الذي كانت تلتحم فيه القواعد الأزهرية - في الرؤية والموقف - بقمة الهرم الأزهري.

لا يظهر أن القيادة الأزهرية رجعت لخبراء السياسة والقانون المشهود لهم بالكفاءة والنزاهة؛ للاستعانة بهم في مسألة التكييف قبل إصدار الفتوى المبتسرة التي بمقتضاها وافقت على عزل الدكتور مرسي.

دأبت القيادات الأزهرية على التأكيد على ضرورة أن تكون الفتاوى المتصلة بالشأن العام منبثقة عن اجتهاد فقهي جماعي، ومع هذا لم يصدر الأزهر - إلى الآن - دراسة فقهية جادة منبثقة عن اجتهاد جماعي منضبط؛ تؤصل لموقفه من أحداث 3 يوليو وما تلاها، وتقطع دابر كل اتهام بالانحياز لطرف دون طرف، وترد على الاجتهادات الفقهية المخالفة لموقفه الرسمي والتي صدر بعضها من أعضاء بهيئة كبار العلماء.

حرمت القيادة الأزهرية الثورة ضد مبارك واعتبرتها فتنة، وطالبت المتظاهرين بالعودة ومغادرة الميادين، بينما أباحت الخروج على الدكتور مرسي مع أنه نجح بانتخابات مشهود بنزاهتها.

لا يستطيع الباحث الجاد أن يقف على المعايير العلمية المنضبطة التي تم بِناءً عليها تقدير أخف الضررين، واعتبار الموافقة على عزل

الدكتور مرسي هي أخف الضررين، ثم هل لا تزال القيادة الأزهرية ترى أن عزل الرئيس مرسي كان أخف الضررين بعد كل ما سال من دماء، وبعد كل ما قيد من حريات؟

اعتبرت القيادة الأزهرية تظاهرات 30 يونيو تعبيرًا عن إرادة الشعب، ولم تلتفت إلى تظاهرات مؤيدي الشرعية، ولم تبين ما هو الإحصاء العلمي الدقيق الذي يفيد أن أعداد المطالبين بانتخابات رئاسية مبكرة كانت تفوق أعداد المتمسكين بالشرعية وإكمال الرئيس لمدته الرئاسية.

فيما يتعلق بقضية الحريات بعد 3 يوليو: أكدت القيادة الأزهرية في تصريحات متعددة على أن حق التظاهر السلمي مكفول، ومع هذا لم تعلن موقفًا قويًّا من قانون التظاهر الذي وصف بأنه يفرغ حق التظاهر من مضمونه.

تبنت القيادة الأزهرية رواية وزارة الداخلية فيما يتعلق بمقتل عدد من طلاب الأزهر داخل الجامعة والمدينة الجامعية، ولم تشكل لجنة تقصي حقائق مستقلة تستمع إلى طرفي الأزمة، وبادرت بحل اتحاد الطلاب وحظر النشاط السياسي داخل الجامعة؛ ما أسهم في زيادة الغضب الطلابي.

فيما يتعلق بقضية التعديلات الدستورية أيد الأزهر حذف المواد التي عززت مكانته في دستور 2012م، مثل المادة 219، وحذف المادة التي تجرم سب الأنبياء، والمادة التي تلزم الدولة برعاية الأخلاق

والآداب العامة، والمادة التي تشجع الوقف الخيري، والمادة التي تنص على إنشاء مفوضية وطنية لمكافحة الفساد، وغيرها من المواد التي تثير علامات استفهام حول دلالات حذفها من دستور 2012.

استناد بعض مشايخ الأزهر والدعوة السلفية إلى مسألة الخضوع للحاكم المتغلب يبدو غريبًا وغير مقبول في ظل التوافق على الوسائل الديمقراطية ووجود دستور ملزم يبين الطريقة القانونية التي ارتضاها الشعب لتداول السلطة، وليس من بينها فكرة الحاكم المتغلب، فضلًا عن أن الفقهاء وضعوا شروطًا لوجوب طاعة الحاكم المتغلب لا تنطبق على الحالة المصرية الراهنة، ولا يتسع المجال لتفصيل الكلام عنها. كما أن هذا السند الفقهي يقابله سند فقهي آخر يستند إليه أنصار الشرعية، وهو حرمة الخروج على الحاكم الشرعي واعتبار الخارج عليه من الخوارج البغاة.

وعلى الجانب الآخر أود أن أسجل هنا – للتاريخ – أن قرار جماعة الإخوان بالدفع بمرشح رئاسي من صفوفها كان خطأ إستيراتيجيًّا وقعت فيه الجماعة؛ لأن المناخ السياسي العام لم يكن ملائمًا لنجاح التجربة الإسلامية في هذه المرحلة؛ حيث كان النظام القديم لا يزال قادرًا على تجميع صفوفه واستنفار قواه؛ لإفشال أي تجربة ديمقراطية حقيقية، خاصة لو كانت من خلفية إسلامية، فكان الأولى أن تدعم الجماعة مرشحًا من خارجها؛ تحسبًا للإخفاق، ولا مانع من أن يكون حاملًا للمرجعية الإسلامية – في الجملة – مع احتفاظه بعلاقات قوية بمؤسسات الدولة تحول دون استنفارها لإفشاله؛ كالدكتور «محمد

سليم العوا»، فكان أولى المرشحين - في نظري - بدعم الجماعة والتيار الإسلامي له، ولعل مما يدعم هذه الرؤية: المآل الذي آلت إليه تجربة الإخوان في تونس؛ حيث تصرفت جماعة النهضة بحنكة جنبتها مصير تجربة الإخوان في مصر.

وحيث قضى الله أمرًا كان مفعولًا، فيلاحظ على موقف التحالف الداعم للشرعية ما يأتي:

لم يضغط التحالف بقوة - منذ ظهور إرهاصات الأزمة - لسرعة تعاطي نظام الدكتور مرسي مع حركة الشارع؛ بإجراءات تساعد في نزع فتيل الأزمة، مثل: تغيير الحكومة عقب إقرار دستور 2012 وتصعيد شخصيات ليبرالية نزيهة من شركاء ثورة يناير؛ لتقريب وجهات النظر، والحفاظ على وحدة الصف الثوري، والحيلولة دون تفاقم الأزمة.

عدم الدخول في حوار جاد؛ لمحاولة حل الأزمة بأقل قدر من الخسائر.

تكاملية لا تنافسية:

وفي الختام، فالحاجة داعية بشدة إلى حوار جاد بين الأزهر والصوفية، وبين بقية مكونات التيار الإسلامي؛ لإنهاء حالة التوجس المتبادل، وإحداث التفاهم حول القضايا الخلافية التي تتباين بشأنها وجهات النظر؛ فبدون هذا الحوار سيبقى الالتباس قائمًا في فهم كل

طرف لرؤية ومواقف بقية الأطراف في الصف الإسلامي، وإن لم يكن لهذا الحوار فائدة سوى التعاون في القدر المتفق عليه مع استمرار التفاهم بشأن القضايا الخلافية العالقة؛ فكفى بها فائدة.

وأخشى ما أخشاه أن تنجح محاولات البعض الزجَّ بالأزهر الشريف في أتون المواجهة مع الجماعات الإسلامية الحركية؛ لمصلحة من يريد للصف الإسلامي أن يتصدع وتستنزف طاقاته في صراع داخلي يضعف كل مكوناته، ويحول دون أي تقارب يعزز المرجعية الإسلامية.

إذن؛ فالمطلوب من الأزهر - باعتباره كبير العائلة الإسلامية - العمل على احتواء هذه الحركات وترشيدها، والاستفادة من حركيتها لمستقبل العمل الإسلامي؛ لأن الأزهر مهما كان له من مآخذ على التوجهات الفكرية والعملية للحركات الإسلامية، إلا أن ما يجمعه بها أكثر مما يفرق، والاختلاف الحقيقي بين الأزهر والجماعات الإسلامية ينبغي ألا يكون في المشروع، بل في دور كل منها داخل المشروع الإسلامي؛ فالأزهر مؤسسة العلم والرأي التي تمثل الرأس الفكري للمشروع الإسلامي، والحركاتُ الإسلامية بمثابة الذراع الحركي لتفعيل هذا المشروع على أرض الواقع.

ولا يمكن للأزهر أن يكون كابحًا لدور الحركات الإسلامية، وإلا فقد موضعه ودوره التاريخي، كما لا يمكن للأزهر أن يقف على مسافة واحدة من المشروع الإسلامي والمشاريع الرافضة للمرجعية الإسلامية.

وعلى الأزهر أن يعي أن الحركات الإسلامية حريصة على قوته واستقلاله؛ لأن استقلاله يمنح المشروع الإسلامي قوة، ويدعم الدور الذي يقوم به الإسلاميون في التغيير الاجتماعي وفقًا للمشروع الإسلامي[1].

فمثلًا: «بعد نجاح الثورة خرجت مظاهرات تطالب بدعم استقلال الأزهر، شارك فيها شباب أزهري منتمٍ للحركات الإسلامية[2]».

ومن الدلائل الواقعية على حرص الحركات الإسلامية على قوة الأزهر واستقلاله: إقرار المواد التي أعطت للأزهر الشريف وضعًا متميزًا غير مسبوق في دستور 2012 وقت كان التيار الإسلامي يمثل الأغلبية، فهذه بادرة حسن نية تجاه المؤسسة الأزهرية يمكن البناء عليها في تحقيق التكامل المنشود.

***

(1) ينظر: د/ رفيق حبيب، الأزهر والإخوان.. الصراع المفترض على المرجعية، ص: 6-10.

(2) http://www.aljazeera.net/coverage/pages/0b6ceba0-c5c6-4-9045-4355df6c7740925.

الفَصْلُ الثَّالِثُ

دور الفتوى في المقاومة الحضارية

(فتاوى المقاومة الحضارية)

تمهيد

المقاومة بالكلمة كان لها أهميتها وحضورها القوي في مواجهة التحديات التي واجهتها الأمة، وهنا برز دور الفتوى في عمليات البعث الحضاري.

والفتوى مصدر مهم من مصادر تجلية الوقائع التاريخية التي لم تنل عناية كافية في كتب التاريخ، حتى إن بعض الباحثين التاريخيين عُنوا بالبحث في وقائع بعض الحقب التاريخية من خلال الفتاوى التي صدرت في هذه الحقبة [1].

إذن؛ ففوائد الإفتاء لا يقتصر نفعها على المفتي والمستفتي، بل إن ثمرات الإفتاء الرشيد تتعدى شخص المفتي والمستفتي لتعود بالخير على الأمة بأسرها، بل لا نبالغ إذا قلنا: إن آثار الإفتاء الرشيد تتعدى نفع الأمة ليصل خيرُها العميم إلى الإنسانية جمعاء.

ولقد «كانت الفتوى - ولا زالت - محط اهتمام بالغ لدى الأوساط الإنسانية التي يمثل فيها الدين محركًا أساسيًّا للسلوك وأنماط التفكير،

(1) ومنهم الدكتور/ عماد هلال في كتابه الماتع عن تاريخ الإفتاء المصري، الصادر منه الجزء الأول ضمن منشورات دار الإفتاء المصرية. كما طالعتُ من قبلُ دراسة لباحث من بلاد المغرب، عُنِي فيها ببيان الحالة الاجتماعية في بلاد المغرب من خلال الفتاوى الواردة بكتاب المعيار المعرب للونشريسي.

ولا يقف هذا الاهتمام عند المسلمين فحسب، بل أخذت الفتوى مكانتها لدى كل العقائد؛ لما لها من أثر نفسي بالغ في توجيه الأفعال، وتحديد الرؤى والأفكار.

غير أن الفتوى في الإسلام لها شأن أعظم وأخطر، خاصة عند من يستشعرون مسئولياتهم تجاه ربهم وأمتهم»[1].

والفتوى كما تؤثر في المجتمع تتأثر أيضًا به إيجابًا وسلبًا، وقد أشار أستاذنا الدكتور «حسن الشافعي» إلى هذا المعنى بقوله: « وكلما زاد أثر الإفتاء في المجتمع فإن القوى السياسية والاجتماعية-بطبيعة الحال- تهتم بالإفتاء ورجاله، وقد يكون تأثيرها في الإفتاء غير مباشر.

ومن يراجع تاريخ التشريع الإسلامي يرى بوضوح آثار الاحتكاك بين الحكام والمفتين، وبين رجال السياسة والفقهاء الذين كانوا كثيرًا ما يرفضون مناصب الإفتاء والقضاء؛ هربًا من التأثير السياسي في عملهم: مباشرًا كان أو غير مباشر.

والواقع أن التأثير السلبى للمجتمع لا يقل أثرًا أو خطرًا عن التأثير السياسي، وقد عشت فترة في شبه القارة الهندية، حيث يلتزم القوم بالمذهب الحنفي خاصة، وقد تنشأ عن مخالفته مشاكلُ جمة، يضعها الفقيه أو المشتغل بالفقه في حسبانه، حرصًا على سلام المجتمع أو خوفًا من إثارته. وقد يشابهم في ذلك أهل المغرب الذين يعتبرون اتباع الفقه المالكي

(1) الدكتور سيف الدين عبد الفتاح، فتاوى الأمة بين التأصيل والتخذيل، مقال منشور على موقع إسلام أون لاين بتاريخ 08/ 09/ 2003.

والعقيدة الأشعرية والتصوف الشاذلي مقومات أساسية للمجتمع المغربي. بل إن الموقف الإثنى عشري إن برئ من التأثير السياسي -بحكم استقلال المرجعية الدينية عن السلطة السياسية - فقد لا يبرأ من التأثر بأحوال الأتباع والمقلدين التي يرعاها المرجع الفقهي في توصياته وفتاواه.

نعم إن الحرية المطلقة لا توجد في أي نظام على كل حال، ومن الطبيعي أن تتجاوب مؤسسة المجتمع وتتبادل التأثير، لكن مع المراعاة لصلاحيات كل مؤسسة أو هيئة في نطاق عملها وحدود مسئوليتها»[1].

ولقد كان للفتوى دور كبير في مقاومة الأمة الحضارية في قرون الانحدار، وقد ظهر هذا الدور في كل ميادين المقاومة: بداية من الحفاظ على وحدة الأمة وتماسكها إزاء الهجمات الحضارية المعادية، وحتى مقاومة الاستعمار المباشر..

أولًا- أثر الفتوى في حفظ كيان الأمة في أوقات الاجتياح:

للفتوى دور مهم في الحفاظ على كيان الأمة المادي فضلًا عن أهميتها في حفظ الكيان المعنوي المتمثل في العقيدة والهوية؛ وذلك لأن المبدأ الإسلامي: أن استمرار كيان الأمة رهين باستمساكها بمنهج الله – تعالى – وعدم التفرق؛ قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: 46]. وتعد الفتوى من أهم وسائل بيان المنهج الرباني؛ لأن المفتي موقع عن الله تعالى.

(1) المؤثرات المعاصرة على الإفتاء ص36، نسخة وورد، منشور ضمن أبحاث مؤتمر: منهجية الإفتاء في عالم مفتوح.

وقد حفل تاريخ الأمة بنماذج لفتاوى تاريخية كان لها أثر عظيم في حفظ كيان الأمة وقت اشتداد المحنة.

يقول الأستاذ عبد الباقي خليفة - متحدثًا عن دور الفتوى في الحفاظ على وحدة المسلمين في البلقان-: «أما مساهمة الفتوى في حقن دماء المسلمين - وبالتالي الحفاظ على بيضتهم - فقد تمثلت في عدة أمور، منها وقف الجدل حول أهمية تنظيم الجيش ولبس البنطلون العسكري، ذلك الجدل الذي قاد إلى مواجهات عسكرية بين المسلمين البوشناق[1] والعثمانيين؛ حيث رفض البوشناق الإصلاحات العسكرية، واعتبروه تشبهًا بالكفار. لقد كان المشروع العثماني للتحديث يطبق داخل دولة إسلامية موحدة، ولذا فإن الإصلاحات كانت تقوم على أساس الإسلام، وكان البوشناق قد أقنعوا أبناء دينهم - من قبل - بأنه ليس من الخطأ أن يكون لدى الدولة جيش أوروبي في زيه وتجهيزاته، وإدارة وقضاء مركزيان وأكثر فعالية في الأداء، ووسائط جديدة للنقل والاتصال، ومصانع ومدارس جديدة، ولم يكن ذلك عن طريق نقاش تلفزيوني أو ثورة ثقافية، وإنما بفتوى صادرة من ثقة، وفسر مفتي موستار (120 كيلومتر شرق سراييفو) الشيخ (مصطفى صدقي قرة بيك) الآية

(1) هم سكان البوسنة الأصليون، وأغلبهم ينحدر من العرق الأليري، وهم مسلمو البوسنة والسنجق الذي يخضع للحكم الصربي حاليًا، كما أنهم موجودون بأعداد كبيرة، لكنهم يظلون أقليات في كوسوفا والجبل الأسود ومقدونيا وألبانيا وتركيا التي يوجد بها نحو 5 ملايين نسمة من أصل بوشناقي.

الرابعة من سورة الصف: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ [الصف: 4] بأن التشيكلات النظامية للجيش نوع من أنوع البنيان المرصوص، وهي ذلك البنيان المرصوص المذكور في الآية الكريمة، وقد أيد مفتي ترافنيك (وسط البوسنة) «درويش محمد كوركوت»، ومفتي سراييفو «محمد حلمي حجيعموروفيتش» (آنذاك) تلك الإصلاحات. وكان لتأييد كبار العلماء للإصلاحات دور كبير في تشجيع تجنيد البوشناق في الوحدات النظامية»[1].

وفي ذات المقال يتحدث الكاتب عن الأثر الإيجابي لفتوى العالم البوسني (محمد توفيق آزاباغيتش) في الحد من هجرة البوشناق من البوسنة إلى تركيا عقب احتلال الإمبراطورية النمساوية الهنغارية للبوسنة سنة 1878 م؛ اعتقادًا منهم بوجوب الهجرة؛ قياسًا على هجرة النبي - ﷺ - وأصحابه إلى المدينة.

أما (أزاباغيتش) فكان يرى عدم وجوب الهجرة بعد فتح مكة، بل إنه أكد على عدم صحة القياس على هجرة النبي - ﷺ -؛ فهجرة النبي - ﷺ - إلى مكة نتج عنها نفير المسلمين وعودتهم المظفرة إلى مكة المكرمة، أما هجرة البوشناق فإنها تعبير عن الضعف وخطوة نحوه، مع عدم إمكانية العودة المظفرة، ويشبه المؤلف هجرة البوشناق بـ(بيع الجواهر من أجل

(1) عبد الباقي خليفة، دور الفتوى في الحفاظ على الهوية الإسلامية في البلقان، مقال منشور بموقع الإسلام اليوم، بتاريخ السبت 26 رمضان 1429الموافق 11أكتوبر 2008.

شراء الأحجار)، وكان رأي آزباغيتش - الذي صادف رواجًا كبيرًا في البوسنة - يختلف عن آراء العلماء العثمانيين في ذلك الوقت، ففي عام 1887م أصدر شيخ الإسلام في إسطنبول فتوى يشير فيها إلى أن حياة المسلمين في الولايات العثمانية المفقودة قد أصبحت لا تطاق، وأنه يجب عليهم أن يهاجروا إلى الأراضي العثمانية، وقد تم تشكيل مكتب خاص لرعاية المهاجرين المسلمين تحت إشراف السلطان نفسه، لكن المسلمين في البوسنة شعروا بأن الدولة العثمانية خذلتهم، وبالتالي فإن الغالبية منهم مالوا إلى فتوى (آزاباغيتش) وفتوى الشيخ رشيد رضا.

لقد أدرك (آزباغيتش) أنه لا يمكن فصل الأحكام الشرعية عن مقاصدها ومقتضياتها؛ ولذا امتنع عن إصدار فتوى بالاستناد إلى الكتب الفقهية التقليدية، وأخذ بعين الاعتبار واقع المسلمين ومصالحهم الحيوية ومستقبلهم وأهدافهم. ونظرًا لكونه مفتيًا ورئيسًا للعلماء (المفتين) فقد حظي رأيه بمصداقية كافية أدت إلى إضعاف موجة الهجرة من البوسنة إلى الدولة العثمانية.

وفي العدوان الصربي على البوسنة 1992 / 1995م برزت من جديد أهمية الرأي الذي قدمه «محمد توفيق آزبغيتش»، حيث تعرض البوشناق لإبادة وأجبروا على الهجرة من بلدهم وطلب المأوى في البلاد الأخرى، ومن المشهود به لهذا العالم أنه أول عالم بوسني في العصور الحديثة تعرف على أهمية الأرض وما تعنيه للجماعات الإسلامية في أوساط غير مسلمة.

ويقول الكاتب في خاتمة مقاله: «في أثناء الحرب استجدت قضايا مثل نتائج الاغتصاب، حيث اعتبرت المشيخة الإسلامية في البوسنة ضحايا الاغتصاب بريئات، كما أعطت للحوامل حق الإجهاض ما لم تزد فترة الحمل عن 120 يومًا، كما أفتت بحرمة بيع الخمر ولحم الخنزير بالنسبة للمسلمين، وجددت تأكيد تحريم زواج المسلمة من غير المسلم؛ ومنذ تأسيس «المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث» قبل أكثر من 10 سنوات أصبحت الفتوى في البوسنة مرآة لفتاوى المجلس ومقرراته».

الدور الانتفاضي للفتوى:

عادة ما يلجأ الناس إلى القيادات الدينية إذا أهمهم أمر أو انتابتهم أزمة من الأزمات. وفي ظل استبداد السلطة أو تعرض البلاد لخطر خارجيّ، ينتظر الناس من القيادات الدينية دورًا اجتماعيًّا وسياسيًّا قياديًّا يحقق لهم بعضًا من حقوقهم المفقودة، ويعيد لهم كرامتهم وعزتهم، وذلك من منطلق عناصر القوة والتأثير الاجتماعي والسياسي التي تتمتع بها تلك القيادات؛ استنادًا إلى الموقع الديني الذي تشغله، وإلى قوة الأمة كرصيد مساند لها جماهيريًّا.

والملاحظ أن القيادة الدينية عادة ما يتصاعد دورها في حال تعرض البلاد لهجمة استعمارية تؤدي إلى انهيار النظام الاستبدادي وزوال قيادته، الأمر الذي يدفع الأمة إلى الاحتماء بالقيادة الدينية والنظر إليها بديلًا للقيادة الرسمية المنهارة، فقد ارتضتها لأمور دينها؛ أفلا تلجأ إليها في أمور دنياها في اللحظات الحرجة؟

وعادة ما تنهض القيادة الدينية منذ بداية المرحلة الاستعمارية؛ وذلك لمواجهة استحقاقات المرحلة في ظل غياب القيادة الحاكمة، فتقدم المرجعيات الإسلامية لشعوبها قيمَ وثقافة الدفاع والمقاومة لأي مغتصب، باعتبار المقاومة هي الخيار الوحيد لمواجهة الاحتلال؛ ولذلك تتبنى المقاومة - بتياراتها المختلفة- جبهة المقاومة المسلحة والشاملة مع سلطة الاحتلال، ويظل لهم آراؤهم وتوجهاتهم إزاء الاحتلال، ومواقفهم وأساليب تعاملهم مع المشكلات الداخلية، ومنها: قضية المقاومة وحدود شرعية القوة والوحدة الوطنية[1].

ويُعتبر إصدار الفتاوى في المجتمع الانتفاضي أكثر المهام الملقاة على عاتق القيادة الدينية أهميةً وإثارةً وتأثيرًا؛ إذ تمتلك الفتاوى تأثيرًا بالغًا في توجيه وتصعيد السلوك الانتفاضي في مواجهة الاحتلال وتقييم مدى شرعية المؤسسات التي أنشأها، وتبيين الموقف من المقاومة وسبل تحقيق الوحدة الوطنية وتجاوز الإشكاليات التي تواجهها.

وتستخدم هذه الفتاوى الأصيلة - التي تحقق مصلحة المجتمع الانتفاضي- لمواجهة الدور المعاكس لفتاوى التخذيل[2].

---

(1) د. بشير سعد أبو القرايا، النموذج الانتفاضي الفلسطيني.. دراسة في الحركة الوطنية والظاهرة الإسلامية ص: 386، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، الطبعة الأولى، 1435هـ = 2014م.

(2) د. بشير سعد أبو القرايا، المرجع السابق.

من هنا تظهر أهمية الدور الانتفاضي للفتوى؛ حيث يمثل الدور الانتفاضي للفتوى ركنًا مهمًّا في منظومة حفظ كيان الأمة التي ترزح تحت نير الاحتلال، وقد برز هذا الدور الإحيائي في شتى الحقب التي تعرضت فيها الأمة للاحتلال.

وقد ظهر هذا الدور جليًّا في الحالة الفلسطينية؛ حيث شكلت الفتوى الداعمة للانتفاضة والمقاومة مصدرًا من مصادر البعث الانتفاضي، وصارت وقودًا يحافظ على جذوة المقاومة ملتهبة في وجه العدو الصهيوني.

وقد شكل الاحتلال الصهيوني عامل رفع لوظيفة الإفتاء ساهم في تفعيلها وتحفيزها؛ لتقوم بالدور التاريخي الذي اعتادت القيام به عندما تمر الأمة بظروف صعبة. وفيه توظف القيادة الدينية امتلاكها لسلاح إصدار الفتاوى الكفاحية في توجيه الفلسطينيين ودفعهم لمقاومة الاحتلال وتجاوز ما يهدد وحدتهم الوطنية، وتدبير أمور المعاش والخدمات التي لا غنى لهم عنها[1].

ومن أبرز الفتاوى التي أسهمت في إشعال جذوة الانتفاضة والمقاومة فتاوى إباحة العمليات الاستشهادية ضد العدو الصهيوني التي حسمت مادة الجدل حول هذا النوع من العمليات ذات التأثير البالغ الذي يفت في عضد العدو، ويلحق به خسائر فادحة تجبره على إعادة حساباته.

(1) د. بشير سعد أبو القرايا، المرجع السابق.

وقد تنوعت الفتاوى الداعمة للعمل الانتفاضي، بحيث شملت التأصيل النظري لمشروعية الانتفاضة والمقاومة، بل ووجوبهما في بعض الأحوال، كما شملت بيان الأحكام التفصيلية في مختلف القضايا العملية (الاجتماعية والاقتصادية والسياسية) التي تتعلق بالانتفاضة والمقاومة، فأكسبت العمل الجهادي ضد العدو الصهيوني زخمًا مكتسبًا من قوة المشروعية التي تمثل حافزًا أساسيًّا لحركة المقاومة.

كما تنوعت الشرائح المصدرة لفتاوى الانتفاضة والمقاومة، فصدرت هذه الفتاوى من كافة الفقهاء الداعمين للقضية الفلسطينية على اختلاف جنسياتهم، فأكسب هذا التنوع القضيةَ زخمًا إضافيًّا أسهم في دعم الانتفاضة والمقاومة[1].

ثانيًا- دور الفتوى في الحفاظ على العقيدة والهوية (حفظ الكيان المعنوي للأمة):

للفتوى دور عظيم في الحفاظ على الهوية الإسلامية لدى الشعوب الإسلامية، خاصة الأقليات والشعوب الإسلامية التي تتعرض لعمليات تستهدف سلب الهوية الإسلامية.

---

(1) يراجع في تفصيل الدور الانتفاضي للفتوى ونماذج الفتاوى التي يبرز فيها هذا الدور: د. بشير سعد أبو القرايا، النموذج الانتفاضي الفلسطيني.. دراسة في الحركة الوطنية والظاهرة الإسلامية ص: 388-432.

وهذا الدور المهم يظهر به إسهام الفتوى في المقاومة الحضارية لعمليات العلمنة والتغريب التي تستهدف عزل الأمة عن مرجعيتها، وإخراج حملة هذه المرجعية من مساحة التأثير والتغيير.

يقول الأستاذ «عبد الباقي خليفة»: «لقد مثلت الفتوى في البلقان - ولا سيما البوسنة - طوق النجاة للمسلمين الذين كانت تتقاذفهم الأمواج، وتحيط بهم الأخطار من كل جانب بعد انحسار ظل الخلافة العثمانية. بل كان للفتوى دور حاسم في حقن دماء المسلمين عندما تدب الخلافات بين الناس، أو بين السلطات والمعارضة»[1].

وقال أستاذنا الدكتور «حسن الشافعي» في بحثه عن المؤثرات المعاصرة على الإفتاء: «كان الترويج للثقافة الغربية في ميادين الأحوال الشخصية والأوضاع المجتمعية طاغيًا، ولكن المجتمعات العربية والإسلامية مازالت تقاوم هذه المؤثرات رغم تصاعدها وإحراجها للسلطات السياسية، وقد كان العبء الأكبر في المواجهة بين الثقافات المحلية والثقافة الغربية - التي يراد إملاؤها على الكافة - يقع على عاتق المؤسسات الدينية في العالم الإسلامي، ومنها مؤسسة الإفتاء، لكن المقاومة كانت قوية في مؤتمر القاهرة، والتناسق بين المؤسسة الدينية والسلطة السياسية كان ناجحًا في الدفاع عن خصوصيات المجتمع

---

(1) عبد الباقي خليفة، دور الفتوى في الحفاظ على الهوية الإسلامية في البلقان، مقال منشور بموقع الإسلام اليوم، بتاريخ السبت 26 رمضان 1429الموافق 11أكتوبر 2008.

الإسلامي، ومازال الصراع مستمرًّا، ومسئوليات الإفتاء متجددة، في عالم مفتوح مؤمن بالشفافية ويرفض القيود في كل المجالات»[1].

ثالثًا- دور الفتوى في المقاومة الحضارية للظلم والاستبداد:

كان للفتوى دور عظيم في حماية المجتمع من مفاسد الظلم والاستبداد، فكم من فتوى - أصدرها (فقيه مقاوِم) - تسببت في إنقاذ البلاد، أو رفع البلاء عن العباد، أو رد الحقوق المسلوبة إلى أصحابها، وفيما يأتي نعرض نماذج لهذه (الفتاوى المقاوِمة):

فتوى الشيخ «سليمان المنصوري»[2] بإبطال المرسوم السلطاني

(1) المؤثرات المعاصرة على الإفتاء ص36.

(2) لم أقف على ترجمة وافية له، ومن العجيب أن الجبرتي ذكره في مواضع عدة وخلع عليه عبارات التبجيل، مثل: (شيخ وقته) و(إمام عصره) ومع هذا لم يترجِم له، مع أنه ترجم لمن هو أقل منه شأنًا، لكن يظهر من كلام الجبرتي أنه كان شيخ المذهب الحنفي بالأزهر الشريف، ومفتي السادة الحنفية في أواسط القرن الثاني عشر الهجري، وأنه مات في الثلث الأخير من القرن الثاني عشر الهجري بعد سنة 1162 ه وقبل سنة 1182ه؛ حيث ذكر الجبرتي أن هذه الحادثة كانت قبل سنة 1130ه. وذكر في موضع آخر أن «أحمد باشا -المعروف بكور وزير- قدم مصر في غرة المحرم سنة 1162، ولما وصل إلى مصر واستقر بالقلعة وقابله صدور العلماء في ذلك الوقت، وهم الشيخ عبد الله الشبراوي شيخ الجامع الأزهر، والشيخ سالم النفراوي، والشيخ سليمان المنصوري، فتكلم معهم وناقشهم وباحثهم». فيظهر من هذا أنه مات بعد سنة 1162 ه. وذكر الجبرتي - في ترجمة حسن بن نور الدين المقدسي الحنفي الأزهري - أنه ولي إفتاء الحنفية بعد شغور المنصب بموت الشيخ سليمان المنصوري. والشيخ حسن المذكور مات سنة 1182؛ فيؤخذ من هذا أن الشيخ سليمان المنصوري مات قبل سنة 1182ه. تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (1/ 222، 276، 367).

بشأن كيفية الصرف:

قال الجبرتي في حوادث سنة 1140ه: «وفي عاشر الحجة... وصل أيوب بك أمير سفر العجم... وفي أيامه وَرَد أغا وعلى يده مراسيم وأوامر منها: إبطال مرتبات الأولاد والعيال، ومنها إبطال التوجيهات، وأن المال يقبض إلى الديوان ويصرف من الديوان، وأن الدفاتر تبقى بالديوان ولا تنزل بها الأفندية إلى بيوتهم.

فلما قرئ ذلك قال القاضي: أمْرُ السلطان لا يخالَف ويجب إطاعته..

فقال الشيخ سليمان المنصوري: يا قاضي الإسلام، هذه المرتبات فعل نائب السلطان؛ وفعل النائب كفعل السلطان، وهذا شيء جرت به العادة في مدة الملوك المتقدمين، وتداولته الناس وصار يباع ويشرى ورتبوه على خيرات ومساجد وأسبلة، ولا يجوز إبطال ذلك، وإذا بطل بطلت الخيرات وتعطلت الشعائر المرصد لها ذلك؛ فلا يجوز لأحد يؤمن بالله ورسوله أن يبطل ذلك، وإن أمَرَ وليُّ الأمر بإبطاله لا يسلم له، ويخالَف أمره؛ لأن ذلك مخالف للشرع، ولا يسلم للإمام في فعل ما يخالف الشرع ولا لنائبه أيضًا.

فسكت القاضي، فقال الباشا: هذا يحتاج إلى المراجعة[1]»

قال الأستاذ «محمد جلال كشك» تعليقًا على هذه الفتوى:

---

(1) تاريخ الجبرتي 1/ 221.

«هذه السطور الأخيرة من المرافعة الدستورية للشيخ المنصوري، أليست كافية وحدها لكشف زيف كل ما يكتب عن الدور التحضيري الذي لعبته الحملة الفرنسية - أو الاستعمار الغربي، أو أوربا - في المفاهيم السياسية بالعالم الإسلامي؟

هل هناك حكم بعدم دستورية مرسوم سلطاني أوضح وأجرأ وأكثر دقة من هذا الحكم الذي أصدره الشيخ المنصوري فأسكت القاضي، بل وألزم الباشا أن يقول: إن الأمر يحتاج لمراجعة؟

هذا المبدأ الخطير الذي يعلنه الشيخ المنصوري - ببساطة - في مواجهة نائب السلطان والذي يسقط الشرعية عن أي مرسوم سلطاني يخالف الشريعة - أي يخالف الدستور- يعلنه الشيخ الأزهري في سنة (1148هـ) = (1735)، أي: قبل سقوط الباستيل بأكثر من نصف قرن ! قبل أن يفكر أي عقل غربي في القارة الأوربية بجواز معارضة الملوك فضلًا عن أن يجرؤ على إعلان ذلك في مواجهة السلطة، وبمثل هذا الوضوح والتحدي.

إن آخر ما يمكن أن تُعلِّمه أوربا للشرق الإسلامي هو فكرة بشرية الحاكم، ومن ثم حق الاعتراض على الخطأ في أحكامه[1]».

فتاوى الإمام الدردير ضد مظالم المماليك، وتقرير استيراتيجية الردع الشعبي:

(1) ينظر: محمد جلال كشك، ودخلت الخيل الأزهر، ص: 86، الزهراء للإعلام العربي، الطبعة الثالثة.

كانت حياة الشيخ الدردير حلقة متصلة من الجهاد العلمي[1] والشعبي، تجلت فيها شجاعة الشيخ في الصدع بكلمة الحق والدفاع عن حقوق المظلومين من العامة، الأمر الذي كان له أكبر الأثر في تَبَوُّء الشيخ للمكانة العظيمة التي نالها في حياته وبعد مماته.

وتقدم في الفصل الأول نماذج لمواقف الشيخ النبيلة في نصرة المظلومين، ونركز هنا على فتاوى الشيخ التاريخية التي يظهر فيها أثر العالم العامل في مقاومة المظالم ونصرة الحق..

وتعد فتاوى الإمام الدردير - التي وقعها ضد مظالم المماليك - من أبرز الفتاوى التي تظهر ما للفتوى من أثر عظيم في تحريك العامة في مقاومة الاستبداد، كما تبرز الدور المهم الذي كان يقوم به المشايخ في قيادة ثورات الجماهير ضد مظالم الحكام.

ومن الفتاوى التي حفظها لنا التاريخ: فتوى الإمام الدردير بمناسبة المظالم التي صدرت من حسين بك الشفت[2] وأعوانه ضد العامة في القاهرة..

قال الجبرتي في حوادث شهر صفر سنة 1200ه: «وفي عصرية يوم الخميس... ركب حسين بك المذكور بجنوده، وذهب إلى الحسينية وهجم على دار شخص يسمى (أحمد سالم الجزار) -متولي رياسة

(1) ويعد الجهاد بالفتوى (المقاوِمة) ذروةَ سَنام الجهاد العلمي.

(2) هو: حسين بك، المعروف بـ(الشفت) بمعنى اليهودي، أحد أمراء المماليك، وكان من أعوان مراد بك الذين تسلطوا على مصادرات الناس في أموالهم. مات سنة 1204ه منفيًا بقلعة (ليميا). تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (1/ 609).

دراويش الشيخ البيومي[1]- ونهبه حتى مصاغ النساء والفراش ورجع والناس تنظر إليه...

وفي صبحها - يوم الجمعة - ثارت جماعة من أهالي الحسينية؛ بسبب ما حصل في أمسه من حسين بك، وحضروا إلى الجامع الأزهر ومعهم طبول، والتف عليهم جماعة كثيرة من أوباش العامة والجعيدية وبأيديهم نبابيت... وذهبوا إلى الشيخ الدردير فوافقهم وساعدهم بالكلام وقال لهم: (أنا معكم)، فخرجوا من نواحي الجامع وقفلوا أبوابه وطلع منهم طائفة على أعلى المنارات يصيحون ويضربون بالطبول وانتشروا بالأسواق في حالة منكرة وأغلقوا الحوانيت[2]. وقال لهم الشيخ الدردير: (في غدٍ نجمع أهالي الأطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة وأركب معكم، وننهب بيوتهم كما ينهبون بيوتنا، ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم)، فلما كان بعد المغرب حضر سليم أغا مستحفظان ومحمد كتخدا أرنؤد الجلفي -كتخدا إبراهيم بك- وجلسوا في الغورية، ثم ذهبوا إلى الشيخ الدردير وتكلموا معه، وخافوا من تضاعف الحال وقالوا للشيخ: (اكتب لنا قائمة بالمنهوبات ونأتي بها من محل ما تكون). واتفقوا على ذلك وقرءوا

(1) تقدمت ترجمته في الفصل الثاني.

(2) تكررت هذه الأفعال في كل الحوادث التي قرر العامة فيها الثورة تحت قيادة المشايخ؛ مما يدل على معرفة (الحركة الجماهيرية المقاوِمة) لإجراءات الإضراب والعصيان المدني.

الفاتحة وانصرفوا، وركب الشيخ في صبحها إلى إبراهيم بك وأرسل إلى حسين بك فأحضره بالمجلس وكلمه في ذلك فقال: في الجواب: «كلنا نهابون: أنت تنهب، ومراد بك ينهب، وأنا أنهب كذلك»»[1].

فهنا أفتى الشيخ الدردير بجواز المعاملة بالمثل؛ تقريرًا لاستيراتيجية الردع الشعبي للأمير الظالم الذي يعبث بمقدرات الأمة.

ويظهر في هذه الحادثة مدى قوة التحام العالِم بالجماهير في انتفاضتهم ضد الظلم، ويظهر هذا في قول الشيخ للعامة: (وأركب معكم)، فالشيخ (المقاوِم) هنا يعرض نفسه لخطر عظيم (في سبيل المبدأ)؛ إذ يصحب (الفقيهُ المقاوِمُ) العامةَ في انتفاضتهم دفاعًا عن حقوقهم المسلوبة - وسعيًا في استردادها - ولا شك أن الشيخ (المقاوِم) يدرك عواقب هذه المخاطرة التي تجعل النتيجة مفتوحة على جميع الاحتمالات المتصوَّرة، لكنه لم يأبه لما يمكن أن يناله من ألوان الأذى؛ لأنه لم يرضَ لنفسه باختلاف المصير؛ طلبًا للسلامة، وكأنه تمثل بقول الشاعر:

حُبُّ السلامة يثني عزمَ صاحبه   عن المعالي، ويغري المرء بالكسل

بل تماهَى (الفقيهُ المقاوِم) في حركة العامة، وربط مصيره بمصيرهم، وكأن مبدأ (الفقيه المقاوِم) يأبى عليه إلا (وحدة المصير) بحيث يجري عليه ما يجري على الجماهير التي وضعت فيه ثقتها،

(1) تاريخ الجبرتي 1/ 610.

ورضيت بقيادته، وتجسد هذا التماهي في قول الشيخ: «ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم»، يا لها من عبارة حاسمة؛ إذ يتحدث (الشيخ المقاوم) بصيغة الجماعة التي يظهر فيها قوة الانصهار في المسير، وشدة الارتباط في المصير!

ويظهر أيضًا انحياز (الفقيه المقاوِم) إلى الطرف الضعيف في مواجهة الطرف القوي الذي لم يخشَ الله - تعالى- ولم يهتم بالقيمة الأخلاقية، فصار المشهد في حالة (توحش القوة)؛ حيث تحولت القوة إلى مصدر شقاء للجماهير بدل أن تسخر هذه القوة في تحقيق مصالح الناس، وتعد هذه صورة من صور (انعكاس المطبوع، وانقلاب الموضوع) [1] التي تحدث عنها الجبرتي، وجعلها من مقدمات السقوط المدوي الذي أفاقت الأمة على وقعه بعد اجتياح الحملة الفرنسية للأراضي المصرية.

فتوى مشايخ الأزهر بتحريم بيع الأحرار:

وخلاصة قصة هذه الفتوى أن «حسن باشا القبطان» جاء إلى مصر في سنة 1200ه نائبًا للسلطان العثماني، واستبشر الناس بقدومه؛ لانتشار مظالم المماليك التي أعنتت المصريين، فاستغل «حسن باشا» حالة السخط العام على المماليك، فحارب أمراء المماليك وانتصر عليهم، ثم شرع في مصادرة أملاكهم، وتجاوز الحد في العسف بهم وبأسرهم، فقبض على بعض أبناء المماليك وأمهات أولادهم، وقرر بيعهم، فاعترض عليه المشايخ بعدم جواز بيع الأحرار وأمهات الأولاد.

(1) تاريخ الجبرتي 2/ 179.

وذكر الجبرتي قصة هذه الفتوى في حوادث سنة 1200ه، فقال: «وفي وقت العشاء من ليلة الاثنين وصل (حسن باشا القبطان[1]) إلى ساحل بولاق، وضربوا مدافع لقدومه واستبشر الناس وفرحوا وظنوا أنه مهدى الزمان، فبات في مراكبه إلى الصباح يوم الاثنين ثاني عشر شوال وطلع.

وفي يوم الثلاثاء ذهب إليه مشايخ الأزهر وسلموا عليه، وكذلك التجار، وشكوا إليه ظلم الأمراء؛ فوعدهم بخير واعتذر إليهم باشتغاله

(1) هو قائد عسكري أرسله السلطان العثماني إلى مصر؛ لتأديب أمراء المماليك، وذلك سنة 1200ه، واستبشر الناس بقدومه، وصار نائبًا للسلطان، وعُرف بالحزم وشدة البطش، وقام بعدة إصلاحات، وأبطل بعض مظالم المماليك، لكنه قرر بدلها مظالم أخرى، فتغيرت قلوب الخلق جميعًا عليه، وخاب ظنهم فيه، وتمنوا زواله، وفشا شر جماعته وعساكره في الناس وزاد فسقهم وشرهم وطمعهم، وانتهكوا حرمة المصر وأهله إلى الغاية. وخرج من مصر في يوم السبت 23 من ذي القعدة سنة 1201ه باستدعاء من السلطان العثماني؛ بسبب تهديدات الإمبراطورية الروسية للدولة العثمانية واستيلائهم على ما بقي من بلاد القرم. قال الجبرتي: «ولم يحصل من مجيئه إلى مصر وذهابه منها إلا الضرر، ولم يبطل بدعة ولم يرفع مظلمة، بل تقررت به المظالم والحوادث، فإنهم كانوا يفعلونها قبل ذلك مثل السرقة ويخافون من إشاعتها وبلوغ خبرها إلى الدولة فينكرون عليهم ذلك، وخابت فيه الآمال والظنون... وزاد في المظالم التحرير؛ لأنه كان عندما قدم أبطل رفع المظالم ثم أعاده بإشارة إسماعيل بك، وسماه التحرير؛ فجعله مظلمة زائدة... ولو مات حسن باشا بالإسكندرية أو رشيد؛ لهلك عليه أهل الإقليم أسفًا، وبنوا على قبره مزارًا وقبة وضريحًا يقصده للزيارة». تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (1/ 621)، (2/ 32).

بمهمات الحج وضيق الوقت وتعطل أسبابه...

وفي يوم الاثنين أحضروا[1]... عدة جوارٍ من بيوت الأمراء... وأحاطوا بعدة بيوت... فيها ودائع وأغلال، فأخذوا بعضها وختموا على باقيها، وأحضروا الجواري بين يدى «حسن باشا» فأمر ببيعهن، وكذلك أمر ببيع أولاد إبراهيم بك مرزوق وعديله والتشديد على زوجاته، ثم إن الشيخ السادات ركب إلى الشيخ أحمد الدردير وأرسلوا إلى الشيخ أحمد العروسي والشيخ محمد الحريرى[2]، فحضروا وتشاوروا في هذا الأمر ثم ركبوا

(1) أي: جنود حسن باشا القبطان.

(2) الإمام العلامة والبحر الفهامة صدر المدرسين وعمدة المحققين مفتي الحنفية بالديار المصرية الشيخ محمد عبد المعطي ابن الشيخ أحمد الحريري الحنفي، ولد سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف، ونشأ في عفة وصلاح وحفظ القرآن وجوده وحفظ المتون وحضر أشياخ العصر، وكان ينسخ بالأجرة وكتب كتبًا كثيرة وخطه في غاية الصحة والجودة، ولما توفي شيخه حسن المقدسي تقرر مكانه في وظيفة الخطابة والإمامة بجامع عثمان كتخدا بالأزبكية، وسكن بالدار المشروطة له بها السكنى برحاب الجامع المذكور وكانت خطبه في غاية الخفة والاختصار، ولوعظه وقع في النفوس؛ لخلوه عن التصنع، ولما مات الشيخ أحمد الدمنهوري في سنة اثنتين وتسعين ومائة وألف؛ تعين المترجَم لمشيخة الحنفية والفتوى، وكان أهلًا لذلك، وسار فيها سيرًا حسنًا بحشمة واشتهر ذكره وقصدته الناس للفتوى والإفادة وأقبلت عليه الدنيا، وانحصرت فيه وظائف مشيخة الحنفية، وكان نحيف الجسم، ودعاه بعض أحبابه بناحية قناطر السباع فركب وذهب إليه فلما طلع إلى المجلس وأراد الصعود إلى مرتبة الجلوس زلقت رجله فانكسر عظم ساقه وتكدر الحاضرون وحملوه وذهبوا به إلى داره وأحضروا له المعالج

وطلعوا إلى القلعة وكلموا محمد باشا[1] وطلبوا منه أن يتكلم مع قبطان باشا، فقال لهم: ليس لي قدرة على منعه، ولكن اذهبوا إليه واشفعوا عنده. فالتمسوا منه المساعدة؛ فأجابهم وقال: اسبقوني وأنا أكون في أثركم، فلما دخلوا على القبطان وحضر أيضًا محمد باشا وخاطبوه في شأن ذلك، وكان المخاطب له الشيخ السادات، فقال له: (إنا سررنا بقدومك إلى مصر؛ لما ظنناه فيك من الإنصاف والعدل، وإن مولانا السلطان أرسلك إلى مصر؛ لإقامة الشريعة ومنع الظلم، وهذا الفعل لا يجوز، ولا يحل بيع الأحرار وأمهات الأولاد)، ونحو ذلك من الكلام، فاغتاظ وأحضر أفندى ديوانه وقال: (اكتب أسماء هؤلاء؛ لأرسل إلى السلطان وأخبره بمعارضتهم لأوامره) ثم التفت إليهم وقال: (أنا أسافر من عندكم والسلطان يرسل لكم خلافي فتنظروا فعله، أما كفاكم أني في كل يوم أقتل من عساكرى طائفة على أيسر شيء؛ مراعاة وشفقة، ولو كان غيري لنظرتم فعل العسكر في البيوت والأسواق والناس. فقالوا له: إنما نحن شافعون والواجب علينا قول الحق. وقاموا من عنده وخرجوا، وتغير خاطره من ذلك الوقت على الشيخ السادات[2]».

فلم يحسن المعالجة وتألم تألُّمًا كثيرًا، واستمر ملازمًا للفراش نحو سبع سنوات لم ينقطع فيها عن التعليم والإفادة، ثم توفي يوم الأربعاء سابع عشر رجب من سنة 1220هـ عن سبع وسبعين سنة، ودفن بتربة الأزبكية. تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (3/ 108).

(1) محمد باشا يكن، الوالي العثماني، تولى في أول المحرم سنة 1200ه. تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار (1/ 607).

(2) تاريخ الجبرتي 1/ 638.

فتوى الأزهر الشريف بسقوط شرعية الحاكم الذي يستخدم السلاح ضد المتظاهرين السلميين:

حيث أفتى الدكتور/ أحمد الطيب، شيخ الأزهر الشريف -في بيان يعود تاريخه إلى 31 أكتوبر 2011م- بسقوط شرعية الحاكم إذا استخدم السلاح ضد المتظاهرين السلميين؛ وأباح للشعوب المقهورة أن تعمل على عزل الحكام المتسلطين ومحاسبتهم وتغيير النظام بأكمله، وحرم على الجيوش أن تتحول إلى أدوات للقمع وإرهاب للمواطنين وسفك لدمائهم.

ونص الفتوى كما ورد في بيان مصور[1] من مشيخة الأزهر الشريف: «تعد مواجهة أي احتجاج وطني سلمي بالقوة والعنف

(1) بالفيديو.. شيخ الأزهر: مواجهة أي احتجاج سلمي بالقوة يوجب عزل الحاكم.
http://al- mashhad.com/News/Search/%D8%A8%D8%A7%D984%%D9%81%D98%A%D8%AF%D98%A%D988%..-%D8%B4%D98%A%D8%AE-%D8%A7%D984% %D8%A3%D8%B2%D987% %D8%B1:-%D985% %D988% %D8%A7%D8%AC%D987% %D8%A9-%D8%A3%D98%A-%D8%A7%D8%AD%D8%AA%D8%AC%D8%A7%D8%AC-%D8%B3%D984%%D985%%D98%A-%D8%A8%D8%A7%D9%84%D982%%D988%%D8%A9-%D98%A%D988%%D8%AC%D8%A8-%D8%B9%D8%B2%D984-%%D8%A7%D984%%D8%AD%D8%A7%D983%%D943992/85%.aspx

المسلح وإراقة دماء المواطنين المسالمين؛ نقضًا لميثاق الحكم بين الأمة وحكامها، ويُسقط شرعية السلطة، ويُهدر حقها في الاستمرار بالتراضي، وأصبح من حق الشعوب المقهورة أن تعمل على عزل الحكام المتسلطين وعلى محاسبتهم وتغيير النظام بأكمله مهما كانت المعاذير: من حرص على الاستقرار، أو مواجهة للفتن والمؤامرات، وعلى الجيوش المنظمة في أوطاننا كلها في هذه الأحوال أن تلتزم بواجباتها الدستورية في حماية الأوطان من الخارج، ولا تتحول إلى أدوات للقمع وإرهاب للمواطنين وسفك لدمائهم».

وقد سبق هذه الفتوى بيان مشابه في شأن الثورة الليبية؛ حيث طالب شيخ الأزهر أحمد الطيب، السبت 26 – 2 – 2011، جميع الليبيين بعدم طاعة زعيمهم معمر القذافي.

وأصدر الأزهر بيانًا شديد اللهجة ضد ممارسات القذافي بحق الشعب الليبي، مؤكدًا أن حكمه «أصبح الآن في حكم الغاصب المعتدي المتسلط على الناس ظلمًا وعدوانًا»، داعيًا جميع المسئولين الليبيين وضباط الجيش الليبي وجنوده إلى أن يرفضوا طاعة النظام في إراقة دماء الشعب الليبي واستحلال حرماته، وإلا أصبحوا شركاء له في الجرم. [1]

وليت الأزهر الشريف يتمسك بهذه الفتوى في كل الأحوال التي تنطبق عليها؛ حتى يكون بمنأى عن الاتهام بالالتزام بالفتاوى الصادرة

(1) شيخ الأزهر يطالب الجيش والمسئولين الليبيين بعدم طاعة القذافي:
http://www.alarabiya.net/articles/2011139373/26/02/.html.

منه في أحوال دون أحوال.

ومن الملاحظات التي أود التأكيد عليها: أن (فتاوى المقاومة الحضارية) نموذج مهم لما اصطلح بعض المفكرين المعاصرين على تسميته بفتاوى الأمة، ويقابلها ما اصطلحوا على تسميته بفتاوى الأفراد، فالملاحظ في (فتاوى المقاومة الحضارية) أنها فتاوى جامعة يتسع نطاقها الإصلاحي ليشمل الأمة -جمعاء- بمنافع جمة تفيد في الحفاظ على كيانها المادي والحضاري.

***

الخاتمة

بعد هذه الرحلة الماتعة - التي عشناها مع تلك النماذج النابضة بالأمل- يحين موعد التعقيب الإجمالي الذي يسلط الضوء على أهم نتائج البحث:

حضارية المقاومة:

إن وصف المقاومة بـ(الحضارية) وعدمها يرجع إلى مدى التزام الحركة المقاوِمة بأخلاقيات الحضارة، وهي في الحالة الإسلامية: جملةٌ من القواعد والأحكام الشرعية الضابطة للعمل المقاوِم، وتُستمد هذه القواعد والأحكام - غالبًا - من الأبواب الفقهية التي تُعنَى ببيان الأحكام التي تدخل في نطاق المقاومة في الاصطلاح المعاصر المتقدم بيانه؛ كأحكام الجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحسبة، ونحو ذلك من الأحكام المتصلة بقضايا الإصلاح والتغيير.

وعليه؛ فوصف المقاومة بـ(الحضارية) وعدمها يحصل باعتبار: الشكل الذي تكون عليه المقاومة، والوسيلة التي يتخذها المقاوِمون.

فإن وضعت الحركة المقاوِمة لنفسها حدودًا وضوابط أخلاقية تلتزم بها وتعد الإخلال بها انحرافًا عن المسار الصحيح للمقاومة؛ فإنها تكون حينئذ مقاومة حضارية؛ لأنها (مقاومة منتمية للحضارة)؛ إذ التزمت بمرجعيتها الأخلاقية والتشريعية.

وإن لم تهتم الحركة المقاوِمة بمسألة الضوابط سالفة الذكر وأطلقت لنفسها العنان في تجاوز كل الضوابط الأخلاقية والأعراف الإنسانية؛ فإنها – حينئذ – لا تكون حضارية، وتكون جديرة باسم آخر غير اسم «المقاومة».

ضبط قرون الانحدار:

يعد دخول الحملة الفرنسية إلى مصر النتيجة المنطقية لدخول الأمة في حقبة الانحدار، وعلامةَ هذا الدخول في الوقت ذاته؛ فدخول الأمة في هذه الحقبة – التي هي محل البحث في هذا المحور– لم يكن ليُنتبه إليه لولا وقوعُ حدثٍ جلل تنهار على وقعه كلُّ صروح الوهم والتجهيل والعبث التي انحبست الأمة داخلها في حِقبة الحملة الفرنسية والعقود التي سبقتها.

وبناء عليه؛ فيمكن تعريف قرون الانحدار بأنها القرون الثلاثة الأخيرة من عمر الأمة، وهي القرون التي شهدت – في نطاق الداخل – انحلال القيادة وفسادها، وضعف المجتمعات الإسلامية، وتفكك أواصر الوحدة العربية والإسلامية.

وشهدت – في نطاق الخارج – أول تفوق معرفي وعسكري كاسح يتمتع به الغرب، الأمر الذي سهل دخول موجات متتابعة من الاحتلال إلى أراضي العرب والمسلمين، مع حرص الاحتلال على كبح أية نهضة محتملة يمكن أن تقوم في الشرق الإسلامي وتكسبه استقلالًا يحرره من حالة التبعية للمحتل الغربي.

وقد لفت نظري - أثناء الدراسة - أن الأمراض الكبرى التي عانت منها الأمة - في الحقبة محل الدراسة - لا تزال كما هي متمكنة من جسد الأمة إلى يومنا هذا، ومانعة إياها من تحقيق النهضة العظمى والطفرة الكبرى التي تلزم كي تتبوأ أمتنا المكانة اللائقة بها في مقدمة الأمم، وتودِّع بها الأمةُ - إلى غير رجعة - المكانةَ التي تبوأتها في العالم الثالث، وكأن أمتنا لم تعِ حركة التاريخ التي وعتها الأمم الناهضة وأفادت منها في تصحيح مسيرتها، وترشيد حركتها.

المقاومة بين عصور الازدهار وعصور الانحدار (استمرارية المقاومة):

لا ينحصر معنى المقاومة في كونه رد فعل للهجمات المدبرة التي تهدد كيان الأمة في أوقات الضعف، بل هو عنصر ذاتي مستمر الحضور في كيان الأمة على اختلاف العصور..

ففي عصور الازدهار تتخذ المقاومة شكل الوقاية التي تحمي هذا الجسد القوي من تسرب الآفات الفتاكة التي تعصف بمقدرات الأمم القوية، وتحيلها من طور المنعة إلى طور التراجع والانحدار، ويمكن تسمية هذه الحقيقة بـ(المناعة الكامنة).

وفي عصور الانحطاط تتآكل منظومة الوقاية الذاتية؛ لأن الأمراض تكون قد نجحت بالفعل في التسلل إلى الجسد القوي، وحينئذ تحيل هذا الجسد من طور القوة إلى طور الاختلال، فتبرز حركة المقاومة في شكلها الصريح هادفة إلى الحفاظ على الجسد المختل من الموت والانهيار حتى يبقى الأمل في العلاج والتعافي قائمًا.

بواعث المقاومة في قرون الانحدار:

في القرون الثلاثة المنصرمة من عمر الأمة كان للمقاومة طابع خاص يتشكل بشكل التحديات غير المسبوقة التي واجهتها الأمة في هذه القرون، وكان الباعث عليه: فساد القيادة وانتشار المظالم، وهذا باعث داخلي، ثم انضم إليه باعث آخر خارجي من التفوق المعرفي الذي تمتع به الغرب المحتل لأول مرة، فرجحت كفته على كفة الشرق، وقد أتاح هذا التفوق لطلائع الاحتلال الغربي (الحملات الصليبية الأخيرة) أن يترك في الأمة - لأول مرة - بذور التغريب والعلمنة وإن رحل عن البلاد التي احتلها بقواته العسكرية تحت وطأة المقاومة الباسلة.

المقاومة الجماهيرية والثورة:

كان للمقاومة الجماهيرية أهمية كبيرة لا سيما في الأوقات التي شهدت انهيار القيادة الرسمية بفعل اجتياح العدو؛ حيث تحملت الحركة الجماهيرية مسئولية الحفاظ على كيان الأمة – بشقيه: المادي والمعنوي - وأعادت هيكلة القيادة بما يتلاءم مع الظروف الحقيقية للمجتمع، وبما يرتقي لمستوى تطلعات الجماهير، وتمخض الحراك الشعبي عن إنجازات فشلت في تحقيقها القيادات الرسمية.

ويتسع نطاق المقاومة الجماهيرية بالتساوي مع قدر التحديات، وقد ظهر هذا جليًّا إبان اجتياح القوات الفرنسية لمصر؛ حيث اتسع

نطاق المقاومة الشعبية ليعم فئات المجتمع كافة، وشهدت مصر ثورات غير مسبوقة في تاريخها، سواء من حيث التنظيم أو من حيث تنوع الفئات المشاركة فيها، أو من حيث مقدار التضحيات التي بذلت، وعرفت مصر حينها أول ثورة فلاحين عرفها الشرق.

كما برز دور المرأة المصرية المجاهدة في شن عمليات المقاومة - على اختلاف أشكالها - ضد الاحتلال الفرنسي، ورأينا كيف أن أولئك النسوة المصريات المجاهدات هن الطليعة النسوية الحقيقية، على خلاف ما زعمته المدرسة الاستعمارية في تفسير التاريخ.

وكان مما لفت النظر: وجودُ تضامن عربي- إسلامي في مساندة ثورات المصريين ضد الحملة الفرنسية، وكيف أن بعض الثوار العرب وفدوا إلى مصر واستطاعوا أن يشكلوا مجموعات ثورية وفِرَقًا عسكرية أبلت بلاءً حسنًا في صد القوات الفرنسية.

ورأينا أن المقاومة الجماهيرية لم تقتصر على مقاومة الوجود العسكري للمحتل، وإنما امتدت لتشمل مقاومة محاولات التذويب الحضاري، وقد أبلت الحركة الجماهيرية - في هذا الميدان - بلاءً حسنًا نال إعجاب مؤرخي الحملة الفرنسية وغيرهم.

ولا يضير الحراكَ الشعبيَّ وقوعُ بعض التجاوزات؛ فهذا خلل لم تسلم منه حركة مقاومة شعبية في التاريخ.

مقاومة المؤسسات الوسيطة بين التاريخ والواقع:

لم تنحصر حركية المقاومة في الهبات الشعبية والحركات الجماهيرية المقاوِمة، بل كان للمؤسسات الوسيطة دورها الذي لا ينكر، وهنا يبرز اسم الأزهر الشريف؛ حيث كان له إسهام بالغ الأهمية في بعث المقاومة وتوجيهها من خلال مشايخه الجماهيريين أمثال الإمام الدردير.

كما كان يقوم الأزهر بما يشبه الدور النقابي العام، حيث توجد قيادات نقابية تدافع عن مصالح الطبقة التي ارتضتها معبرة عنها ومدافعة عن حقوقها.

ولاحظنا كيف أن القيادة الدينية يتصاعد دورها في حال تعرض البلاد لهجمة استعمارية تؤدي إلى انهيار النظام الاستبدادي وزوال قيادته، الأمر الذي يدفع الأمة إلى الاحتماء بالقيادة الدينية والنظر إليها كبديل للقيادة الرسمية المنهارة.

ورأينا كيف أن فهم قوانين التخلف لم يكن مستعصيًا على شيوخ الأزهر، ولكن لم يسعفهم الدهر.

وأن أهل الأزهر والعامة كانوا يعرفون آليات الإضراب والعصيان المدني باعتبارها من صور المقاومة الفعالة في التصدي لمظالم الحكام، وكانوا يدركون أثرها في الضغط على الحكومة من أجل حملها على الاستجابة لمطالب الجماهير.

ولاحظنا أنهم كانوا ينفذونها بنجاح، ويجبرون الأمراء على الاستجابة لمطالبهم.

لكن فعالية الجماعة الوسيطة (الأزهر الشريف) في تمثيل مصالح العامة لم تكن لتترك دون أن تتعرض لمحاولات التقليص من القادة الذين كانوا يشعرون بالقلق من دور هذه المؤسسة، فتعرضت المؤسسة -خلال القرون الثلاثة الأخيرة - إلى عمليات متتابعة سميت بـ(عمليات تحطيم الأجنحة)، وجرت فيها إجراءات، قُصِدَ منها تقويض نفوذ المؤسسة ونزع الصفة التمثيلية منها، وأعيد توزيع هذه الأدوار والمهام -التي سُحبت من المؤسسة الأزهرية- على مؤسسات النظام الجديد: نظام ما بعد الحملة الفرنسية.

وقد ظهر أثر هذا التراجع في موقف المؤسسة من ثورة يناير والثورة المضادة لها؛ حيث ظهر أثر التأميم في تشكيل انحيازات المؤسسة وخياراتها.

ومما ينبغي أن يُلْتَفت إليه: أن تراجعَ هذه الجماعات الوسيطة - وفي قلبها الأزهر الشريف - ينذر بخطر داهم على منظومة الحقوق والحريات، ويمهد لحصول الاستبداد المدعوم بإمكانات يتضاءل أمامها ما كان يمتلكه فرعون نفسه من فرص لفرض الحكم المطلق والعصف بدولة القانون، على حد تعبير أستاذنا البشري.

مقاومة الكلمة:

لاحظنا كيف أن المقاومة بالكلمة كان لها أهميتها وحضورها القوي في مواجهة التحديات التي واجهتها الأمة، وهنا برز دور الفتوى في البعث الحضاري.

فكان للفتوى دور كبير في مقاومة الأمة الحضارية في قرون الانحدار، وقد ظهر هذا الدور في كل ميادين المقاومة: بداية من الحفاظ على وحدة الأمة وتماسكها إزاء الهجمات الحضارية المعادية، وحتى مقاومة الاستعمار المباشر..

وكان للفتوى دور عظيم في الحفاظ على الهوية الإسلامية لدى الشعوب الإسلامية، خاصة الأقليات والشعوب الإسلامية التي تتعرض لعمليات تستهدف سلب الهوية الإسلامية.

وهذا الدور المهم يظهر به إسهام الفتوى في المقاومة الحضارية لعمليات العلمنة والتغريب التي تستهدف عزل الأمة عن مرجعيتها، وإخراج حملة هذه المرجعية من مساحة التأثير والتغيير.

وتبين لنا خلال البحث: أن الفتوى في تاريخ المسلمين لم تقتصر فائدتها على إخبار الناس بالأحكام الشرعية، أو حل المشكلات الفردية، أو النزاعات الأسرية والاجتماعية محدودة النطاق، وإنما تعدى أثرها الإصلاحي (المقاوِم) إلى المجال العام؛ إذ قامت فيه (فتاوى الأمة) بدور داعم لحركة (الجماعات الوسيطة) في تمكين

(المجتمع الأهلي)، ومقاومة (التغول السلطوي) الهادف للاستئثار بمقدرات الأمة، وهذا النمط يمكن أن نطلق عليه (الفتوى المقاوِمة) أو (المقاوَمة بالفتوى).

فكان للفتوى دور عظيم في حماية المجتمع من مفاسد الظلم والاستبداد، وكم من فتوى - أصدرها (فقيه مقاوِم) - تسببت في إنقاذ البلاد، أو رفع البلاء عن العباد، أو رد الحقوق المسلوبة إلى أصحابها.

وأبرزت فتاوى الإمام الدردير - التي وقعها ضد مظالم المماليك - ما للفتوى من أثر عظيم في تحريك العامة في مقاومة الاستبداد، وظهر في هذه الحوادث مدى قوة التحام العالِم بالجماهير في انتفاضتهم ضد الظلم؛ حيث تماهَى (الفقيهُ المقاوِم) في حركة العامة، وربط مصيره بمصيرهم.

وظهر أيضًا انحياز (الفقيه المقاوِم) إلى الطرف الضعيف في مواجهة الطرف القوي الذي لم يخشَ الله - تعالى - ولم يهتم بالقيمة الأخلاقية، فصار المشهد في حالة (توحش القوة)؛ حيث تحولت القوة إلى مصدر شقاء للجماهير بدل أن تسخر هذه القوة في تحقيق مصالح الناس.

والحاصل أن الفتوى في المسيرة التاريخية للأمة كانت من أهم الأدوات الفاعلة للمقاومة الحضارية.

***

مصادر البحث

القرآن الكريم.

أولا - الكتب:

- ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي [ت: 458هـ]، «المحكم والمحيط الأعظم»، المحقق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1421 هـ – 2000 م.
- أحمد محمد عوف، الأزهر في ألف عام، منشورات مجمع البحوث الإسلامية.
- أحمد مختار عمر بمساعدة فريق عمل، دكتور، «معجم الصواب اللغوي.. دليل المثقف العربي»، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة: الأولى، 1429 هـ – 2008 م.
- أحمد مختار عبد الحميد عمر (المتوفى: 1424هـ)، دكتور، بمساعدة فريق عمل، «معجم اللغة العربية المعاصرة» عالم الكتب، الطبعة: الأولى، 1429 هـ – 2008 م.
- إيمان محمد عبد المنعم عامر، دكتورة، «العُربان ودورهم في المجتمع المصري في النصف الأول من القرن التاسع عشر»، الهيئة العامة للكتاب، فرع الصحافة 1997.

- بشير سعد أبو القرايا، دكتور، «النموذج الانتفاضي الفلسطيني.. دراسة في الحركة الوطنية والظاهرة الإسلامية»، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، الطبعة الأولى، 1435ه = 2014م.
- التهانوي: محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمّد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي (المتوفى: بعد 1158هـ)، «كشاف اصطلاحات الفنون»، تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم، تحقيق: د. علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناني، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، الطبعة: الأولى - 1996م.
- الجبرتي: عبد الرحمن بن حسن الجبرتي المؤرخ (المتوفى: 1237هـ)، «تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار»، دار الجيل بيروت.
- الجوهري: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: 393هـ) «الصحاح.. تاج اللغة وصحاح العربية»، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الرابعة 1407 هـ - 1987 م.
- الرازي: زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: 666هـ)، «مختار الصحاح»، بتحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية - الدار النموذجية،

بيروت – صيدا، الطبعة: الخامسة، 1420هـ/ 1999م.

- الزركلي: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: 1396هـ)، «الأعلام»، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر – أيار / مايو 2002 م.
- عبد المتعال الصعيدي، شيخ، «تاريخ الإصلاح في الأزهر»، ط: الهيئة العامة لقصور الثقافة.
- العسكري: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو 395هـ)، «الفروق اللغوية» حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر.
- عمار علي حسن، دكتور، «الإصلاح السياسي في محراب الأزهر والإخوان المسلمين»، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان.
- كحالة، عمر بن رضا بن محمد راغب بن عبد الغني كحالة الدمشقي (المتوفى: 1408هـ)، «معجم المؤلفين»، مكتبة المثنى – بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت.
- مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار)، «المعجم الوسيط»، دار الدعوة.

- محمد جلال كشك، «ودخلت الخيل الأزهر»، الزهراء للإعلام العربي، ط: 3
- محمد حواش، دكتور، «خطاب التضامن الإسلامي في ضوء حملة نابليون على مصر والشام، وموقف المغرب منها»، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط: 1، بيروت 2013م.
- محمد الشاويش، «نهضات مجهضة.. جدل الهوية والفاعلية»، دمشق، دار الفكر، الطبعة الأولى 1419= 2008
- محمد كامل الفقي، «الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة»، المطبعة المنيرية بالأزهر الشريف.
- محمود محمد شاكر، «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا»، ط: مكتبة الأسرة.
- ناثان ج. براون، «الأزهر في حقبة ما بعد الثورة»، مركز كارنيجي للشرق الأوسط.
- يوسف القرضاوي، دكتور، «رسالة الأزهر بين الأمس واليوم والغد»، ط: مكتبة وهبة.

مقالات وأوراق بحثية:

ثانيا - مقالات، وأوراق بحثية، وحوارات صحافية:

- أحمد مرسي، ناثان ج. براون، «الأزهر يخطو نحو الاستقلالية والنفوذ»، 13 نوفمبر 2013، مركز كارنيغي للشرق الأوسط.
- أحمد موسى، «صوت مستقل للأزهر في مصر»، نشرة الإصلاح العربي، 13 يوليو 2011م
- جمال قطب، شيخ، قانون الأزهر فضيحة وكارثة، حوار أجرته معه بوابة الوفد، منشور بتاريخ الأحد 29 يناير 2012.
- حسن الشافعي، دكتور: عبد الناصر أضاع أوقاف الأزهر بالمليارات، وتركها للكنيسة. تصريح صحفي منشور بعدد من المواقع والصفحات.
- حسن الشافعي، دكتور، «المؤثرات المعاصرة على الإفتاء»، نسخة وورد، منشور ضمن أبحاث مؤتمر: منهجية الإفتاء في عالم مفتوح.
- رفيق حبيب، دكتور، «الأزهر والإخوان.. الصراع المفترض على المرجعية»، دراسة على موقع الدكتور رفيق حبيب (http://www.rafikhabib.com/2013/04/blog-post_28.html)

- سيف الدين عبد الفتاح، دكتور، «فتاوى الأمة بين التأصيل والتخذيل»، مقال منشور على موقع إسلام أون لاين بتاريخ 08 /09 /2003
- عبد الباقي خليفة، «دور الفتوى في الحفاظ على الهوية الإسلامية في البلقان»، مقال منشور بموقع الإسلام اليوم، بتاريخ السبت 26 رمضان 1429 الموافق 11 أكتوبر 2008

ثالثًا- مرئيات:

- الأزهر (فيلم تسجيلي من وثائقيات قناة الجزيرة الفضائية).
- بالفيديو.. شيخ الأزهر: مواجهة أي احتجاج سلمي بالقوة يوجب عزل الحاكم

«http://al- mashhad.com/News/Search/%D8%A8%D8%A7%D984%%D981%%D98%A%D8%AF%D9%8A%D988%..-%D8%B4%D98%A%D8%AE-%D8%A7%D984%%D8%A3%D8%B2%D987%%D8%B1:-%D985%%D988%%D8%A7%D8%AC%D987%%D8%A9-%D8%A3%D98%A-%D8%A7%D8%AD%D8%AA%D8%AC%D8%A7%D8%AC-%D8%B3%D984%%D985%%D98%A-%D8%A8%D8%A7%D984%%D982%%D988%%D8%A9-%D98%A%D988%%D8%AC%D8%A8-%D8%B9-%D8%B2%D984-%%D8%A7%D984%%D8%AD%D8%A7%D983%%D943992/85%.aspx»

معجم الأعلام المترجم لهم

- أحمد بن إبراهيم الشرقاوي، الشيخ الشهيد
- البيومي، الشيخ العارف بالله تعالى
- الجيلاني، الشيخ المجاهد
- حسن بك الجداوي
- حسن باشا القبطان
- حسين بك الشفت
- خليل البكري
- الدردير، الشيخ الإمام العارف بالله تعالى
- السادات، شيخ السادات الوفائية
- سليمان الجوسقي، الشيخ الرئيس
- سليمان المنصوري، الشيخ المفتي
- العروسي، شيخ الإسلام
- علي الصعيدي، الشيخ الإمام
- عمر مكرم، السيد النقيب
- محمد ابن الجوهري، الشيخ الإمام.

- محمد باشا خسرو
- محمد المصيلحي، الشيخ الإمام
- محمد المغربي
- نفيسة المرادية
- يوسف باشا الوزير